ماذا بعد إعلان سلمان رشدي توبته؟

دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية

دكتور / إبراهيم عوض

آداب عين شمس

١٤١٢ — ١٩٩١

ماذا بعد إعلان سلمان رشدي توبته ؟ .

دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية

د . إبراهيم عوض
آداب عين شمس

الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

ماذا بعد إعلان سلمان رشدى التوبة ؟

* تناقلت وسائل الإعلام قبل فترة ليست بالطويلة أن سلمان رشدى ، صاحب « الآيات الشيطانية » ، قد أعلن توبته عمّا افتراه قلمه على رسول الله ﷺ ودينه وزوجاته وصحابته ، وأنه خرج من الكفر إلى الإسلام ، بعد أن درس دراسة جيدة دين محمد ، الذى كان يجهله قبل ذلك ، وكان من جراء جهله به أن سطرَّ قلمه ما سطرَّ فى الرواية التى ندرسها فى هذا البحث .

* وقد تساءل الناس وما زالوا عن مدى صدق هذه التوبة ، وهل أصبح سلمان رشدى حقا مسلماً ؟ أو هى مجرد حيلة احتالها ليخرج من الحصار الذى وضعته هذه الرواية فيه ، والذى ضيّق عليه الأرض بما رحبت ، وهدّد حياته أشد تهديد ؟ .

* والحقُّ أن موقف الإسلام من هذا الأمر واضح لا لبس فيه فإعلان الكافر التوبة والدخول فى الإسلام هو مسألة بينه وبين ربّه ، وإذا كان الواحد منا نحن المؤمنين لا يستطيع أن يدّعى أنه يعرف مصيره ، فكيف يمكنه أن يجزم بكذب كافر تائب أو صدقه ، إن لنا هنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، إذ أمره القرآن الكريم أن يعلن قائلاً : « وما أدرى ما يُفعل بى ولا بكم »[1] . إذن فإعلان سلمان رشدى توبته ودخوله فى

---

(١) الأحقاف : ٩

الإسلام قد نقله شكليا من جماعة الكفار إلى جماعة المسلمين . ثم تأتى أفعاله ومواقفه وكتاباته بعد ذلك لتصدّق هذا الإعلان أو تكذّبه . أى أن ذلك الإعلان لا ينبغى أن يقضى على يقظتنا وانتباهنا لما يفعله الرجل بعده .

* على أن اللافت للنظر فى أمر هذه التوبة ما سمعناه من أن سلمان رشدى قد صرّح بأنه كان يجهل الإسلام وتاريخ نبيه فكان أن كتب ما كتب . لكن الذى ينظر فيما سطره فى الآيات الشيطانية عن الرسول عليه السلام وأهل بيته وصحابته ودينه يتبين أن المؤلف لم يكن كما قال جاهلاً بالإسلام وسيرة رسوله بل كان يعرف ذلك كله معرفة جيّدة ، ولكنه تعمّد التحريف والإساءة والخلط ليصل إلى هدفه من تشويه صورة الرسول عليه الصلاة والسلام والإساءة إلى زوجاته الطاهرات وصحابته الكرام . وسوف يرى القارئ ذلك فى الفصل الذى عقدناه فى هذه الدراسة لمعالجة هذا الموضوع .

* وفضلاً عن ذلك ، فليست المسألة فى « الآيات الشيطانية » مسألة جهل فقط (إن صدّقنا حكاية « الجهل » هذه) ، ولكنها مسألة قلة ذوق وبذاءة وفُحش فى اللفظ ورغبة مريضة حارقة فى الإساءة إلى الحرمات النبوية النبيلة ، مما لم يجرؤ على تسطيره - فيما نعلم - أحد من المستشرقين منذ العصور

الوسطى إلى اليوم . ولقد خصصنا لهذه النقطة فصلاً كاملاً من البحث الذى نقدمه هنا للقارئ . وسوف يلمس القارئ بنفسه هذا الفحش الذى جاوز كل الحدود .

* كذلك فقد سمعت سلمان رشدى فى إذاعة الـ B . B . C الناطقة بالإنجليزية ذات ليلة (وكان ذلك أيام تناقل وسائل الإعلام العالمية خبر توبته) يطلب من السلطات الإنجليزية أن تحميه ، مما أثار عجبى ودهشتى ، إذ كيف يطلب من الإنجليز ذلك إذا كان قد انسلخ فعلا من ماضيه ، مما يحمله هذا الماضى من الارتباط بدوائر الاستعمار الأوربىّ والمسير فى ركابه والعمل على تنفيذ مخططاته ضد الإسلام ونبيّه ؟ هل هو من السذاجة بحيث يظن أنهم سيعملون على حمايته بعد أن انقلب عليهم وتنكر لما تمثله حضارتهم وثقافتهم وأصبح واحداً من المسلمين ؟ إنه لأمر محيّر حقا !

* هذا بعض ما يدور بالنفس مما لا يجد له الإنسان جواباً مريحاً . لكن ذلك كله شئ ، والقول بأننا لا ينبغى أن نقبل توبة الكاتب شيء آخر ، فنحن لسنا ربَّ الدين ، إنما نحن مجرد عباد له ، مثلنا فى ذلك مثل سلمان رشدى وسائر العباد والمخلوقات .

* وبعد ، فقد كنت كتبت هذه الدراسة منذ نحو سنتين ، أي بعد صدور « الآيات الشيطانية » بقليل ، وكان المفروض أن تظهر منذ وقت طويل ، لكن حدث ما عطل نشرها طيلة هذه المدّة ، فأرجو أن يتنبه القارئ إلى ذلك كما أرجو أيضا أن يتنبّه إلى أن قولنا إن إعلان سلمان رشدى توبته هو مسألة بينه وبين ربّه لا يستتبع أن نغض الطرف عما جاء بروايته . فهذه الرواية ما زالت فى الأسواق تُباع وتُشْتَرى ، وما زال الناس يقرأونها بما فيها من أكاذيب مفتراة وسوء نية بشع وبذاءات شنيعة . وعلى هذا ، فلا بدَّ من تناول هذه الرواية بالدراسة والنقد لما جاء فيها من تضليل وفحش إن المسلم كيِّس فطن حذر ، وينبغى عليه أن يكون يقظا فلا تختلط الأوراق فى يديه .

القاهرة فى /٢ / ٤ / ١٩٩١ م

* * *

مقدمة

فى هذا الكتاب دراسة مفصلة وصريحة لرواية سلمان رشدى « الآيات الشيطانية : The Satanic Verses » ، التى أقامت العالم وأقعدته . والمقصود بالآيات الشيطانية الآيتان اللتان قيل فى بعض المراجع القديمة إنهما قد تُليتا بعد الآية العشرين من سورة « النجم » حين قرأها الرسول على أهل مكة لأول مرة ، وإن قائلهما هو الشيطان ، ألقاهما على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام دون أن يتنبه لذلك فى حينه ، ثم نبهه جبريل عليه السلام إليه ، أو إن الشيطان قد أوهم السامعين أن الرسول ﷺ قد قالهما . ونصّ هاتين الآيتين المزعومتين هو : « إنهن [١] الغرانيق العُلا وإن شفاعتهن لتُرتجى » [٢] .

وقد اختلف المعلقون على كتاب سلمان رشدى فى ترجمة عنوانه : فبعضهم جعلها « آيات شيطانية » . وقد راجت هذه الترجمة رواجا واسعا ، لدرجة أن الإذاعة البريطانية الناطقة

---

(١) أى اللات والعزى ومناة ، وهى ثلاثة من أصنام العرب المشهورة .

(٢) هناك روايات أخرى للآيتين المزعومتين ، ولكن هذه أشهرها .

بالعربية كانت ترددها آنذاك فى نشرات أخبارها ، وذلك رغم عدم دقتها ، إذ أن كلمة « آيات » فيها منكرّة على خلاف الأصل الإنجليزى ، وكذلك على خلاف الآيتين المقصودتين بالتسمية ، فهما معروفتان مشهورتان ، ولا معنى من ثم لتنكيرهما . وبعضهم ابتعد أكثر من ذلك عن الأصل ، وترجمه بـ « آيات الشيطان » . وبعض آخر ازداد ابتعادا فجعله « أشعار شيطانية » ، وَهْمًا منه أن كلمة « verse » هنا معناها « شعر » ، وما دامت قد جُمعت على « verses » فهى أشعار . وفاته أن الكلام فى الرواية عن القرآن وآياته ، وليس عن الشعر ، وأن المؤلف نفسه داخل كتابه قد أشار إلى ما رُوى من أن خالد بن الوليد هو الذى سمى تينك الآيتين المزعومتين بـ « آيات الشيطان » . كما غفل هذا البعض عن أن كلمة « verse » (بمعنى الشعر) لا تُجمع ، ولا تسبقها أداة التنكير « a » فى حالة الإفراد . إنما قد تجمع (فى هذا المجال) بمعنى « أبيات الشعر » ، ولكن هذا ليس هو المقصود هنا .

هذا ، وقد ظهر حتى كتابة هذه السطور عدة كتب عن هذه الرواية ، عدا المقالات والتحقيقات والأخبار الكثيرة التى نشرتها الصحف والمجلات المختلفة . ولا شك أن أصحاب هذه الأعمال جميعا أصحاب فضل كبير . ولكن رغم هذه

الكتب [٣] والمقالات والتحقيقات فلا يزال هناك مكان لهذه الدراسة التى بين يدى القارئ ، ذلك أنها - فيما أرى - هى الدراسة الوحيدة التى تأخذ القارئ وتغوص به فى أعماق الرواية (وهى أعماق عفنة ومنتنة) ، وتضعه وجها لوجه مع ما ورد فيها دون جمجمة أو لف ودوران . إنها دراسة صريحة ومباشرة ، ولا تكاد تترك شيئا فى الرواية دون مناقشته تفصيلا ودون أن تتبعه إلى جذوره بلا أدنى حرج . وسوف يرى القارئ بعد مطالعتها أن ما كان يعرفه عن الرواية وبشاعاتها إنما هو جدّ قليل . وذلك فضلا عن أن هذه الدراسة لم تكتف بمناقشه مضمون الرواية ، بل درستْ أسلوبها فى بضع عشرات من الصفحات وبناءها الفنى فى بضع عشرات أخرى ، إلى جانب أنها قد نفضَتْ برميل البذاءات والقاذورات التى تمتلئ بها الرواية ، كى يرى القارئ بنفسه مدى الشذوذ النفسى والخلقى الذى ابتُلى به مؤلف الرّواية فلم يشأ أن يستره ، بل استعلن به وفاخر .

وفى النهاية ينبغى ألا يفوتنى أن أشكر الأخ يسرى صقر الصحفى بجريدة « العرب » اللندنية ، والذى لولاه ما حصلتُ على نسخة من هذه الرواية ، والأستاذ حسين على حسن [٤]

---

(٣) وصلتنى هذه الكتب كلها تقريبا بعد أن فرغت من بحثى هنا ، ولكنى استطعت قبل تبييضه أن أناقش ما يهمنى منها فى مواضع متفرقة من البحث

(٤) حصل بعد ذلك بقليل على درجة الدكتوراة .

المدرس المساعد بقسم الفلسفة بآداب عين شمس ، فهو الذى ما إنَّ علم بحصولى على نسخة من الرواية حتى ألحَّ علىَّ أن أدون ملاحظاتى عليها أثناء مطالعتى لها ، وأن أفكر فى دراستها ، فترددتُ فى البداية لما صدمتنى به الرواية من ثقل حركة أسلوبها وهلوساتها ، ثم استعنت بالله وأخذت باقتراح الزميل الكريم ، فكانت النتيجة هى هذه الدراسة .

وبعد ، فأرجوَّ أن تسد هذه الدراسة نقصًا فى المكتبة الإسلامية . إن رواية « الآيات الشيطانية » تعد فى رأيى عملاً من أعمال المستشرقين رغم شكلها الفنى . ولست من أنصار تجاهلها والإغضاء عما فيها ، فما دامت قد صدرت فلا بد أن تُدرس وتُناقش ، وإلا فسيفسَّر سكوتُنا على أنه عجز منا وتسليم بما فيها . وإننا حين ندرسها إنما نتأسى بسنة القرآن سنة المواجهة والرد على المفتريات ، وعرض حجة الخصم ثم الكرَّ عليها بتبيين عوارها وفهاهتها . والله ولى الحق ، وهو يهدى السبيل .

حدائق القبة - أغسطس ١٩٨٩

* * *

أسلوب الرواية

إذا كان سلمان رشدى هندى الأصل فإنه قد هاجر في صباه إلى بريطانيا ، وتلقى تعليمه هناك فى المدارس والجامعات الإنجليزية ، وعاش مختلطاً بالإنجليز على مدى أكثر من ثلاثين عاماً . كما أنه قد تزوج فتاة بريطانية ، ولما طلقها تزوج أخرى أمريكية (١) وفضلاً عن ذلك فإنه شديد التدله فى هوى الثقافة الإنجليزية ، يبذل قصارى جهده فى إخضاع حياته لأساليبها ومحاولة التبريز داخل إطارها ، كى يثبت للإنجليز أنه واحد منهم ، وليتخلص من عار هنديته وإسلامه . ولعل هذا وغيره يفسر معرفته الجيدة للغة الإنجليزية ، التى يقول أنيس منصور إنه قد فاز بعدد من الجوائز الأدبية بقوة أسلوبه فيها (إلى

---

(١) أنظر د . شمس الدين الفاسي / آيات سمارية فى الرد على كتاب آيات شيطانية / دار مايو الوطنية للنشر / القاهرة / ص ١١ - ١٤ ، ود . نبيل السمان / همزات شيطانية وسلمان رشدي / دار الإسراء / القاهرة / ١٩٨٩ / ص ٢٧ - ٢٩ ، وأنيس منصور / سلمان الكذاب . مؤامرة على الإسلام / صحيفة أخبار اليوم (القاهرية) السبت (٢٥ / ٣ / ١٩٨٩) ص ٦ . هذا ، وقد بلغنى بعد أن فرغت من هذا الكتاب أن زوجته الأمريكية هى أيضاً قد طلقت منه .

جانب براعته الفنية)[٢] ، والتي يصفه ديف ليبارد ، أحد النقاد الإنجليز بالبراعة الفائقة فيها [٣] ، وإن كان هناك من بين من كتبوا عنه من يصفون لغته بالركاكة [٤] ، أو يرون أسلوبه مملاً منفّراً [٥] وفي هذا الفصل سنحاول أن ننظر فى لغة سلمان رشدى وأسلوبه كما يتبديان فى الرواية التى بين أيدينا .

والذي أراه أن سلمان رشدى على معرفة واسعة باللغة الإنجليزية ، بيد أن هذا شئ والقول بأن أسلوبه رائع وجميل شئ آخر . واعتقادى أنه متمكن من الإنجليزية يقوم على عدّة مسوّغات : فمدى المفردات التى يستخدمها مدى واسع . وهو فى استعماله لهذه المفردات ، رغم غرابتها فى أحيان كثيرة (سواء كانت هذه الغرابة ناشئة من لجوئه إلى ألفاظ مهجورة أو على الأقل غير شائعة ، أو من اشتقاقه هو أحيانا ألفاظا من عنده) لايبدو عليه التكلف أو المعاناة ، بل يفعل ذلك فعل القابض على

---

(٢) أنيس منصور / المقال السابق فى « أخبار اليوم » .

(٣) نقلاً عن د . نبيل السمان / همزات شيطانية / ص ١٠٧ .

(٤) سامى خشبة / الأسئلة الأولى والملامح الخارجية فى آيات شيطانية / الأهرام / الجمعة (١٢ / ٥ / ١٩٨٩) / ص ١٢ .

(٥) انظر زهير حسين الهاشمى ؛ وقفة نقدية مع المرتد رشدى - أساطير شيطانية ملغومة بكلام خبيث/مجلة « العالم » (اللندنية) / السبت (٢٩ / ٤ ١٩٨٩) / ص ٥٠ .

اللغة بمهارة وثقة . وهو فى أحيان غير قليلة يتبع الكلمة أو العبارة بأكثر من مرادف لها . وأيضا فإنه فيما يبدو لا يعجز عن استدعاء اللفظ الذى يحتاجه ، حتى لو كان مصطلحا أو تعبيرا خاصا من مصطلحات العلوم المختلفة وتعبيراتها . وهو كثيرا ما يطيل جملته ، وأحيانا ما يكون طولها مرهقا ، إذ تتشعب وتمتلئ بالاستطرادات والاعتراضات . ومع هذا فلا ركاكة فى تركيب الكلام ، وإن كان هذا يرهق القارئ كثيرا ويصيب الأسلوب بآفة الاملال . كذلك فإنه ، كما سلفت الإشارة ، كثيرا ما يشتق كلمات وتعبيرات بل وتراكيب جديدة فضلا عن بعض الصور الطازجة والطريفة . وهو فضلا عن ذلك يتلاعب باللغة أحيانا ، ويعرف حيل السجع والجناس جيدا ويوردهما عندما يريد . ولعله ينبغى أن أذكر هنا أيضا هذا الكم الهائل من المفردات والعبارات البذيئة التى تتعرض للعورات والفضلات ، فى صراحة فى أغلب الأحيان ، أو فى مواراة ، وهو القليل ، وإن كانت مواراته فى هذه الحالة فى شناعة الصراحة عادة ، بل وأشنع أحيانا .. إن البراعة فى هذا الميدان قد يمكن أن تُتخذ دليلا على غوص الكاتب فى اللغة ، لأن هذا هو الجانب الخفى المظلم فى أية لغة ، والإنسان لا

يصل إلى هذا الجانب عادة إلا بعد أن يكون قد خبر اللغة جيدا وعرف كثيراً من أسرارها ودقائقها [٦] .

وقد لاحظت أن هناك كلمات قد تكررت فى الرواية بصورة لافتة للنظر ، وبخاصة كلمات البذاءة والفحش ، مثل كلمة « bugger : مأبون » و « bastard : ابن زنا أو ابن حرام » ومن الكلمات التى تكررت أيضا كلمة « avatar » ، التى تعنى إلها هنديا أو شخصا من نسل الآلهة ، وبخاصة الإله فشنا . وهى من تأثيرات بيئة الكاتب الأولى . أما تأثيرات الوسط الإسلامى الذى تشرب فى طفولته عقائده وأفكاره فتتضح فى كلمات « عفريت » و « غول » و « جنى » و « شيطان » (بنطقها العربى) ، والتضرع الإسلامى : « يا ألله » (بالنطق العربى أيضا) [٧] ، ولفظتى : « عيد : Aid »[٨] ، و « مكة شريف » . ومن ألفاظ أهل الكتاب ، وهى من تأثير بيئته ووسطه الثقافى الجديد كلمة « هللويا »[٩] ، التى - إلى جانب استخدامه لها عدة مرات - قد سمّى بها أيضا إحدى

---

(٦) سوف أتناول هذه البذاءات والقاذورات فى فصل قائم بذاته .

(٧) الرواية / ص ٢٤٤ ، ٥٠٢ مثلا .　　(٨) ص / ٢٧٦ .

(٩) معناها « مجدوا الرب » . وهى مأخوذة كما هى من المزامير . انظر Encyclopedie de la Bible , Editions seauoida , Paris - Bruxelles , 1961 , p 16 .

شخصيات رواية (وهى هللويا كون عشيقة جبريل فاريشتا) ، وكذلك « بعلزبوب »[١٠] و « Hosanna : المجد لله »[١١]
كما تكرر استخدامه لكلمة « This » بين فاصلتين بعد الاسم أحيانا ، مثل قوله : « A legacy , this of her » « father »[١٢] ، و « ... , an affliction of age , this »[١٣]
وهو كثيرا ما يورد الكلمتين التاليتين فى أحاديث المتحاورين : « yaar » و « eh ? » .

ومن سمات أسلوبه إيراده ألفاظا وتعبيرات من لغات أخرى غير اللغة الإنجليزية ، مع ترجمتها الإنجليزية أحيانا ، وبلا ترجمة أحيانا أخرى . وقد تقدمت الإشارة إلى بعض الكلمات العربية التى تكررت فى الرواية عددا غير قليل من المرات .

---

(١٠) معناها « إله الذباب » . وربما كانت تحريفا لـ « بعلزبول » إله الكنعانيين . وفى العهد الجديد جاءت على ألسنة الفريسيين بمعنى « أمير الشياطين » . انظر - The New Bible Dictionary , London , Inter Varsity press , p . 116 .

(١١) وردت هذه الكلمة فى العهد القديم فى الضراعة ليهوه أو لأحد الملوك ، ثم أصبحت صيحة فرح وابتهاج . وقد استُقبل بها سيدنا عيسى عليه السلام عند دخوله بيت المقدس . انظر . Encyclopedie de la Bible , p . 119 .

(١٢) الرواية / ص ٣٠٩

(١٣) ص / ٣٥٩ . وقد وردت فى ص / ٣٩٧ ، ٤١٥ وغيرهما .

ويمكننا أن نضيف إليها لفظة « دجال » ، التى وضعها على لسان هند فى حق سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام [١٤] ، ولفظة « تخت » [١٥] ، ولفظة « الكلمة » (أى « أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله » [١٦] ، و « كاهن » [١٧] و « ولاية » ، التى يكتبها « Vilayat » [١٨] ، وعبارة « كان ما كان ، فى قديم الزمان » [١٩] . أما من خارج اللغة العربية فتقابلنا كلمة « La pala 330 » التى يبدو وأنها إيطالية [٢٠] ، وكلمة « Verboten » الألمانية (بمعنى « ممنوع ») [٢١] ، ومثلها كلمة « Kaputt »[٢٢] ، ومن الفرنسية نجد مثلا الألفاظ والعبارات التالية : « Trop fatale » التى كتبها مرة كما هى ، ثم أعادها بعد أن أقحم بين الكلمتين الفرنسيتين ظرفا عاميا إنجليزنا (هكذا : Trop jolly fatale) [٢٣] و « Pour encourager les auters

---

(١٤) ص / ٣٧١ (١٥) ص / ٣٧٤

(١٦) ص / ٣٧٤ . وقد كتبها بفتح الكاف وسكون اللام (هكذا : The Kalmah) .

(١٧) ص / ٤٨١ . (١٨) مثلا ص / ٢٤٨

(١٩) ص / ١٤٣ ، ٥٤٤ مثلا . (٢٠) ص / ٣٧٦ .

(٢١) ص / ٣٣٢ . (٢٢) ص / ٥٢١

(٢٣) ص / ١٤٧ . وقد كتب فى المرة الثانية لفظتى Trop fatale بالحروف المائلة ، والكلمة الإنجليزية بالحروف القائمة .

لتشجيع الآخرين » [٢٤] ، و « L'amour » و « L'oiseau rebelle » [٢٥] ، ومن العبارات الفرنسية المصحوبة بالترجمة « Les beaux jours : the dear dead days » بمعنى « الأيام الجميلة الماضية » [٢٦] . ومن اللاتينية « Civis Britannicus sum » [٢٧] . ثم هذه العبارات والكلمات الهندية : « Pyaar kiya to darma kya » [٢٨] ، و « Ammaj » [٢٩] و « Chapassi » [٣٠] ، « yatris » [٣١] و « Benche achen » [٣٢] ، و « Padyatra » ، التى ترجمها بما يعنى « الحج على الأقدام » [٣٣] ومن الطبيعى أن تجرى مثل هذه الكلمات الأخيرة على ألسنة الشخصيات الهندية فى الرواية ، وبخاصة أن الأحداث حينئذ تجرى فى الهند نفسها . وفضلا عن ذلك فهى لمسة محلية للإيحاء بالبيئة ، وإن كان يعيبها أن القارئ للكلمات غير المترجمة لن يفهم المراد . وهذا يسبب له شيئا من الإرهاق والنفور بسبب هذا الحاجز اللغوى السميك ، فإنه يقرأ رواية ، والمفروض فى العمل

---

(٢٤) ص / ٣٣٢ (٢٥) ص ٣٩٧ (٢٦) ص / ١٣٠
(٢٧) ص / ٣٩٨ . وهناك مثالان آخران على الأقل ص/٤٠٤ ، ٤١٨ .
(٢٨) ص / ٣٣٤ ، وقد أتبعها بترجمتها .
(٢٩) ص / ٤٨٧ (٣٠) ص/٤٨٦ . (٣١) ص/٤٨٨
(٣٢) ص / ٢٧١ (٣٣) ص / ٤٨٨

القصصى أنه لا يحوج لمراجعة المعاجم ، بله أن تكون المعاجم أجنبية ، فهو ليس بحثا علميا يتحصن له القارئ بهذا النوع من المراجع .

وتكثر فى الرواية كثرة ملحوظة الكلمات المهجورة أو على الأقل غير الشائعة . وقد أشار إلى ذلك زهير حسين الهاشمى ، الذى ذكر أن من سمات أسلوب الرواية الثقيل « العبارات والاصطلاحات الميتة التى لا توجد إلا فى القواميس »[٣٤] ومن الأمثلة على ذلك قوله : « Sempiternal : سرمدى »[٣٥] و « dank : مزعج الرطوبة »[٣٦] ، و « To extrude : ينفث ، يقذف »[٣٧] ، و « Windshield : زجاج السيارة الأمامى »[٣٨] (بدلا من « Windscreen » الأكثر شيوعا) و « Snickering : يضحك ضحكة مكتومة »[٣٩] ، و « To nab : يقبض على ... »[٤٠] ، و « Woebegone : مكروب - خرب »[٤١] ، و « Ensconced : مستكن »[٤٢] ،

---

(٣٤) سبق ذكره
(٣٥) ص / ١٣٠
(٣٦) ص / ١٢٩
(٣٧) ص / ٢١٢
(٣٨) ص / ٣٣٧ ، ومثلها « : فُواق (زغطة) » ، التى يستعملها بدلا من « Hiccough » ، رغم أن النطق واحد . ص / ١٧٢ .
(٣٩) ص / ٣٥٩
(٤٠) ص / ٣٧٥
(٤١) ص / ٣٩٠
(٤٢) ص / ٤٧٣

و « To wheedle : يتملق » [٤٣] ، وهلم جرا . وهناك كلمات لم أجدها فى معجم إلياس العصرى أو المورد أو معجم ويستر أو لاروس لوكجمان ، وهى ليست بالمعاجم الصغيرة بحال ، مثل « an eatery » [٤٤] ، و « Kissery » [٤٥] ، و « Detumescence » [٤٦] .

والكاتب مغرم بالترادف ، حتى فى الحوار حيث من المفروض أن يكون لكل متحدث أسلوبه الذى يختلف عن أسلوب غيره ، مثلما أن له شخصيته الخاصة به . ولا يعقل طبعا أن يكون المتحاورون جميعا أو معظمهم مغرمين ، بالمصادفة ، بالترادف ومن أمثلة ذلك قول خاطفة الطائرة : « Uncompromising , absolute , strong » [٤٧] (وكلها كلمات تدور حول التشدد وعدم التنازل) ، وكذلك الكلمات الآتية (وهى عكس المترادفات السابقة) : « Timeservers , who compro- mise , yield » [٤٨] ، و « عفريت ، جنى ، شيطان » ، التى تكرر مجيئها معا فى الرواية بطريقة لافتة للنظر ، وينطقها العربى ، و « Not a tola , not an ounce : ولاذرة » [٤٩]

---

(٤٣) ص / ٤٨٧ (٤٤) ص / ٢٤٨ (٤٥) ص / ٣٧٤
(٤٦) ص / ٣٧٩ (٤٧) ص / ٨١ (٤٨) نفس الصفحة .
(٤٩) ص / ٢٤٦

و « Her sister , her roommate , side kick shadow , echo and foil » (٥٠) ، و « its blazering siberias , the gulag - infernos of Heil » (٥١) ، بمعنى « أشد أنواع العذاب والألم » و « Wisps Of smoke , » ، « heat - mirages , ghosts » (٥٢) ، أى « أوهام » ، أخيرا هذان المثلان اللذان تنتمى المترادفات فى كل منهما إلى لغات مختلفة : « The city of London transformed into Jahannum , Gehenna , Muspelheim » حيث أورد اسم «جهنم» بلغات ثلاث) و Puppet , Kathalti, marionnette » : العروس المتحركة » (بلغات ثلاث أيضا) (٥٣) .

وقد لاحظت أنه يكثُر فى لغة الرواية نوعا من الكلمات : ذات السوابق الدالة على النفى وما يشبهه ، والصفات المركبة . ومن أمثلة النوع الأول الكلمات الآتية: « de - politicising » (٥٤) ، و « Inescapabitity » ، و « Unforeseable » (٥٥) ، و « disingenuous » ، و « Inconvertible » (٥٦) ، و « Imperfections » (٥٧) ،

(٥٠) ص / ٢٧١ (٥١) ص / ٣٣٢ (٥٢) ص / ٧٤ - ٧٥

(٥٣) ص / ٤٦٠ (٥٤) ص / ٢٦٨ (٥٥) ص / ٣١١

(٥٦) ص / ٣٨٦ (٥٧) ص / ٤٠٠

و « Deconstructive » [٥٨]، و « Deselected » [٥٩]،
و « Defrosted » [٦٠]، و « Unending » [٦١]،
و « Deflated » [٦٢]، و « Insouciant » [٦٣]،
و « Unconvinced » ، و « Unsleeping » [٦٤]،
و « To unnerve » [٦٥]، و « Undeceived »،
و « Untarnished » [٦٦]، و « Un Englished » [٦٧]
... إلخ .

أما الصفات المركبة فأقصد بها الصفات المكونة من كلمتين بينهما شرطة صغيرة عادة ، مثل With a great un - Pa-mela - like slurp : تمضغ بصوت عال لا يصدر عادة عن باميلا « [٦٨]، و « Bat - winged imps : عفاريت لها أجنحة خفافيش « [٦٩]، و «Heavy - duty medication: دواء مرتفع الرسوم الجمركية « [٧٠]، و « - Huddled masses rhetoric : بلاغة الجموع الحاشدة « [٧١]،

---

(٥٨) ص / ٤٠٨ (٥٩) ص / ٤١٨ (٦٠) ص / ٤٣١
(٦١) ص / ٤٥١ (٦٢) ص / ٤٦١ (٦٣) ص / ٤٧٣
(٦٤) ص / ٤٧٥ (٦٥) ص / ٤٩١ ، ٥٠٤ ، ٥٢٣ .
(٦٦) ص / ٥٢١ (٦٧) ص / ٥٢٣ (٦٨) ص / ١٧٥
(٦٩) ص / ٣٢١ (٧٠) ص / ٣٣٩ (٧١) ص / ٣٩٩

و « bushy - bearded : ذو ذقن طويلة شائكة » ، و « Open - armed : فاتحا ذراعيه » (٧٢) ، و « Evil - looking piggy - eyed : ذو ملامح شريرة ، وعيناه كعينى الخنزير » (٧٣) و « Army - surplus ... jacket : سترة من مخلفات الجيش » (٧٤) ، و « Sweat - glistened : يلمع عرقا » (٧٥) ، و « Matchst ick - thin : رفيع كعود الكبريت » (٧٦) ، و « Puff - chested : منتفخ الأوداج » (٧٧) و « His wild haired wife : زوجته ذات الشعر الفجرى » (٧٨) و « Butterfly - shrouded : ترتدى ثوبا من الفراشات » (٧٩) و « Suit - hanger bag : حقيبة تعلق فيها الملابس » (٨٠) و « Dust - clouded : تغطيه سحابات الغبار » (٨١) وقد لاحظت أن من بين هذا النوع من الصفات : الصفات المكونة من كلمتين معطوفتين بحرف العطف « and » مثل : « Silk and lace lingery » (٨٢) ، و « In the ... hit - and - miss manner : بطريقة من يصيب مرة ويخطئ أخرى » (٨٣)

---

(٧٢) ص / ٣٩٩   (٧٣) ص / ٤٠٢   (٧٤) ص / ٤١٢

(٧٥) ص / ٤٢٢   (٧٦) ص / ٤٥٢   (٧٧) ص / ٤٧٥

(٧٨) ص / ٤٧٦   (٧٩) ص / ٤٨٥   (٨٠) ص / ٥١٢

(٨١) ص / ٤٨١   (٨٢) ص / ١٢٩   (٨٣) ص / ٤١٨

و « Stone - and - tile houses » : بيوت من الحجارة والبلاط »[٨٤]، و « Ared - earth - and rubble - weste land » : أرض حمراء التربة تمتلئ بكسارة الحجارة »[٨٥]، و « out - and - out assaults » : هجمات صريحة »[٨٦].

والمؤلف فى أحيان كثيرة يستخدم أسماء وصفات وظروفا كل منها عبارة عن جملة كاملة أو ما يقرب من ذلك ، مثل : « Of magic lampism » : سحرية المصباح »[٨٧]، و « of what - will - I - tell - my - friends »[٨٨] و « كون الإنسان (افتح يا سمسم »[٨٩]، و « Without a penny or a by your leave »[٩٠]، و « This hairs - on - neck prickliness » : إحساس المرء بأن على قفاه شعرات تشوكه »[٩١]، و « matter- of - fact revelation »[٩٢]، و « mirror - of - princes literature »[٩٣]، و « his much - to - be - said - for - and - against re- flex »[٩٤]، و « in an I - give - up gesture » :

---

(٨٤) ص / ٤٣٤ (٨٥) ص / ٥١٩ (٨٦) ص / ٥٣٧

(٨٧) ص / ٦٩ (٨٨) نفس الصفحة . (٨٩) نفس الصفحة .

(٩٠) ص / ١٣٤ (٩١) ص / ٣٠٩ (٩٢) ص / ٣٦٦

(٩٣) ص / ٤٠١ (٩٤) ص / ٤٠٨

بحركة من يقول : لقد استسلمت » [٩٥] ، و « The soles - on - brocken - glasspains : آلام من يمشى حافيا على زجاج مهشم » [٩٦] ، و « matter of factly : وصفه أمرا عاديا » [٩٧] .

كذلك وقعت فى الرواية على عدد من الكلمات المشابهة لـ « حزّر فزّر » و « حيص بيص » ، ومن ذلك : « dilly - dally » [٩٨] ، و « hunky punky » [٩٩] ، و « chitchat » [١٠٠] و « Abracadabra » [١٠١] ، و « Hocus pocus » [١٠٢] .

والكاتب كثيرا ما يكرر فى وسط الجملة كلمة من الكلمات عدة مرات (عادة ثلاثا) قبل أن يستكمل كلامه (وهى من بهلوانياته) ، مثل « butbutbut : لكنلكنلكن » [١٠٣] ، و « and - and - and » [١٠٤] ، و « suchandsuch » [١٠٥] و « anti - anti - anti racist : ضد ضد ضد التفرقة العنصرية » [١٠٦] ، و « the anger , the anger , the anger » [١٠٧] ، و « in the thin thin air : تبدد فى

---

(٩٥) ص / ٤٣٢ (٩٦) ص / ٣٤٣ (٩٧) ص / ٢٢٥
(٩٨) ص / ٣١٩ (٩٩) نفس الصفحة (١٠٠) ص ٣٤٣
(١٠١) ص / ٣٥٤ (١٠٢) نفس الصفحة (١٠٣) ص / ١١٢
(١٠٤) ص / ١٣٣ (١٠٥) ص / ١٦٣ (١٠٦) ص / ٢٨١
(١٠٧) ص / ٢٨٩

الـ فى الهواء » [١٠٨] . أما فى المثال التالى : « الأفضل أن تهز نفسك فى هذا الكرسى ، ثم لا تفكر ، لا تفكر ، لا تفكر » [١٠٩] فإن التكرار يؤدى وظيفة فنية ، إذ أنه يوحى برتابة اهتزاز الكرسى .

ولعلك لحظتَ أنه أحيانا ما يكتب الكلمات المكررة مشبوكة وبالمثل نراه فى حالات كثيرة يشبك كلمات جملة أو عبارة بأكملها فى بعضها البعض كأنها كلمة واحدة . ومن ذلك على سبيل المثال : « Plaintosee : واضحكلذيعينين » [١١٠] ، و « Onceuponatime : كانيا ما كان » [١١١] ، و « Matchoftheday : مباراتاليوم » [١١٢] ، و « Ifisay-somyself » [١١٣] وكذلك : « Getoutofitsilloldmoo : اخرجمنهايامرالسخيف » [١١٤] ، و « Bythesametoken : للسينفسه » [١١٥] ، و « The otherworld : العالمالآخر » [١١٦] و « Wherethehell whothe whatthe dontthinkyou-can pull the word howdareyou bitchbitch Bitch » [١١٧] ، وأحيانا ما يكتب كلمات جملة بأكملها

---

(١٠٨) ص / ٣١٣ (١٠٩) ص / ٥٠٦ (١١٠) ص / ١٢٢
(١١١) ص / ١٤٥ (١١٢) ص / ١٦٣ (١١٣) ص / ١٨٣
(١١٤) ص / ١٣٤ (١١٥) ص / ٣٣١ (١١٦) ص / ٤١٢
(١١٧) ص / ٤٤٢ - ٤٤٣

مفصولة كل منها عن الأخرى بشرطة قصيرة ، مثل « He - who - goes - up - and - down - old - coney »[١١٨] و « he - for - whan - thanks - should - be - my - mother - says - you're - »[١١٩] ، و « given the - fairy - queen »[١٢٠] .

وهو يكثر من سوق المعطوفات أحيانا بلا فاصلة أو حرف العطف « and » قبل آخر معطوف كما هو المعتاد . ومن ذلك قوله : « The three of them , Father son mistress »[١٢١] ، و « Mother sister lover sybil friend »[١٢٢] ، و « The river of words of time of blood Fate »[١٢٣] ، و « A few arms legs necks He blubbers »[١٢٤] ، و « class race history »[١٢٥] ، و « whimpers pleads beats his breast trumpets »[١٢٦] ، و « Lawyer account agent »[١٢٧] ، و « saxophones oboes »[١٢٨] أما في المثال الآتي فهو

---

(١١٨) ص / ٩٣ (١١٩) نفس الصفحة (١٢٠) ص / ٣٣٢
(١٢١) ص / ٦٧ (١٢٢) ص / ١١٨ (١٢٣) ص / ٢٨١
(١٢٤) ص / ٢٨٥ (١٢٥) ص / ٢٨٦ (١٢٦) ص / ٣٧٤
(١٢٧) ص / ٤٠٦ (١٢٨) ص / ٤١٨

يمضى خطوة أبعد ، إذ يُسقط من مفعول كل فعل معطوف ضمير الملكية الخاص به [١٢٩] : « He) squee 3 ed)

Tightly shut open shut ... replaced glasses , « lids openedeyes , strocked moust ashless hennaed beard , sucked teeth» [١٣٠] وأحيانا يثبت الفاصلات ولكن يستغنى عن حرف الفصل « and » ، مثل : « In spite of door - to - door searches , proclamations, turnings arg ued of stones , the poet proved impossible to mab » [١٣١] ، و « The whole city , pleaded , raged » [١٣٢] و « its edifices , its waterways,its inbabitants» [١٣٣] ، وأحيانا يضع بدل الفاصلات شرطات قصيرة ، مثل : « missing-presuming-dead » [١٣٤] .

والحقيقة أن هذه وأمثالها بهلوانيات رخيصة ليس لها من مسوغ فنى أو غيره . وهى تعوق تيار الرواية وتزهق أنفاس القارئ وتبغّضه فى متابعة القراءة . والحقيقة أنه لولا عزمى على أن أكتب دراسة عن هذه الرواية ما استطعت أن أمضى فيها . قد

---

(١٢٩) استخدمت هنا المصطلح العربى . أما فى الإنجليزية فيسمون ذلك « صفة ملكية » .

(١٣٠) ص / ٢٤٣ (١٣١) ص / ٣٧٥ (١٣٢) ص / ٤٠٤

(١٣٣) ص / ٤٢١ (١٣٤) ص / ٤٠٣

يقال إن الكاتب يحاول الخروج على المألوف وتجريب أساليب أخرى فى كتابة الكلام . بيد أن قائلى هذا ينسون أن الخروج عن المألوف لا بد أن يستعيض عن المهجور بما هو أفضل منه وأجدى . أما التحطيم لمجرد التحطيم فلا يحتاج إلى أية موهبة بل حسب المرء أن يطلق لنوازع الهدم فى نفسه الشريرة العنان وهى تتكفل بالباقى . إنه ما من نظام كتابى إلا ويعانى من بعض النقص ، وليس من الحكمة أن نزيده عيوبا . إن هذه ردة ، ولا يرضى بالردة عاقل . ثم إننا لا ندرى على أى أساس فرّق الكاتب بين العبارات والجمل التى يشبك كلماتها كأنها كلمة واحدة ، وتلك التى يبقيها على حالها . لقد حاولت طويلا أن أعثر على هذا الأساس ، ولكنى لم أخرج بطائل . ولا أظن السبب شيئا آخر غير أن الكاتب كان يجرى مع نزوته أثناء الكتابة كلما ثارت به ، فيأخذ فى هذه البهلوانيات المرهقة المربكة ، ثم يعود إلى النظام الشائع بعد ما تنقشع النزوة .

وهذا يأخذنا إلى نظام الترقيم عنده ، فهو يختلف فى كثير من المواضع عن النظام المتبع عادة فى اللغة الإنجليزية ، فمثلا نراه كثيرا ما ينهى الجملة (مع أنها لم تكن قد انتهت) ويبدأ جملة جديدة لا تكتمل فيها عناصر جملة تامة ، مثل :

«Why can't you love me this way, she wanted to

ask . But never did» [١٣٥]، فإن قوله «But never did» ليس جملة تامة، إذ الفاعل غير موجود، بل فعل معطوف على الفعل «Wanted»، فكان حق الكلام أن يمضي بدون قطع الجملة وبدء جملة جديدة عند «But».

ومثله قوله: «The lay back S.atisfied . And fixed its mind upon its foe» [١٣٦] أما في المثال التالي فلم يكتف بذلك، بل جعل كلمة «and» بداية فقرة جديدة:

... because she lifted her head quickly and looked right into his face . And did not immediately look down again» [١٣٧] وقريب من ذلك قوله: « Sisodia's determination meant that Gibreel (had to enter the Earls Court stage - door dressed in a burqa .. So that even his sex remained a mystery» [١٣٨].

وهذه الظاهرة قد تكررت كثيرا قبل الاسم الموصول المستخدم نعتا أو قريبا من ذلك، مثل: «She shouted at daughters . The elder of whom hacked her hair» [١٣٩]، و «Expecting to be cajoled back

---

(١٣٥) ص / ١٤٦ (١٣٦) ص / ٢٩٤ (١٣٧) ص / ١٣٧

(١٣٨) ص / ٣٥٠ (١٣٩) ص / ٢٥١

into a good humour . Which ... she found herself You haven't gone to « و ، (١٤٠) willing ... to do» court to have me wiped off the slate . In which case it wouldn't take too long to resuscitate me (١٤١) . أما فى المثال التالى فقد زاد على ما مرّ انه جعل الاسم الموصول بداية فقرة جديدة : Saladin » chamcha slept» .

« Which offered him no respite » (١٤٢) .

وهو لا يكسر العرف المتبع فى الترقيم أثناء السرد فحسب بل كثيرا ما يفعل ذلك أيضا مع الحوار ، فهو مرة يضع بعد الجملة المهدة للحوار نقطتين متراكبتين ، مثل : A girl ... let fall a saucy remark : I thought they only did that (١٤٣) ، ومرة يضع فاصلة ، كما فى المثال التالى: She ... replied , Then perhaps , my dear , you would like to try ?» (١٤٤) ، وكما ترى فإن أول حرف من الكلام الحوارى فى الحالتين هو حرف كبير (Capital) ، وإن الحوار لم يبدأ بسطر جديد ولا وُضع بين علامتى تنصيص .

---

(١٤٠) ص / ٣١٢ (١٤١) ص / ٤٠٣ (١٤٢) ص / ٢٥٤
(١٤٣) ص / ١٤٧ (١٤٤) نفس الصفحة .

بخلاف المثال التالى الذى أتى فيه بعد الجملة المهدة للحوار نقطتان متراكبتان ، مع وضع كلام الحوار نفسه بين علامتى تنصيص : «She leaned her head against him and said softly : ' Happy birthday '»(١٤٥). أما فى المثال الآتى فتجئ بعد الجملة المهدة للحوار شولة « واو مقلوبة » ، ولكن الحوار نفسه لا يبدأ بحرف كبير : « ... Who asked Henry , is your wife perhapsquite enough for the pastoral life»(١٤٦) . وتلاحظ أن السؤال (الحوارى) لم ينته بعلامة استفهام . وأحيانا ما ينتقل الكلام من السرد إلى الحوار فى نفس السطر أيضا ، ولكن مع وضع الحوار بين علامتى تنصيص ، من غير أن تبدأ أولى كلماته بحرف كبير (Capital) ، مثل : « ... he told him how the railroads were built by the Anglos to service their estancias , and the dams, too , the story , for example , of her friend Claudette , ' a real heartbreaker , my dear , married an engineer chap name of Granger , disappointed half the Hurlingham (١٤٧) .

---

(١٤٥) ص / ٢٢١ (١٤٦) ص / ١٥٠

(١٤٧) ص / ١٤٧ . وقد وضعت تحت أول كلمة فى حديث المتحاور خطا لتحديده للقارئ .

وهو بوجه عام لا يبدأ كلامه الحوارى من أول السطر ، بل يجعله امتدادا لكلام السرد ، حتى لو طال الأخذ والرد بين المتحاورين ، ومهما يكن عددهم ، اللهم إلا فى فصل « The Parting of the Arabian Sea » ، إذ القاعدة فيه هى كتابة الحوار من أول السطر مع تنصيصه ، فكان من السهل علىَّ أن أتابع القراءة فى يسر نسبى ، على عكس الفصول الأخرى التى كان تداخل السرد والحوار فيها وعدم جرى الكاتب على طريقة واحدة فى إيراد كلام المتحاورين سببا فى تصعيب القراءة وتنفير القارئ من متابعتها .

وهو أحيانا ما يكتب كلام الشخص بحروف مائلة ، وأحيانا بحروف قائمة ، بدون أن يكون هناك سبب ظاهر لهذه التفرقة . ومثالاً على ذلك نأخذ خطبتى أمّ د. سمبا ، وحنيف چونسون الموجودتين فى صفحتى ٤١٥ و ٤١٦ ، والتى كتبت أولاهما بهذه الطريقة والأخرى بتلك ، مع أنهما ألقيتا فى موقف واحد [١٤٨] ، بل إنه فى إحدى المرات كتب كلام تشامتشا (الذى كان يخرج من فمه مهشما مدغوما ، لأنه كان يوشك أن يختنق) بحروف قائمة منصصة ، ليكتبه عقيب ذلك كاملا

---

(١٤٨) وكذلك يفعل مع السرد ، إذ يكتب بعض كلامه هكذا ، وبعضا هكذا .

واضحا مفهوما بحروف مائلة غير منصصة [149] وأحيانا يكتب الحوار من غير علامتي تنصيص ، ثم فجأة ينصص جزءا منه [150] .

وفي الحوار الداخلي كثيرا ما ينتقل المؤلف من السرد إلى كلام الشخص عبر فاصلة ، مع كتابة المناجاة الذاتية بالحروف المائلة ، مثل [151] : Pamela Chamcha rid herself of this old demon , goodbye , Hang'em , I ' Ve no more time for you ; and of her parents ' ghosts .

وهو أحيانا ما يستخدم النقطتين المتراكبتين في موضع لايخطر على بال . فمثلا في الجملة التالية : Gibreel farish-ta : felt her stories winding round him [152] نجده قد وضع هاتين النقطتين بين الفاعل وفعله ، وهو غريب . وفي الجملة التالية نراه يضعهما بين كلمة « yes » وبقية الكلام : « Yes : this was hell » [153] ، والمفروض أن توضع في هذا الموضع فاصلة . أما في المثال الآتي فنراهما قد وضعتا بين

---

(149) انظر ص / 467 ، سطر / 13 من أسفل الصفحة .

(150) انظر ص / 86 ، فقرة / 1 .

(151) ص / 182 . وقد وضعت خطاً تحت الكلمات المكتوبة في الرواية بحروف مائلة .

(152) ص / 146

(153) ص / 254

فعلين معطوفين بكلمة « but » : « Saladin Chamcha slept . Which offered him no respite : but returned him ... » (١٤٥) وفى الشاهد الآتى نجدها تتوسط بين جملة لم تتم وأخرى جديدة : « To be born again first you have to : well , almost , any way » (١٥٥) وأحيانا ما يضعها بعد المبتدأ بدلا من فعل الكينونة ، مثل : « The real language problem : how to bend it ... » (١٥٦) ، و « What she did waited for a few seconds » (١٥٧) .

ونراه فى بعض الأحيان يكتب بعض الكلمات فى وسط الجملة بحرف كبير ، مثل : « As yielding way ... is stamped with new designs and changes shape and seems not still the same , yet is indeed the same » (١٥٨) .

كما أنه قد يضع الفاصلة التى فوقها نقطة (;) بين أجزاء الجملة الواحدة ، والمفروض أنها توضع بين جملتين لا يراد للثانية منهما أن تستقل عن صاحبتها . وهذا مثال على طريقته :

---

(١٥٤) نفس الصفحة

(١٥٥) ص / ١٨٢

(١٥٦) نفس الصفحة

(١٥٧) ص / ٢١٩

(١٥٨) ص / ٢٧٦ - ٢٧٧

Pamela Chamcha rid herself of this old demon ... ; and of her parents' ghosts ; and prepared to be free » [١٥٩] .

وقد تكرر فى الرواية قطع الجملة قبل أن تتم . ولو كان ذلك فى أثناء الكلام الحوارى لقلنا إن المتكلم قد قطع كلامه لسبب أو لآخر ، لكنه فى أثناء السرد ، مثل : « The son accus (es his father) of making a man of » [١٦٠] ، والمقصود : « of making a man of him » [١٦١] ، و « She ... feels these days more like a mother than a » [١٦٢] ، والمقصود : « More like a mother than a wife » .

وهناك جملة قطعتها قائلتها عند نهاية ثلثها الأول ، ليمضى هو قائلا إنها لم تنطق بقية الكلام وهى كذا وكذا : « وجَّهَت الكلام إليه قائلة : « ولكن هذا كله يمكننى أن أغفره ، تاركة بقية الجملة لم تتلفظ بها ، وهى : « لو أنك لم ترتكب غلطتيك الحقيقيتين : جريمتك الجنسية والسياسية » [١٦٢] . والملاحظ أن القطع هنا عادى ، بمعنى أنه لم يتم بعد المضاف بدون ذكر

---

(١٥٩) ص / ١٨٢
(١٦٠) ص / ٦٩
(١٦١) ص / ١١٨
(١٦٢) ص / ٢٤٧

المضاف إليه مثلا ، أو بعد حرف جر بدون ذكر مجروره ، أى أنه عندما يقطع هو نفسه الجملة فى موضع لا يصح قطعها فيه نحوياً لا يبالى أن يوضح الجزء المحذوف منها ، أما هنا فرغم أن القطع عادى فإنه حريص على أن يذكر الجزء المحذوف ويوضحه للقارئ . وقد كان يمكنه أن يجعل المتحدثة تكمل جملتها بنفسها ، وبخاصة أنه لم يكن ليمكننا ، ولا كان مخاطبها يستطيع أن يتخيل الجزء المحذوف ، ولكنه التلاعب البهلوانى .

ولا يقتصر هذا التلاعب على الجمل بل يمارسه الكاتب مع المفردات أيضا ، مثل : «not so much as an immig as an emig runt» . فتراه قد قطع كلمتى[163] « immig » و « emig » قبل أن تتما ، إذ هما « immigrant » و « emigrant » ، لكنه تلاعب بهما ، وبدلا من أن يكمل آخر مقطع فى كل منهما ، وهو « rant » (لتعنيا على الترتيب « المهاجر من وإلى مكان ما ») نراه يورد بعد الثانية منهما كلمة « runt » القريبة من المقطع المحذوف ، وهى تعنى « القزم من البشر أو الحيوان أو النبات » ، وإليك مثالا آخر : « Whether mortal or im » ، والتقدير « or immortal »[164]

---

(١٦٣) ص / ٢٤٣

(١٦٤) ص / ١٣٣

أما النص الآتى فهو شاهد على بتر الكلمة والجملة فى نفس الوقت (لأن الكلمة المبتورة هنا هى آخر كلمة فى الجملة) :
«Should God be proud or humble , majestic or simple , yielding or un»[١٦٥] وتكملة الكلام : « or unyielding » .

وهذا كله مربك ومرهق وينفر القارئ من متابعة القراءة[١٦٦] فإذا أضفنا إلى ذلك طول الجملة عنده فى أحيان كثيرة جدا طولا شديدا قد يبلغ ثلثى صفحة من القطع الكبير[١٦٧] عرفنا مدى المعاناة التى على القارئ أن يتحملها ويقاسيها إن كان يريد أن يواصل القراءة إلى آخر الرواية . وقد أشار إلى هذه السمة الأسلوبية عند سلمان رشدى وعابها عليه الكاتب الإنجليزى مارتن هاريس ، الذى قال : « إن هناك سببا آخر يدعوه إلى النفور من أسلوب الكتابة لدى سلمان رشدى ، ألا وهو استعماله لجمل طويلة للغاية تبلغ أحيانا ٢٢٧ كلمة من

---

(١٦٥) ص / ١١١

(١٦٦) على كل حال ، هذا أخف كثيرا مما فعله جيمس جويس مثلا فى أحد فصول قصته « ulysses » الذى استغرق خمسا وأربعين صفحة لم تستخدم فيها علامة ترقيم واحدة ، بل لا توجد فيها من الفقرات إلا ثلاث فحسب . انظر ص / ٦٥٩ - ٧٠٥) فى طبعة penguine Books ، عام ١٩٦٩ م .

(١٦٧) ص / ٤٢. ، من أول « Billy is business » .

دون سبب واضح ، على خلاف الحال بالنسبة لكبار روائيى تيار الوعى من مثل هنرى چيمس . إن رشدى يميل إلى استعمال الجمل الطويلة لاعتقاده أن الجمل القصيرة تفقد الأسلوب أدبيته » [١٦٨] ، ولعل هذه السمة هى أحد الأسباب التى دفعت « ماكس هايسننجز » رئيس تحرير « الديلى تلجراف » البريطانية إلى القول بأنه « ليس وحده الذى وجد رواية « آيات شيطانية » رواية صعبة القراءة إلى حد الاستحالة ، مثلها فى ذلك مثل باقى روايات سلمان رشدى » [١٦٩] .

وهذا الطول فى الجملة عنده له أسباب متعددة ، منها كثرة العبارات والجمل الاعتراضية التى أحيانا ما يفصل بها حتى بين الاسم وضمير الملكية الداخل عليه ، مثل : « His - to give the old word back its original meaning - shaitan» [١٧٠] ، وبين أداة التعريف والاسم المعرف بها : «The , how could one put it , possession of his

(١٦٨) من مقالة له بالديلى تلجراف (١٩٨٩/٣/٣) ، نقلا عن زهير حسين الهاشمى / وقفة نقدية مع رواية المرتد رشدى / مجلة « العالم » اللندنية / ص ٥ .

(١٦٩) عن مقال « رؤية عاقلة فى الغرب للتخاريف الشياطانية » / جريدة « النور » القاهرية / الأربعاء ٣٠ رجب ١٤٠٩ (٨ مارس ١٩٨٩) / ص ٢ .

(١٧٠) ص / ٣٢١

body» (١٧١) ، وبين الظرف والصفة المتعلقة به : «his
resentments of hanif ... were primarily , how to put
it , linguistic » (١٧٢) ، وكذلك بين الفعل وفاعله :
a number of angels (the names semjaza and Az-
azel came first to mind) had been flung out of
Heaven» (١٧٣) ، وبين الفعل ومفعوله : «The eldest ...
would tell her visitors - and she had plenty , many
of the men of Jahiliya seeking her out for her
of »materna (and also grateful charms - the story
.. (١٧٤) .

كما يقع الاعتراض أيضا بين اسمين مرتبطين بكلمة « with :
مع » (هكذا : « حجرة مملوءة إلى حدّ ما بناس مريبين يشبهون
فى ملامحهم وكلامهم مستر « مالكولم إكس » (وقد استطاع
تشامشا أن يتذكر أنه وجد نكتة حد ممثلى التلفاز الهزليين
مضحكة ... (١٧٥) ، وأنه أثار أسوأ نقار له مع زوجته) مع
رغا ، بعض النسوة اللاتى يبدو عليهن الغضب أيضا ») (١٧٦)

---

(١٧١) ص / ٢٧٦ (١٧٢) ص / ٢٨١
(١٧٣) ص / ٣٢١ (١٧٤) ص / ٣٨٢
(١٧٥) هذه النقط كُتب مكانها فى الرواية النكتة المشار إليها .
(١٧٦) ص / ٤١٣ . وقد استغرق هذا الاعتراض أربعة أسطر طويلة فى الرواية .

وبين الصفة والموصوف : «A choice would be offered him
, a choice - the thought formulated itself in his
head without any help from him - between two
realities»[١٧٧] ، و « a human (as opposed to ro
botic , Skinnerian android) body »[١٧٨] . وهناك
جملة استغرقت أحد عشر سطرا[١٧٩] تحوى أربع جمل اعتراضية
إحداها محصورة بين فاصلتين (كما هو المتبع عادة فى الكتابات
الإنجليزية) ، واثنتان كل منهما بين قوسين ، والرابعة بين
شرطتين ، وفوق ذلك ، فإحدى هذه الجمل الاعتراضية موجودة
داخل جملة اعتراضية أخرى . وهو ، كما ترى ، قد يحصر
العبارة الاعتراضية بين شرطتين ، وأحيانا يضعها بين قوسين ،
وأحيانا ثالثة بين فاصلتين ، أى أنه لا يلتزم منوالا واحدا .

وإلى جانب الاعتراضات هناك سبب لطول الجملة فى كثير
من الأحيان فى هذه الرواية ، وهو أن الكاتب يخرج من تفريعة
فى فكرته إلى تفريعة أخرى ، أو يلقى بملاحظاته على طول
الطريق ، فلا تنتهى الجملة فى هذه الحالة إلا ويكون الصداع
والدوار قد أصابا رأس القارئ[١٨٠] . وهذا كثيرا جدا فى الكتاب

(١٧٧) ص / ٣٥١ (١٧٨) ص / ٣٩٧

(١٧٩) ص / ٤٠٢ ، وتبدأ من السطر / ١٣ من تحت .

(١٨٠) نجد هذا أحيانا فى كتابات يوسف إدريس .

وبالإضافة إلى هذا فهو فى مواضع كثيرة يستغنى عمّا عدا الفاصلة من علامات الترقيم ، فلا نقطة ولا شرطة ولا نقطتين متراكبتين ، فتتتابع الجمل والعبارات فى هذه الحالة كأنها جملة واحدة (١٨١) . إن البشرية لم تصل إلى اختراع واستخدام نظام الترقيم عبثا ، ولا اكتشفته فى زمن قصير ولا بسهولة . وغير معقول أن يتجاهل كاتب ما هذا الإنجاز الخطير الذى من شأنه أن يسهل على القارئ متابعة فكرة الكاتب وشعوره إلى حدّ معقول .

ومن العقبات التى تصدّ القارئ عن القصة ذلك العنصر الهلوسى المنتشر فى كل أنحاء الرواية تقريبا ، فكم من شخصية تحولت إلى هذا الحيوان أو ذاك . مثلا حمزة عليه رضوان الله يستحيل أسداً ذا صفوف من الأسنان ثلاثة (١٨٢) ، وصلاح الدين تشامتشا ينقلب جديا بشريا ، وجبريل فاريشتا يتحول إلى الملاك جبريل عليه السلام مرة ، ويعود إنسانا ثانية ليرجع إلى الملائكية مرة ثالثة ، وهكذا . وهو فى أثناء نومه

---

(١٨١) إذا كان الشئ بالشئ يذكر فإن رواية « الزينى بركات » لـ « جمال الغيطانى » تتوالى صفحاتها فى كثير من الأحيان بغير علامات ترقيم فيما ماعدا الفاصلة أو النقطة . إن منظر الصفحة وهى مصمتة سوداء تامة السوداء يصد النفس ، وإن كان الأمر فى « الزينى بركات » أخف من « يوليسيس » مثلا

(١٨٢) ص / ١١٦ - ١١٧

يحلم وتتتابع أحلامه على مدى فصلين مستقلين يشكلان قصة كاملة هى قصة سيدنا محمد [183] . وفى موضع آخر نرى جبريل هنا ومعه بوق ، وهذا البوق اسمه عزرائيل ، وأحيانا ما يكون عزرائيل ملاكا فعلا لا بوقا [184] .

وبالإضافة إلى ما سبق فهناك هذا الإسهال اللامنطقى الذى تتدفق معه الأفكار والذكريات أو الأحداث التاريخية من هنا وهناك على نحو غير مترابط ولا مفهوم ، مما يصدع رأس القارئ فيضيع وسط هذا الطوفان . ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما جاء فى ص / ١٢٩ - ١٣٠ ، حيث يتحدث الكاتب عن النورمانديين وأساطيلهم ، وكيف كانت المرأة صاحبة المنزل الذى يقع على الساحل الإنجليزى تنتظر عودتهم ... إلخ . ثم يتضح فى النهاية أن هذه المرأة قد شاهدت جبريل فاريشتا وهو ملقى على الشاطئ قريبا من منزلها وقد امتلأ فمه بالبرد . ما مغزى هذا الكلام عن الماضى ؟ ما علاقته بالقصة ؟ هل استغله الكاتب بعد ذلك فى تطوير أحداثها أو إضاءة جانب من جوانب إحدى شخصياتها ؟ الجواب : كلا .

وهذا الخلط نجده فى الفصلين اللذين يحكيان قصة الرسول عليه الصلاة والسلام . فمثلا نجد خديجة رضى الله عنها لاتزال

---

(١٨٣) الفصلان / ٢ ، ٦ (١٨٤) الفصل / ٧

حية بعد وقعة بدر [١٨٥] . كذلك لا يوجد فاصل زمنى بين قصة الغرانيق المزعومة التى تنتمي إلى الفترة المكية وغزوة بدر [١٨٦] وعائشة هى زوجة الرسول عليه السلام فى موضع من الرواية ، وفى نفس الوقت هى غريمة الإمام (الخمينى) فى موضع آخر ، وهى أيضا الكاهنة الهندية فى موضع ثالث . وخالد هو الصحابى المعروف (وإن جعله المؤلف سقاء) فى فصل ، وابن الإمام (الخمينى) فى فصل آخر . و « كُون » هو اسم الذى كان يتلقى عليه « ماهوند » الوحى ، وهو فى الوقت ذاته لقب عشيقة جبريل فاريشتا « هللويا كون » ، التى هى بدورها من محترفى تسلق الجبال ، وهكذا .

ومما يشتت ذهن القارئ ويصعّب عليه أيضا مهمة الاستمرار فى قراءة الرواية كثرة الاستطرادات إلى ذكر تفاصيل لا أهمية لها ، ولا تشارك فى تطوير الأحداث ، أو الشخصيات ، مثل استطراده إلى الحديث عن أداة « التحكم البعيد » التى يدار بها جهاز المرناء ، وعن آثارها فى تساوى وزن مشاهدى هذا الجهاز ، ونوع الثقافة التى تسودها هذه الأداة ، وغير ذلك ، مما لا علاقة له بأحداث القصة أو شخصياتها ، ويصيب القارئ بالضيق والسأم [١٨٧] . صحيح أن تشامتشا نفسه كان يحس

---

(١٨٥) ص/١١٨. (١٨٦) ص/ ١١٧ - ١١٨ (١٨٧) ص/٤٠٥ .

بالملل وهو يقضى وقته أمام المرناء ومعه أداة التحكم البعيد هذه ، لكن الرواية لم تنجح فى إشعارنا بملل تشامتشا ، بل أملّتنا نحن ، وشتان بين الأمرين . إن إشعارنا بملل تشامتشا هو الفن ، أما إملالنا نحن فهو اللافن ، والقصة تغص بمثل هذه الاستطرادات التى تكاد تقتل القارئ من الملل (١٨٨) .

وإلى جانب طول جمله ، وكثرة العبارات الاعتراضية ، وكثرة استطراداته وطولها ، وخروجه من موضوع إلى موضوع (على طريقة « تيار الوعى » ، وأحيانا فى كلام (الراوى نفسه) هناك أسباب أخرى تجعل قراءة الرواية عملا شاقا . فالكاتب يحب استعراض معلوماته (فلسفية كانت أو تاريخية أو دينية أو فنية أو طبية ... إلخ) ، وينتهز أية فرصة للخروج من سياق القصة ، فيذكر أسماء آلهة هندية ، ويسوق مصطلحات طبية وسيكلوچية ، ويشير إلى شخصيات تاريخية (فنانين وساسة ورجال حرب وأنبياء ... إلخ) ، وغير ذلك (١٨٩) .

---

(١٨٨) كما فى ص / ١٠٩ ، إذ يستطرد الكاتب إلى الحديث عن الخوف من الظهور على خشبة المسرح أول عهد الممثل بالتمثيل .

(١٨٩) انظر مثلا استطراده إلى شرح أساليب التصوير المغولى ، وتركه عشيقة تشامتشا وأباه كأنه قد نسيهما (ص / ٧٠) ، واستطراده بعد ذلك بصفحتين إلى الكلام عن الطريقة التى مثل بها الهنود إحدى مسرحيات شكسبير وكيف أفسدوها ، وكذلك إشارته إلى القديس المغربى الذى كان =

كما أن الضمائر عنده أحيانا ما تغمض . مثال ذلك أن صلاح الدين تشامتشا فى حديثه مع زينات وكيل يقول : « لقد أتيت فى الواقع إلى بومباى لسبب واحد ليس هو المسرحية . إنه فى أواخر السبعينات من عمره الآن ، ولن يكون هناك بعد ذلك فرص أخرى كثيرة ، وهو لم يحضر العرض . ولا بد إذن من أن يذهب محمد إلى الجبل بنفسه »[١٩.] ويتساءل القارئ : « من ذلك الذى فى أواخر السبعينات من عمره ؟ ... إلخ » فلا يجد الجواب فيما مضى ، لأنه لم يرد فى كلام تشامتشا ولا زينات وكيل قبل ذلك اسم شخص يمكن أن يعود عليه الضمير . ولكننا بعد ذلك نفهم من كلام الراوى أن المقصود هو والد تشامتشا . وفى موضع آخر من الرواية نجد حمزه رضى

= يعيش قبل الميلاد (ص / ٢٤٣) ، ومناقشته لنظرية لامارك وداروين (ص/٢٥١) ، وكلامه عن وليام بليك الشاعر البريطانى (ص / ٣١٨) . وهنا كثير جدا جدا . بل إنه فى كثير من المواضع يسوق اقتباسات من كتب أخرى من غير أن يقتضى ذلك بناء القصة ، كما فى ص / ٣١٥ حيث يورد اقتباسا من شكسبير ، وص / ٣٣٤ حيث ساق شعرا غزليا لفيض أحمد فيض ، وغير ذلك .

(١٩.) هذا مثل إنجليزى ، ونصه كاملا : « إذا لم يأت الجبل إلى محمد فليذهب محمد إلى الجبل » . وهو مبنى على خرافة تقول إن الرسول أراد أن يصنع معجزة ، فأمر « الصفا » أن يأتى إليه ، لكن الجبل لم يتحرك ، فذهب هو إليه ، وادعى أنه لو كان تحرك لسقط فوق مكة وحطم أهلها .

الله عنه يقول : « إنه ليس في البيت » [١٩١] . ولا نعرف إلا بعد عدة سطور أن المقصود هو الرسول عليه الصلاة والسلام .

وأحيانا يتحول الضمير من الغيبة إلى التكلم فجأة ، كما في النص التالي : « كان ذلك عندما عرف صلاح الدين تشامتشا السبب في أن جبريل ابتدأ يفزع من النوم إن كل شخص يحتاج إلى من يتحدث إليه ، على حين أن جبريل لم يتحدث إلى أحد بشأن ما حدث بعد أن أكل لحم الخنزير النجس لقد بدأت الأحلام في تلك الليلة ذاتها . وفي هذه الرؤى كان دائما موجودا ، لا بوصفه هو نفسه بل بوصفه سميّه ، ولست أقصد أن أقوم بدوره ياسپونو ، بل أنا هو ، وهو أنا ، أنا رئيس الملائكة الزفت ، جبريل نفسه » [١٩٢] . فانظر كيف تحول الضمير من الغيبة إلى التكلم من أول قوله : « ولست أقصد » . وفي موضع آخر نجده يتحدث عن جبريل بضمير الغائب وأنه يتمنى أن ينام بلا أحلام ، وأنه يغالب النوم ولكنه يغلبه ، فإذا به في مدينة « الجاهلية » فوق الجبل . وفجأة يتحول الضمير حينما يصف تأثير الرسول عليه الصلاة والسلام الطاغي « عليَّ » ، بدلا من أن يقول « عليه » [١٩٣] . وفي

---

(١٩١) ص / ١٠٥ (١٩٢) ص / ٨٣ (١٩٣) ص / ١١٢

موضع ثالث نلاحظ تردد الضمير بين الغيبة والتكلم ، فالغيبة والتكلم ثانية ، رغم أن المتحدث عنه شخص واحد في الحالات الأربع : « انحنى الموت عليه ليقبلني ، ففزع في صمت ، ليمتص النَّفَس من جسدي » (١٩٤) . بل إن الأمر ليصل في ذلك إلى حدّ التلاعب باللغة ، كقوله : « in his my our guts : في أحشائهينا (أي : في أحشائه / أحشائي / أحشائنا) » (١٩٥) إلا أن للتلاعب هنا غرضه الفني ، فإن الكلام عن جبريل والرسول عليهما السلام ، اللذين يريد المؤلف أن يقول إنهما شخص حد ، فأضاف « أحشاء » مرة إلى ضمير الغائب العائد على الرسول ، ثم أضافها إلى ضمير المتكلم العائد على جبريل (لأنه هو المتكلم في النص) ، ثم أضافها ثالثا إلى الضمير « نا » ، الذي يشمل الاثنين . وقصده أن الوحي لايأتي من خارج الرسول عليه السلام ، وإنما يأتي من داخل الرسول نفسه ، فالمؤلف لا يؤمن بوجود جبريل ، بل هو عنده وهم في خيال الرسول عليه السلام ، أي أن جبريل والرسول شئ واحد .

ولا يقتصر تلاعب المؤلف باللغة على الضمائر ، بل يأخذ أشكالا شتى . من ذلك أنه يكتب بعض العبارات بكتابة صوت

---

(١٩٤) ص / ١٣٢ . وقد كتب ضمير المتكلم بحروف مائلة .

(١٩٥) ص / ١١٢

الحرف الأول من كل كلمة فيها . ويمكن تقريب ذلك إلى القارئ بقولنا إنه يكتب عبارة « جمهورية مصر العربية » على النحو التالى : « جيم . عين . ميم »[١٩٦] . وقد حدث هذا منه عدة مرات ، مثل : « the pee oh vee » (بدلا من « p . o . v . » ، والمقصود : « the point of view : وجهة النظر »)[١٩٧] ، و « pee aich dee » ، (بدلا من « PH . D » ، أى درجة الدكتوراه فى الفلسفة)[١٩٨] . ومن ذلك كتابته لـ « United Kingdom » هكذا : « Yu Ke »[١٩٩] . وقريب من هذا قوله : « bee tee ems » ، وأغلب الظن أن المقصود « bottoms »[٢٠٠] .

ومن تلاعبه باللغة أنه يحور كلمة بنجلاديش (-Bangla desh) إلى « Bungleditch » ، مما يمكن أن تترجم إلى « حفرة الارتباك »[٢٠١] ، مشيرا إلى تخلفها وقذارتها ، ربما . ومن ذلك أيضا تسميته لمستر سيصوديا مرة بـ « - Scottich Sisodia »[٢٠٢] ، ومرة بـ « ' Whisky ' Sisodia »[٢٠٣]

---

(١٩٦) بدلا من « ج . ع . م » .
(١٩٧) ص / ١٠٨ ، سطر / ٤
(١٩٨) ص / ٢٦٨ (١٩٩) ص / ٢٤٨ (٢٠٠) ص / ٣٩
(٢٠١) ص / ٢٥٩ (٢٠٢) ص / ٣٣٩ (٢٠٣) ص/٣٤١

وقوله عن خالد « السقاء » (والسقاء بالإنجليزية : « Water - Carrier : حامل الماء ») : « إنه الآن يحمل مسئوليات أثقل » [٢٠٤] ، مشيرا إلى تطور عمله من حمل الماء إلى حمل المسئوليات الضخام .

وعلى طول القصة تقابلك أمثلة من تلاعبه بموسيقى الكلمات على هيئة أسجاع وجناسات ، مثل « Wife , Life » [٢٠٥] ، و « high , shy » [٢٠٦] ، و « She wiggles ... giggles » [٢٠٧] ، و « bad and wad » [٢٠٨] ، و « The foot in the other boot » [٢٠٩] ، و a moun-tain or a fountain [٢١٠] ... إلخ .

وكثيرا ما يصطدم القارئ بعبارة تذكرنا بالعبارة العامية الضاحكة : « أوتوبيس كام رايح فين » ، مثل « Getting who knows what sort of ideas in their heads » [٢١١] ، و « Which who knows what » [٢١٢] ، و « Who knows what ... gazed at what » [٢١٣] ، و « For

---

(٢٠٤) ص / ٣٧٢ (٢٠٥) ص / ٦٣ (٢٠٦) ص / ١٧٢
(٢٠٧) ص / ٢٨٤ (٢٠٨) ص / ٢٨٦ (٢٠٩) ص / ٣٣٤
(٢١٠) ص / ٣٨٣ (٢١١) ص / ٣٦٦ (٢١٢) ص / ٤٠٢
(٢١٣) ص / ٥٢٤

«Who knows » و ، [٢١٤] «goodness knew what why » [٢١٥].

ومن تلاعبات المؤلف اللغوية أيضا زيادته فى كثير من الأرقام التى يوردها واحداً على أرقام العشرة والمائة والألف ، قياسا فيما يبدو على « ألف ليلة وليلة » ، فجبريل فاريشتا يذهب إلى مرحاض الطائرة ويتبول فى إحدى عشرة دقيقة [٢١٦] والطائرة تظل فى أيدى خاطفيها مائة يوم وواحد [٢١٧] ، ويظل يفكر فى أمر ما للمرة الواحدة بعد الألف [٢١٨] ، وفى موضع آخر يقول إن ميرزا سعيد قد أخذ يبكى أسبوعا ويوما [٢١٩] . وقد كان يستطيع أن يقول : « ثمانية أيام » ، ولكنها فيما يبدو رغبته فى التحذلق ، ومن ذلك إضافته كسرا للرقم الصحيح فى قوله إن صلاح الدين تشامتشا ظل يسعل سبع عشرة دقيقة وثلاث أرباع الدقيقة [٢٢٠] كما تكرر الرقم « زليون » عدة مرات فى الرواية [٢٢١] .

---

(٢١٤) ص / ٥٢٥ (٢١٥) ص / ٥٣٨ (٢١٦) ص / ٨٢

(٢١٧) ص / ٨٥ . وانظر أيضا ص / ٢١٧

(٢١٨) ص / ٣٧. . وانظر ص / ٤.٥ وغيرها .

(٢١٩) ص / ٥.٥ (٢٢.) ص / ١٦٥

(٢٢١) ص / ٣٣٦ ، ٣٥٣ وغيرهما .

وهو لا يكف عن التلاعب باللغة حتى مع أقدس الأشياء ، فهو يستخدم كلمة « revelations » (ومعناها « نصوص الوحى ») للأسرار الجنسية التى بين جبريل فاريشتا وعشيقته أللوياكون والتى أفضى بها جبريل إلى صلاح الدين تشامتشا ، معتمدا فى ذلك على أن من معانى الفعل « to reveal » الكشف والإفضاء [(٢٢٢)] . ولعله بهذا يلمز الوحى المحمدى ، فإنه يرى أن الكتاب الذى جاء به الرسول ينظم عملية الفساد وطرق الجماع وما أشبه [(٢٢٣)] ، فضلا عما جاء فى موضع آخر من الرواية من أن الوحى قد أجاز لما هوند (يقصد الرسول عليه الصلاة والسلام) أن يجامع من النساء ما يشاء [(٢٢٤)] . أى أن الأسرار الجنسية التى بين جبريل وعشيقته تشبه موضوعات الوحى القرآنى فى نظر المؤلف ، ولهذا استخدم لتلك نفس اللفظ الذى يدل على هذه . وفى موقف من أشد المواقف حرجًا نراه ينساق مع نزعة التلاعب هذه ، فهو فى أثناء كلامه عن مرض والد تشامتشا الذى أدى إلى وفاته يقف عند اسم « Fakhar : فخار » قائلا إن الإنجليز يخطئون فى نطقه ثم يضحكون [(٢٢٥)] . يقصد أنهم يحرفونه إلى « Fuck her » ، وهو معنى جنسى بذئ .

---

(٢٢٢) ص / ٤٣٨
(٢٢٣) ص / ٣٦٣
(٢٢٤) ص / ٣٨٦
(٢٢٥) ص / ٥٢٨

كذلك فالكاتب كثيرا ما يتدخل مطلا برأسه ، مبددا تركيزنا ومحولا انتباهنا إلى ناحيته هو ، مثال ذلك أنه أثناء وصفه لقصور كبار التجار فى مدينة « الجاهلية » حيث البيوت مبنية من الرمال يقول فجأة : « أنا ، عندما يهيج فى داخلى الشر ، أتخيل أحيانا هجوم موجة كبيرة ، جدار عال من الماء المزبد يهدر فوق الصحراء ، كارثة سائلة مملوءة بالقوارب المقعقعة والأذرع الطافية ، موجة من المدّ تحيل هذه القلاع الرملية المغرورة إلى عدم ، إلى الذرات التى منها أتت ... إلخ » [(٢٢٦)] فالمؤلف هنا يكشف عن مشاعره هو تجاه مدينة الجاهلية . كذلك نراه (وهو يتحدث عن سيدنا إبراهيم وزوجته هاجر وطفلهما إسماعيل) يردف قائلا : « ومن ثم فلا غرو أن النساء قد تحولن إلىّ . ولكن فلنرجع إلى ما كنا فيه » [(٢٢٧)] . وفى موضع آخر نجده يشبّه جبريل (رائى الأحداث وراويها فى ذلك الموضع) بآلة التصوير السينمائية ، مستعرضا زوايا التصوير وطريقة أخذ اللقطات أثناء التمثيل ، ومعدّدا ما ينقص المنظر كالأغانى والرقص وغيرهما مّما يجعله منظرا سينمائيا ناجحا حقا . ويمضى فى التدخل والشرح مبينا أن جبريل قد طلب منه أحد الممثلين أن يدلى برأيه فى الأمر ، فأفزعه ذلك وأربكه ،

---

(٢٢٦) ص / ٩٤ (٢٢٧) ص / ٩٥

ولكنه بما لديه من نزعة التمثيل والمقدرة على القيام بعدة أدوار مختلفة قد قبل أن يقوم بدور الملاك جبريل ودور الرسول عليه السلام معا . ثم يمضى قائلا إنه ليس فى الأمر أية صعوبة ، فجبريل لن يقوم بالدورين معا فى لقطة واحدة ، بل فى لقطتين مختلفتين ، ثم تتكفل الحيل السينمائية بالباقى عن طريق القص واللصق ... إلخ [٢٢٨] . أما فى ص / ١٠٩ - ١١٠ فإن الكاتب يتحول إلى القارئ واصفا له جبل كون (الذى يشير إلى جبل حراء) ، مبينا له كيف يصعد فيه إلى الغار ، قائلا له : « إن اليمام حينئذ يناديك ، والصخور تحييك قائلة : يا محمد ، يا محمد » ، ملتفتا هنا ، كما ترى ، من القارئ إلى الرسول فجأة ، ليعود فى الفقرة التى تلى ذلك فيستخدم فى الحديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام ضمير الغائب ثانية .

والملاحظ أن المؤلف أحيانا ما يتحول فى سرد الأحداث من الفعل الماضى إلى الفعل المضارع فجأة . والحق أنى لم أهتد إلى معرفة السبب الذى يجعله يخص هذه المواضع بذلك . ومن أمثلته وصفه لما كان يحدث للنبى عليه الصلاة والسلام أثناء نزول الوحى عليه ، فهو يقول : « يقع الأمر : الوحى . هكذا : يصبح محمد ، وهو لا يزال فى لا نومه ، متخشبا ، وتنفر

---

(٢٢٨) ص / ١٠٨

عروق رقبته ... إلخ » [٢٢٩] ، وكذلك وصفه لهجوم الجموع الثائرة على قصر الإمبراطورة فى مدينة « دش » بأمر الإمـام [٢٣٠] ، ووصفه لهجوم المسلمين علـى مدينـة « الجاهلية » [٢٣١] . إنه فى هذه المواضع وأمثالها يشبه المذيع الذى يعلق على مباراة أو فلم أو مسرحية .

وتبرز في الرواية التأثيرات الآتية من مجال التصوير وصناعة التمثيل والسينما . يتضح هذا فى ذكر أسماء بعض الممثلين ، مثل أورسون ويلز وموريس شيفاليه [٢٣٢] ، وفى الكلام عن الأفلام والمسرحيات [٢٣٣] ، والتعرض لبعض أسرار صناعة السينما ، كقيام شخص واحد بتمثيل دورين فى نفس اللقطة على مرتين ، وتكفل المونتاج بالباقى ، ليبدو المنظر كأنه قد مُثّل فى لقطة واحدة [٢٣٤] ، وكذلك فى وصفه للمتابعة التلفازية لغارة الشرطة على نادى « الشمع الساخن » وشرحه الفرق بين قدرات العين البشرية وعين آلة التصوير ، والزوايا التى تُلتقط منها الصور وميزة كل زاوية [٢٣٥] ، وهكذا ، وهو كثير

---

(٢٢٩) ص / ١١٢ (٢٣٠) ص / ٢١٤ وما بعدها

(٢٣١) ص / ٣٧٠ . وانظر كذلك ص / ٣٧٣ ، ٣٧٥

(٢٣٢) ص / ٢٦٦

(٢٣٣) انظر مثلا ص / ١٣٦ حيث يتحدث عن فلم أنتج فى بومباى .

(٢٣٤) ص / ١٠٨ (٢٣٥) ص / ٤٥٤ - ٤٥٥

ولاننس أن سلمان رشدى قد اشتغل فى التلفاز الباكستانى فترة [٢٣٦] .

أما بالنسبة للصور والتعبيرات التى تبدو عليها الطرافة والطزاجة فإن الرواية تحتوى على عدد غير قليل منها ، فمثلا نراه يشير إلى أثر السنين على أنف والد تشامتشا وشفتيه بقوله إن السنين قد غضنتهما بسحرها المذبل [٢٣٧] إن السحر يرتبط عادة بالجمال ، وجمال المرأة بالذات ، ولكن السحر هنا قد ارتبط بالتغضن والذبول . إن الشيخوخة تدب بخطواتها فى الظلام والخفاء ، دون أن يراها أو يسمع وقع أقدامها أحد ، ولكن بتراكم السنين نفاجأ بالشعرات البيض وبذبول العينين وتهدل الجفنين ، وهكذا . فهذه السرية والخفاء هما الجو الذى يتنفس فيه السحر . والثقة بالنفس تسقط عن صاحبها كما تسقط قشرة الجوزة عنها [٢٣٨] فكما أن القشرة الصلبة تحمى الجوزة ، وبسقوطها عنها تصبح ضعيفة ، فكذلك الثقة بالنفس تحمى صاحبها من الخور والانهيار . والمؤلف يصف العدد الكبير للأصنام التى كانت حول الكعبة بأنها طوفان من الصخور [٢٣٩] ويقول عن رأى مسز قريشى فى زوج ابنتها :

---

(٢٣٦) انظر د . شمس الدين الفاسى / آيات سماوية / ص ١٢

(٢٣٧) ص / ٦٧ (٢٣٨) ص / ٩٨ (٢٣٩) ص / ٩٩

« إنه رأى لم يجد ما يتقوت به ولا حتى فتفوتة من دليل تعضده » [٢٤٠] كما يقول عن أحد شخصيات القصة إن صوتة يتمزق كأن حلقه قد استحال إلى سكاكين تقطع صراخه وتجعله مزقا [٢٤١] . وعن نشوة الجنس والإسراف فيها : « الماراثون الجنسى الذى انتهيا منه مرهقين سعيدين متلاشيين عقب انتهاء عجلته الطاحنة عن الدوران » [٢٤٢] وفى سيطرة الشهوات على امرأة : « إنها ملتفة فى ملاءات شهواتها » [٢٤٣] ، أما الحاجز الواقع بين عالم الواقع وعالم الأحلام فيسميه « سور برلين » [٢٤٤] . وهو يصف الهواء بأنه غليظ ، ومن ثم فقد كان التنفس بالنسبة لبعل (الشاعر الجاهلى الهجاء) شديد الصعوبة [٢٤٥] وقد طوّر هذه الصورة فى موضع آخر من الرواية حين قال عن صلاح الدين تشامتشا : « كان تنفسه كالفقاعات التى عليها أن تشق طريقها خلال الصمغ » [٢٤٦] كما صوّر ضعف مشاعر الحزن بمرور الزمن بقوله : إن حافات الحزن الحادة قد برتها الأيام [٢٤٧] وهو يصف صوتا بأنه من رماد [٢٤٨] أما سرطان زجاج السيارة فإنه يشبهه بخيوط

---

(٢٤٠) ص / ٢٢٨ (٢٤١) ص / ٢٧٣ (٢٤٢) ص / ٣٠٣
(٢٤٣) ص / ٣١٥ (٢٤٤) ص / ٣٤٧ (٢٤٥) ص / ٣٥٩
(٢٤٦) ص / ٥٢٩ (٢٤٧) ص / ٣٧٨ (٢٤٨) ص / ٤٧٩

المنكبوت وقد علق بها ذباب من الماس [٢٤٩] كما يقول مجسّما فوحان رائحة الجثث المتشللة من البحر : « إن نتانتها تبدو وكأنها تفوح من صفحة الجريدة » [٢٥٠] ، يقصد الجريدة التى نشرت الخبر .

وهناك نوع ثانٍ من الصور لفت نظرى فى الرواية هو الصور البذيئة ، مثل قوله عن إحدى الطائرات إنها عبارة عن ذكر معدنى ، وركابها هم حيوانات منوية تنتظر القذف [٢٥١] ، وعن طائرة أخرى إنها تتبول ضوءا [٢٥٢] . ولأننى قد عالجت فى فصل مستقل من هذه الدراسة موضوع البذاءات والقاذورات فى الرواية فإننى أجتزئ الآن بهذين المثالين .

وفى الرواية عدد من العبارات المأخوذة من الكتاب المقدس ، وبخاصة الأناجيل ، مثل قوله على لسان سيدنا رسول الله ﷺ : « ملكوت الله » [٢٥٣] ، وهى عبارة إنجيلية مشهورة كثيرا ما رددوها عن السيد المسيح عليه السلام . ومثل ذلك قوله : « دحرج الحجر عن فتحة الكهف المظلمة » [٢٥٤] ، فهو ينظر هنا إلى قول متىّ فى إنجيله : « وإذا زلزلة عظيمة حدثت ، لأن ملاك الرب نزل من السماء ، وجاء ودحرج الحجر عن الباب وجلس

---

(٢٤٩) ص / ٤٧٨ (٢٥٠) ص / ٥١٨ (٢٥١) ص / ٤١
(٢٥٢) ص / ٤٥٤ (٢٥٣) ص / ٣٩٣ (٢٥٤) ص / ٤٠١

عليه » [٢٥٥] وكذلك قوله عن پاميلا زوجة تشامتشا : « إنها ... الشخص الذى أنكره ثلاث مرات على الأقل » [٢٥٦] ، فهو هنا يردد كلام سيدنا عيسى عليه السلام للحوارى بطرس (على رواية متى) : « الحق أقول لك . إنك فى هذه الليلة قبل أن يصيح ديك تنكرنى ثلاث مرات » [٢٥٧] كما أن هناك إشارة إلى الوصايا العشر [٢٥٨] . وقد ترددت كلمة «الحصاد» مرات غير قليلة فى الكتاب المقدس سواء العهد القديم منه أو الجديد . وهذه الكلمة نجدها فى الرواية ، فى العبارة التالية إشارة إلى الأتباع : « ربما أمكن إنقاذ بعض الحصاد » [٢٥٩] .

هذا ، وهناك بعض الصور التى لم أستطع أن أحققها رغم ما فيها من جدة ، كقوله عن صورت پاميلا زوجة تشامتشا إنه « مكون من أقمشة صوفية ، وإيشاربات ، ومهلبية ، وعصى هوكى ، وبيوت مسقوفة بالقش ، وصابون ، وحفلات منزلية ، وراهبات ، وأرائك كنسية ، وكلاب ضخمة ، وذوق سوقى » [٢٦٠] .

---

(٢٥٥) أصحاح ٢/٢٨

(٢٥٦) الرواية / ص ٤٠٢ . والمقصود « أنكرت زوجها » .

(٢٥٧) متى ٣٤/٢٦ (٢٥٨) الرواية / ص ٤٦٩

(٢٥٩) ص / ٤٩٨

(٢٦٠) ص / ١٨٠ . وفى الترجمة تصرف .

والآن وبعد تطويفنا مع أسلوب الرواية كل هذه الصفحات يبدو أنه إذا كان ينم عن أن صاحبه ، كما سبق القول ، يعرف الإنجليزية معرفة وثيقة فإنه مع ذلك فى كثير من الأحيان (وبخاصة في قصة تشامتشا وفاريشتا ، وقصة الكاهنة الهندية عائشة) أسلوب ثقيل بطئ مملّ جاف ، وإن لم يخلُ من عدد غير قليل من الصور الطريفة ، وصاحبه يقوم بالألاعيب والبهلوانيات مّما لا يناسب فن القصة فى العصر الحديث . والقصة تفتقر إلى الجمال تماما . ويجد القارئ في الفصل الخاص بما فى الرواية من بذاءات وقاذورات (Scatology) تأكيدا لهذا الحكم .



البناء الفنىّ للرواية

هذه الرواية التى تقع فى ٥٤٧ صفحة ليست فى الحقيقة قصة واحدة ، بل أربع قصص لا ثلاث كما ظن الأستاذ سامى خشبة ، الذى كرر ذلك فى أكثر من مقالة له حول الرواية [١] . لقد عدّ خشبة قصة صلاح الدين تشامتشا وجبريل فاريشتا ، وقصة ماهوند ، وقصة الفتاة الهندية الفقيرة . ونسى قصة الإمام والامبراطورة ، وهى القصة التى تتعرض للفصل الأخير من الصراع بين الإمام الخمينى والنظام الشاهنشاهى ، ذلك الصراع الذى انتهى بالثورة الشعبية الإسلامية فى إيران . ولعل السبب فى هذا النسيان هو أن المؤلف لم يفرد لقصة الإمام والامبراطورة فصلا مستقلا ، بل أدمجها فى نفس الفصل الذى خصصه لبداية قصة الفتاة الهندية الفقيرة ، قائدة جموع الحجيج الذين وعدتهم أن بحر العرب سينفلق لهم فيعبرونه سيرا على الأقدام إلى مكة .

---

(١) انظر سامى خشبة / البناء الركيك والعرض الحقيقى فى آيات شيطانية / الأهرام (١٩٨٩/٥/٢٦) ص ١٢ ، والمسلمون والغرب فى الآيات الشيطانية وقضايا رشدى الحقيقية والمزيفة / الأهرام (١٩٨٩/٦/٢) / ص ١٢ .

وهذه القصص الأربع قد حاول المؤلف أن يجعلها تبدو وكأنها رواية واحدة ، وذلك عن طريق تقاطع فصولها ، مع أنه لا رابط حقيقى بينها (كما سوف أوضح بعد قليل) . فهو بوجه عام يتوقف بعد أن يورد فصلا من إحدى هذه القصص فلا يتابع بقية فصولها حتى تنتهى ، بل ينتقل إلى فصل من قصة أخرى ثم فصل من قصة ثالثة ، وهكذا دواليك ، ثم يعود إلى قصته الأولى فيورد منها فصلا ثانيا ، وهلم جرا . وقد كان باستطاعته ، بل واجبا عليه من الناحية الفنية ، أن يعدل عن هذا البناء غير المفهوم ، فيجمع فصول كل قصة معاً بحيث تصبح كل قصة مستقلة عن القصص الأخرى شكلا كما هى مستقلة عنها موضوعا ، ومن ثم يصبح الكتاب مجموعة قصصية ، وإن كانت قصصه قصصا غير قصيرة ، اللهم إلا قصة الإمام والإمبراطورة ، التى تدور حول الخمينى والشاهبانو وجماهير الإيرانيين وثورتهم على النظام الشاهنشاهى ، إذ تقع فى نحو إحدى عشرة صفحة [٢] ، وتعالج موقفا واحدا تقريبا وتنحصر أحداثها فى فترة زمنية قصيرة ، ومن ثم فهى قصة قصيرة .

---

(٢) من ص / ٢٠٥ إلى ص ٢١٦

قلت إنه لا رابط حقيقى بين هذ القصص الأربع ، محترزا بكلمة « حقيقى » ، وذلك لمخالفتى سامى خشبة ، الذى يرى أنه لا يربط بينها أى رابط على الإطلاق [٣] . لقد حاول سلمان رشدى أن يربط بين قصصه ، ولكنه رباط شكلى شديد الشكلية رباط الأسماء وما أشبه . إننا مثلا نقابل بلالا وخالدا وسلمان وعائشة فى كل من قصته عن الرسول عليه الصلاة والسلام (الذى يسميه « ماهوند ») وقصته عن الإمام والإمبراطورة ، بيد أن بلالا وخالدا وعائشة هنا غيرهم هناك ، فبلال فى قصة الإمام هو مذيع أمريكى أسود ، وخالد هو ابن الإمام ، بخلافهما فى قصة النبى عليه الصلاة والسلام ، فهما فيها صحابيان . وعائشة زوجة النبى تصبح فى قصة الإمام هى الإمبراطورة التى يحاربها هذا الإمام ويقضى عليها ، وهكذا . ليس ذلك فقط ، بل إن أصحاب هذه الأسماء فى قصة النبى يعيشون فى عصر المبعث وفى الجزيرة العربية ، أما فى قصة الإمام فهم يعيشون فى لندن فى العصر الحديث ويتطلعون إلى العودة إلى مدينة « دش » (التى ترمز إلى إيران) . فكما ترى فإنه يفصل بين أصحاب هذه الأسماء فى القصة الأولى

---

(٣) انظر مقالته « المسلمون والغرب » فى « الآيات الشيطانية » وقضايا رشدى الحقيقية والمزيفة » / الأهرام (١٩٨٩/٦/٢) / ص ١٢ .

وأصحابها فى القصة الثانية فواصل زمنية ومسافات مكانية وفوارق بيئية وحضارية شاسعة . وفى قصة الكاهنة الهندية يقابلنا اسم « عائشة » (اسم تلك الكاهنة نفسها) ، ولكن عائشة هنا غيرها فى قصة النبى عليه السلام ، غيرها فى قصة الإمام . كذلك هناك جبريل ولكنه فى قصة النبى هو جبريل الملاك ، أما فى قصة تشامتشا وفاريشتا فهو جبريل الممثل الهندى (الذى يتحول فى بعض فصولها إلى كائن خرافى ضخم يجوب شوارع لندن وفى يده بوق) ، وإن كان هناك تداخل بين جبريل الملاك وجبريل فاريشتا ، فإن الأخير كان يحلم بأحداث قصة النبى عليه الصلاة والسلام وشخصياتها بما فيهم الملاك جبريل . وفى القصة التى تدور على الخمينى والثورة الايرانية نرى جبريل شخصا عاديا لا ملاكا . ونراه يقول للإمام إن هذا العصر ليس عصر الملائكة ، فهؤلاء قد مضى زمنهم . وهو مع ذلك يحمل الإمام فوق كتفيه ويطير به نحو السماء . أما فى قصة الكاهنة الهندية فإن جبريل يختفى ، وإن ورد اسمه مرة أو مرتين ، إذ كانت الفتاة الهندية تدعى أنه يوحى إليها .

فالرباط كما ترى لا يعدو تقريبا تشابه أسماء . قد يقال إن القصص كلها تدور حول الإسلام بطريقة أو بأخرى ، لكن هنا

لايعد رابطا ، إذ العبرة باستمرار الشخصيات وتطور الأحداث ووحدة البناء ، وهو ما نفتقده عامة فى قصص هذا الكتاب .

الرواية إذن ليست قصة واحدة ، بل هى كتاب يضم مجموعة قصصية ، إحداها تدور أحداثها فى عصر المبعث ، والثلاث الباقيات فى العصر الحديث ، والبيئة الأصلية لاثنتين من هذه الثلاث هى لندن ، والثالثة تقع أحداثها فى الهند . والقصة الرئيسية هى قصة النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد شغلت فصلين من الكتاب عنوانهما « ماهوند » و « عود إلى الجاهلية » .إن القصص كلها ، كما قلت قبلا ، تدور حول الإسلام بطريقة أو بأخرى ، وهذه القصة تعالج ظهور الإسلام وقضية الوحى ومدى صدق الرسول والقواعد التشريعية التى وضعها لأتباعه ... إلخ وقد صوّر الكاتب محمدا عليه الصلاة والسلام لا على أنه نبى يوحى إليه من السماء ، بل على أنه رجل أعمال كان يأتى بالقرآن من عنده ثم يدعى أن جبريل هو الذى يوحيه إليه . أما فى قصة الإمام والإمبراطورة فقد كان هدف الثورة هو الحكم بالقرآن ، الذى يرى الإمام وأتباعه أنه لا يوجد علم ولا تشريع إلا فيه . فإذا كان محمد نبيا مزيفا فمعنى هذا أن الأساس الذى قامت عليه ثورة الإمام وأتباعه هو أساس متهافت لا يقوى على حمل شئ . فالقصة الأولى ، كما هو واضح ، هى القصة الرئيسية بالنسبة لقصة الإمام . ومثل

ذلك يقال عن العلاقة بينها وبين القصتين الأخريين . فعائشة الكاهنة الهندية تقود جمعا من المسلمين الهنود للحج إلى بيت الله الحرام سيراً على الأقدام ، زاعمة لهم أنها قد أوحى إليها أن بحر العرب سينشق لهم فيمشون فيه إلى أن يصلوا إلى الجزيرة العربية . ولم يكن لعائشة وأتباعها أن يواجدوا ولا أن يفكروا فى الحج لولا أنه قد وُجد محمد والإسلام من قبل ، والمسلمون فى لندن (فى قصة صلاح الدين تشامتشا وجبريل فاريشتا) إنما يعانون لكونهم أولاً وقبل كل شئ مسلمين ، أى أتباع محمد ، الذى تدور حوله وحول دينه وقرآنه إحدى قصص الكتاب .

قصة « ماهوند » (وهو اسم الرسول الكريم فى الكتاب) هى إذن القصة الرئيسية ، على خلاف ما يرى سامى خشبة ، الذى يقول : « الحقيقة أن المركز الحقيقى فى رواية سلمان رشدى ليس هو قصة « ماهوند » كما تزعم كلمات الناشر على الغلاف ، وهى القصة التى يرويها الفصلان اللذان يتعرض فيهما للرسول والقرآن الكريم . بل إننى أعتقد أن هذين الفصلين قد ألصقا بالرواية ومعهما بضعة سطور قليلة للغاية فى الفصل الأخير تبررهما من الناحية الفنية ، إما لأن المؤلف يريد نجاحا بريطانيًا وغربيا أكثر مما حققه حتى الآن (وهو الرجل الذى يتنصل من وطنه صراحة فى (روايتين سابقتين)

فتطوع بكتابة الفصلين اللذين لم يعرف كيف يجيد تركيبهما فنيا فى صلب بناء الرواية ، وإما أن أحدهم في الجهاز قد نصحه أو ربما طلب منه صراحة إضافة شئ عن الإسلام ، إسلام الرسالة والمبعث والرسول ، وعن الخميني أيضا . فهذا هو ما يكفل نسج الخطة المطلوبة وما يكفل نجاحها ونجاح الكتاب فى القيام بوظيفته الدعائية والتجارية أيضا ... الحقيقة أن المركز الحقيقى للرواية يتجسد فى الفصول التى تروى دائرة القصص الأخرى التى تشير إليها كلمات الناشر بابتذال إشارات عامة للغاية . إنها الفصول الأول والثالث والخامس والسابع والتاسع، فصول « الملاك جبريل » ، « اللوين ديووين » ... ، « مدينة مرئية ولكنها خفية » ، « الملاك عزرائيل » ، « مصباح عجيب». إنها الفصول التى تروى وتتناول قضيتين هامتين : قضية انتماء المثقف الشرقى (الهندى فى الرواية) لثقافة وطنه القومية ...، وقضية موقف المسلمين فى أوروبا منها وسعيهم إلى الاندماج فيها أو إلى إجبارها على الإسلام ، لكى تصبح وطنا لهم دون أن يندمجوا ، أى سعيهم إما إلى الاندماج فى أوروبا الغربية الثقافية وإما إلى إدمّاج أوروبا فى ثقافتهم الشرقية الإسلامية » [٤] أما الشتائم والأكاذيب الموجهة إلى

---

(٤) سامى خشبة / القضية المركزية فى آيات شيطانية : مهاجمة الإسلام أم تزييف وعينا بحقيقتنا ؟ / الأهرام (١٩٨٩/٥/١٩) / ص ١٢ .

الرسول ﷺ ودينه فهى فى نظر الأستاذ خشبة « الفخ الرئيسى المنصوب لنا حتى لا نبصر المغزى الرئيسى لتحررنا القومى ولبناء ثقافتنا القومية ، ونغرق فى صراعات كلامية وطائفية لا طائل منها » (٥) .

إن سامى خشبة يرى أن قصة النبى عليه السلام والوحى القرآنى والدعوة الإسلامية فى بداياتها الأولى هى قصة ملصقة إلصاقا بالرواية ، وأن القضية الرئيسية فيها إنما هى هويتنا الثقافية . وإننا لنتساءل : وهل لنا هوية ثقافية بعيدا عن الإسلام ؟ إننا نحن العرب مثلا نتحدث ونكتب باللغة العربية ، والعربية هى لغة الإسلام ، ولولا الإسلام ما كان أحد ليتحدث باللسان العربى غير سكان شبه الجزيرة ، بل ربما كانوا هم أيضا قد فقدوا لسانهم باندماجهم فى إحدى الإمبراطوريات الكبيرة التى كانت تتنازع منطقة الشرق الأوسط فى تلك العصور . وديننا هو الإسلام ، ومنه ينبع معظم عاداتنا وتقاليدنا . وتاريخنا هو تاريخ الإسلام . وذوقنا إسلامى إلى حد كبير فى الأطعمة والملابس والمسكن ، وأبطالنا وعظماؤنا ومثلنا العليا هم عادة أبطال الإسلام وعظماؤه . وإذا كانت هناك عناصر

---

(٥) سامى خشبة / أنباء الركيك والغرض الحقيقى فى آيات شيطانية / الأهرام (١٩٨٩/٥/٢٦) / ص ١٢ .

ثقافية أخرى مختلفة عن العناصر الإسلامية تحاول أن تغزو حياتنا ونفوسنا فإن الصراع العنيف الدائر منذ عشرات السنين بينها وبين العناصر الإسلامية لهو من أقوى الأدلة على أن الثقافة الإسلامية قد غرست جذورها الطويلة فى حياتنا وشخصيتنا ، ومن الصعب أن تخلى مكانها لتلك العناصر الوافدة . هذا ، ولا يختلف الأمر فى حالة المسلمين من غير العرب اختلافا جذريا . ثم إن الغرب فى صراعه معنا ومحاولاته الدائبة المستميتة كى يجعل أساس ثقافتنا أوربيا يعلم تمام العلم أنه لا يمكنه الوصول إلى غرضه إلا بهدم الإسلام أولاً وإزاحته من حياتنا . وعلى هذا فمن الطبيعى جدا أن تتوجه همة سلمان رشدى قبل أى شئ إلى تحطيم ثقة المسلمين فى دينهم ورسولهم وماضيهم وأبطال الجيل الأول من التاريخ الإسلامى بحيث لا يظلون هم أمثلتنا العليا . ومن هنا موجة التشكيك والتحقير والسخرية الهائلة فى الكتاب ، تلك الموجة التى لم تعف شيئا من هذا كله . فمحمد رجل أعمال ، وليس ثمة شئ اسمه الوحى الإلهى ، فما القرآن إلا أفكار محمد ورغباته . وهو رجل شهوانى غيور على زوجاته . والمسلمون من جانبهم يتطلعون بشهوة إلى أولئك الزوجات . وعندما يضرب هو عليهن الحجاب يفتحون هم ماخورا يضم عددا مماثلا لعدد زوجاته من العاهرات اللاتى لهن أسماء هؤلاء الزوجات

ونفس سماتهن الجسدية والنفسية . وفى صراع محمد مع الجاهلية نجده يقبل المساومة ، وهذا دليل على أنه لا مبدأ له ، وأنه ليس إلا صاحب غرض كل همه الوصول إليه بأية طريقة . فإذا لم يكن أمامه لكسب اعتراف الجاهليين بدينه وأتباعه وللحصول على مقعد فى مجلس مدينة « الجاهلية » إلا أن يتنازل عن مبدأ الوحدانية والاعتراف بآلهتها فليفعل إذن هذا ، وليتنازل ، وليعترف . أما الوثنية فإذا كانت قد هُزمت وفتح الإسلام مدينتها فإن هنداً (معقل الوثنية الأخير) قد ظلت صامدة على مبدئها . لقد سبق أن رفضت من قبل تنازل محمد، وعالنته بلهجة صارمة أن آلهتها لا يقبلن أن يكنّ بناتٍ لله ، ولا يرضين بما دون المساواة لإلهه . وهى إذا كانت قد أظهرت عند الفتح دخولها فى الإسلام فقد فعلت هذا نفاقا وخدعة ، وذلك لتعطى لنفسها الفرصة للاستعداد لجولة أخرى من الصراع بين دينها ودين محمد ، ثم عكفت على سلاحها الجديد ، سلاح السحر ، حتى تمكنت فى النهاية أن تقتل محمدا ، إذ سلطت عليه إلهتها اللات فقضت عليه ، أى أن الوثنية قد انتصرت على الإسلام فى النهاية . بل إنها فى واقع الأمر لم تخرج ، كما تبين لنا القصة ، من نفوس الجاهليين وسلوكهم اليومى . فعبادة الأصنام والعهر وأكل لحم الخنزير وشرب الخمر لم يتوقف

شئ منها يوما ، لأن الناس ظلوا يمارسون كل ذلك فى الخفاء ، وإن تظاهروا أنهم قد أصبحوا مسلمين .

وجود قصة « ماهوند » إذن فى كتاب « الآيات الشيطانية » وجود طبيعى وأصيل . ومن الخطأ النظر إليها على أنها مجرد فصلين من فصول هذه الرواية ، فقد بينت أن الكتاب لا يضم عملا قصصيا واحدا [٦] بل أربعا ، وأن قصة « ماهوند » هى قصة مستقلة بذاتها . وأنا أرى أن المؤلف قد وضعها هى وقصة الإمام (الخمينى) وسط فصول قصتيه الأخريين الطويلتين لكى يعمّى على الأنظار هدفه الخطير ، ألا وهو تحقير الإسلام وإهانة الرسول عليه الصلاة والسلام وزوجاته وصحابته ، والسخرية بالخمينى والثورة الشعبية الإيرانية لزعزعة الثقة بالإسلام فى نفوس المسلمين . لقد ظن أنه بصنيعه هذا سوف يخفف من غضب المسلمين ، كما تفعل شركات الدواء إذ تحلّى بعض الأدوية المرّة الطعم [٧] . فالأمر إذن على عكس ما فهم الأستاذ سامى خشبة . إنه يرى أن قصة النبى عليه الصلاة والسلام وقصة الإمام الخمينى قد أُلصقتا بالرواية

---

(٦) لقد كنت أستخدم لهذا الكتاب من قبل مصطلح « الرواية » ، لأنه كان من غير المناسب حينذاك إثارة مشكلة بنائه الفنى .

(٧) هناك تعبير إنجليزى مشهور فى هذا الصدد ، ونصه : To sweeten the bill » ، وقد عمل المؤلف بمقتضاه .

إلصاقا للفت الأبصار بعيدا عن القضية الرئيسية فيها ، أما أنا فأرى أن المؤلف قد ظن أنه بإدماج هاتين القصتين (وبالذات أولاهما) فى القصتين الأخريين سيصرف الأنظار عن الإهانات والشتائم التى وجهها إلى النبى وآل بيته وإلى الزعيم الإيرانى.

وهناك أسباب أخرى غير ما مرّ تجعلنى أطمئن إلى هذا الاستنتاج ، فإن الغرب كله قد هاج وماج وجازف بمصالحه مع إيران ، وهى مصالح ليست بالهينة ، حينما ثارت إيران وأفتى الخمينى بإهدار دم المؤلف . ولو كان هدف الدوائر الغربية من إدماج قصة النبى وقصة الخمينى فى « الآيات الشيطانية » هو الدعاية للكتاب وتضليل المسلمين عن قضيته الأصلية ما انجرّت الدول الغربية فى هذا المنزلق على ذلك النحو الذى رأينا ، إذ لايُعقل أن يبدأوا هم اللعبة ويوجهوها إلى وجهة معينة ثم ينسوا خطتهم وينجرفوا مع انفعالات المسلمين ، إن معنى ذلك أن تخطيطهم عبث ، وسياستهم عبث ، وهو غير ما نعرفه عن الغربيين وأسلوبهم فى الحياة والسياسة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد كما نعرف ، بل تلاه هجوم عنيف على الإسلام والمسلمين قذفت فيه قلوب الأوربيين بحمم الحقد والغيظ التى كانت مستكنة فى أعماقها . فلو كانت الرواية قد وُضعت أصلا لإغراء المسلمين فى الدول الغربية

بالنزوح عائدين إلى بلادهم لما ثارت أوروبا هذه الثورة الحمقاء لأن ذلك من شأنه أن يشكك المسلمين المقيمين هناك فى نوايا الرواية وأهدافها .

كذلك فإن قصة النبى عليه الصلاة والسلام من ناحية البناء الفنى هى أقل القصص نصيبا من تهافت التصميم [٨] ، والقضية التى تعالجها هى قضية واضحة مبلورة ، وفوق ذلك قضية خطيرة . إنها قضية الصراع بين الإسلام والوثنيّة ، ذلك الصراع الذى انتهى بقضاء اللات على « ماهوند » وانتصار الوثنية بذلك على الإسلام . أما قصة صلاح الدين تشامتشا وجبريل فاريشتا ، وكذلك قصة الكاهنة الهندية فهما قصتان مترهلتان مملّتان ، ويصدق عليهما القول العربى فى الخرّوب : « قنطار خشب ودرهم حلاوة » . والقضيتان اللتان تعالجانهما غير واضحتين . وسوف نبين ذلك بالتفصيل فيما بعد .

ويضاف إلى ذلك أنّ الكاتب قد شحذ قلم سخريته وتصويره الكاريكاتورى فى قصة « ماهوند » ، وتحفز لعمله تحفزا . ويحس القارئ ذلك فى الحرارة اللافحة التى تهب عليه من سطور هذه القصة . ومثلها فى ذلك قصة الإمام مع الإمبراطورة . أما القصتان الأخريان فهما إلى البرود والهمود أقرب . وأصارح

---

(٧) تليها فى ذلك قصة الإمام والإمبراطورة .

القارئ أننى غالبت نفسى مغالبة شديدة لكى أمضى فى قراءتهما . إنهما تعجان بغثاثات التفاصيل السخيفة التافهة . وإنى أتخيل المؤلف بعد أن فرغ من قصتى النبىّ والخمينى قد جلس يتثاءب وقد فترت همته وبرد قلبه ، فأخذ يكتب كل يوم صفحة أو صفحتين وهو يجر القلم على الورق جرا ، والقلم لا يطاوعُه إلا بشق الأنفس .

وفضلا عن ذلك فإن عنصر « اللامعقول » فى قصة « ماهوند » (كظهور اللات والعزى ومناة فوق الجبل ، مرة على هيئة ثلاثة من طيور مالك الحزين ، ومرة على هيئة نجمات ثلاث ... إلخ ، ولجاج مفعول السحر) قريب من روح عصر القصة ، فقد كان كثير من الناس فى العصور القديمة يؤمنون مثلاً بظهور الشياطين والجن ، ومقدرة السحر على الإضرار بالبشر . أما فى قصة الخمينى فعنصر « اللامعقول » قليل . وقد وظفه المؤلف فى السخرية من الزعيم الإيرانى فأزال عنه بذلك قدرا كبيرا من لا منطقيته ، وذلك بخلاف قصة تشامتشا وفاريشتا وقصة الكاهنة الهندية ، حيث تبدو العناصر اللامعقولة فى غير موضعها وخارج إطارها . فمثلا كيف يهضم العقل الحديث سقوط رجلين سالمين من طائرة تنفجر على ارتفاع سحيق ؟ وكيف يمكن أن يسلِّم بتحول شخص إلى جدى ؟

وكيف يستطيع أن يتقبل ولادة امرأة لآلاف الأطفال ، بمعدل طفل كل ربع ساعة أو نصفها ؟

وقد كان المنتظر أن تكون حركة الكاتب فى قصة النبى عليه السلام (وقصة الخمينى أيضا) حركة مقيدة ، فالأحداث والشخصيات جاهزة ومعروفة سلفا . بيد أن الكاتب لم يبال بحقائق التاريخ ورقائعه ، فأعمل قلمه تحريفا وتزييفا ، وخلق القصتين خلقا جديدا ، مطلقا لخياله اللجام تماما .

ومع ذلك فإن قصة « ماهوند » (وقصة الإمام أيضا) عيوبها غير هينة ، فإلى جانب العيوب الأسلوبية المنتشرة فى الكتاب كله ، وإلى جانب البذاءات والقاذورات التى يطفح بها الكتاب من أوله لآخره ، هناك اهتزاز رؤية الكاتب واضطرابه فى رسم الشخصيات وغموض رمزه أحيانا .

أما بالنسبة لاهتزاز الرؤية فهناك مثلا المقابلة بين الإسلام والجاهلية على أنها صراع بين الماء والرمل [٩] . ومعروف أن الماء يرمز إلى الحياة ، وأن الرمل هو عنوان الموت والعدم . ووضع الأمر على هذا النحو معناه أن الكاتب ينتصر للإسلام والحياة على الجاهلية وما تجره وراءها من قحط وهلاك . بيد

---

(٩) انظر مثلا ص/ ١٠٤ من الرواية .

أن الكاتب قد صوّر النبى عليه الصلاة والسلام فى صورة المساوم الذى لا يتمسك بمبادئه ، على حين أن هندا ، فى الرواية تبقى على تمسكها بدينها وآلهتها ولا تفرط فى شئ من ذلك إلا ظاهريا ومؤقتا ، وذلك عندما تظاهرت عند الفتح بالدخول فى الإسلام . وتنتهى القصة بانتصار الوثنية على الإسلام ، وهند على ماهوند (الذى يرمز به للرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه) ، واللات على الله . كذلك فإن الرواية تسخر من الإسلام وشريعته وتقول إنها قد جاءت لتنظيم النساء وطريقة ممارسة الجنس والهرش [١٠] ، وإن المسلمين لصوص وقاطعو طريق ، وإن محمدا لا يعرف وخز الضمير [١١] وإذا كان الرسول قد أكد لهند أن الماء سيجرف الرمل فى طريقه ويقضى على مدينة « الجاهلية » المبنية بيوتها منه فقد تحققت فى نهاية المطاف نبوءة هند بأن الرمل سوف يتشرب الماء ويغيبه فى جوفه فلا يبقى له أثر [١٢] والعجيب أن المؤلف مع ذلك يقول عن مدينة « الجاهلية » عشية الفتح إنها لم تعد مدينة رملية ، بل أصبحت بيوتها صلبة [١٣] . يبدو أن سرّ هذا الاهتزاز فى رؤية الكاتب فى هذه القضية وأمثالها هو أنه،

---

(١٠) ص / ٣٦٤ (١١) ص / ٣٦٣ (١٢) انظر ص / ١٢١

(١٣) ص / ٣٥٩ . وقد أرجع تصلّب الرمل إلى فعل الأيام وريح الصحراء والقمر المصخِّر وآفة النسيان عند البشر وحتمية التقدم . وهو غريب .

وإن أصبح مشايعا للغرب وفكره وذوقه ، لم يستطع أن يتخلص تماما من رواسب ماضيه المسلم ، أو أنه في أعماق أعماقه غير مقتنع بما يقوله قلمه عن الإسلام والرسول ، ولكن تيار بيئته الجديدة ورغبته في أن ينال رضا الإنجليز والأوربيين يسوقانه سوقا إلى عكس ما يعرفه بينه وبين نفسه .

كذلك فإننا نتحير في موقف هند من ماهوند . ففي مواضع نراها معجبة به ، فتصرح بأنها تريده قويا ، وتداعب صدره وتطعمه قطع الشمام بيدها في فمه ، أو تنكبّ على أصابع قدميه تقبلها في نشوة شبقة [١٤] ، على حين نراها في بقية المواضع تكرهه وتكره دينه وتثابر على حربه . وعندما تفشل في المواجهة العسكرية تتحول إلى سلاح السحر حتى تتمكن في النهاية من القضاء عليه [١٥] .

ومن عيوب القصة اضطراب ريشة المؤلف في تصوير بعض الشخصيات . لقد أشرت في الفصل الخاص بما في الرواية من تحريفات وإساءات إلى أن رئيسة الماخور هي خليط من هند ومن امرأة أخرى قصد بها أن تكون مناظرة لسيدتنا خديجة رضى الله عنها . وهذا معناه أن رسم هذه الشخصية غير محكم .

---

(١٤) انظر ص / ١٢٠ - ١٢١ ، ٣٧٢

(١٥) انظر ص / ٣٩٢ - ٣٩٤

وفى رسم شخصية عائشة عليها رضوان الله نجد لونا آخر من الاضطراب ، فقد نص الكاتب بصراحة ، أثناء المقارنة بينها وبين سميتها فى بيت الماخور على عفافها [١٦] ، على حين أنه فى موضع آخر قد انساق ، على لسان سلمان ، مع تقولات الإفك عليها ، وسخر من الوحى الذى نزل ببراءتها [١٧] .

وأما بالنسبة لغموض الرمز فمثال عليه أن المؤلف يجعل الرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد غزوة بدر ، يسير فى فناء بيته على غير وعى فى أشكال هندسية : متوازيات أضلاع ومعينات ودوائر وأشكال بيضية [١٨] لا أظن أن المؤلف قد ذكر هذا اعتباطا ، بل لا بد أنه أراد به الرمز إلى شئ ما . ولكن ماذلك الشئ ؟ هل هو ما يقوله المؤلف [١٩] من أنه فيما يبدو لم يكن قادرا على أن يجد خطا بسيطا ؟ لكن متى كان الحيران الغارق فى هموم التفكير يسير فى خطوط تتخذ شكل متوازيات أضلاع ومعينات ودوائر ؟ ثم إن عدم قدرته على أن يجد خطا بسيطا معناه أنه لا يمكنه الوصول إلى قرار واضح مستقيم . والمفروض بناء على هذا أن تلك الأشكال الهندسية هى رمز على أنه وصل إلى قرار ، وإن كان قرارا معقدا ، مع

---

(١٦) ص / ٣٨١ (١٧) ص / ٣٨٧

(١٨) ص / ١١٨ (١٩) فى نفس الصفحة .

أنه لم يكن قد وصل إلى شئ بعد ، بل كان (كما تصوره الرواية) لا يزال فى حيرته وارتباكه .

ومن ذلك أيضا أنه يقول عن هند إنها تحول الرجال الذين لاينحنون أمام هودجها إلى ثعابين تمسكها من ذيولها وتتمشى بها [٢٠] فلماذا الثعابين بالذات ، والثعبان رمز للخطر القاتل لا للطعام الشهى ؟

ليس ذلك فقط ، فالمؤلف يتدخل أحيانا بالشرح والتعليق ، ويخرج عن مسار الأحداث إلى استطرادات جانبية ، مثل استطراده للحديث عن طبيعة الشعر العربى وذكر ما يقال فى تعليل نشأته من أنه قد انبثق عن الرَّجَز ، وما إلى ذلك ممّا لا صلة فنية بينه وبين ما كانت الرواية بصدده آنذاك من وصف للحياة فى أسواق الجاهلية وما كانت تعج به من راقصات عاريات ونفاثات فى العقد وشعراء يتبارون فى عرض أشعارهم [٢١] ، وكذلك حديثه عن تاريخ بناء البيت الحرام ، والتفسير الذى تذكره بعض الروايات لاسوداد الحجر الأسود [٢٢] ... إلخ .

---

(٢٠) ص / ٣٦.   (٢١) ص / ٩٧   (٢٢) ص / ٩٩

أما العمل القصصى الثانى فيدور حول إمام يعيش فى لندن عيشة متقشفة . فليس فى المبنى ، الذى يشغل هو وأتباعه ثلاثة طوابق منه ، خمر ولا قمار ولا نرد ولا حتى صور ، اللهم إلا صورة امرأة فى حجرة نوم الإمام العجوز . وهذا الإمام يمجد الماء ، ويلعن الإمبراطورة (صاحبة الصورة) شاربة الخمر ودماء البشر ، ويلعن كذلك أغاخان ، ويعلن أنه عندما ينتصر الماء فسوف تسيل الدماء . ويبرز المؤلف أن كل ما يقوله الإمام فى حجرته المغلقة الشديدة الحرارة إنما هى أوامر تتحكم فى مصائر الآخرين . وبلدة الإمام هى « دش » .

ويدخل على الإمام ابنه خالد ، وهو سقاء ، ويخبره أن سلمان الفارسى بالباب ، وأن بلالا (وهو أمريكى أسود مسلم) يذيع الآن رسالة اليوم الموجهة إلى دش . ويصف المؤلف الإمام بالضخامة وعدم الحركة قائلا إنه « حجر حىّ » كما يذكر أن رأسه كبيرة ولحيته رمادية ، وأنه يجلس دائما على كرسى عالى الظهر .

ويضيف المؤلف أن التاريخ هو عدوّ الإمام ولعيته ، ويقول إن الإمام يرى أن « التقدم والعلم وحقوق الإنسان » هى ثلاث أكاذيب كبيرة ، وإن العلم فى نظره ليس إلا وهما ، لأن خلاصة العلم موجودة فى القرآن ، ولم يعد هناك جديد يضاف بعد

انتهاء نزول الوحى على ماهوند (والمقصود الرسول الأكرم)
كما أن من أعداء الإمام « الشيطان الأكبر » (أى أمريكا)
وكذلك الإمبراطورة ، التى يتهمها بالفساد الخلقى والرشوة
والانحلال وأن لها علاقات جنسية مع السحالى وغيرها .

وبلال المؤذن يصرخ بهذا كله فى الآفاق ، فى ظلام الليل .
وقد اختاره الإمام لصوته الجميل . ويقول المؤلف إن بلالا هو
أمريكى مدرب الصوت . إنه سلاح غربى موجه ضد صانعيه .
ويجلجل صوت بلال فى الظلام مخاطبا أهل « دش » : الموت
للإمبراطورة والنبيذ ! إننا نبغى الماء الإلهى الخالد . أحرقوا
كل الكتب ، واستمسكوا بالكتاب الذى أنزله جبريل على
ماهوند ، والذى يفسره لكم إمامكم . آمين !

وفى نفس الوقت يستدعى الإمامُ جبريلَ بقوة السحر ، ويرى
جبريل نفسه بشرا عاديا لا ملاكا ، ويقول للإمام إن العصر
ليس عصر الملائكة ، فهؤلاء قد مضى زمانهم . ويعود المؤلف
إلى السخرية من الإمام : إنه يحرك العالم ولكنه هو لا يتحرك
ولحيته طويلة تبلغ الأرض ، وتطيِّرها الريح . ثم يصوره وقد
تلفع بها وأرسلها على كتفه ، ثم طار فى الجو ودار قليلا قبل
أن يستقر على كتفى جبريل ، منشبا « براثنه » فى رقبته .
وفى أثناء ذلك تظهر ساقا الإمام المغزليتان وقد غطاهما شعر

وحشى كثيف . ويطير جبريل به فى السماء ، ويأخذ شعر الإمام فى الطول كل دقيقة ، ويطير فى كل اتجاه ، وتتحول حواجبه إلى رايات مرفرفة . وتبدو عيناه مرة بيضاوين ، وأخرى حمراوين . ويأمر جبريل أن يطير به إلى بيت المقدس ، فيتساءل هنا : وأين الطريق إلى بيت المقدس ؟ وأى بيت مقدس يا ترى هى بيت مقدس الإمام ؟ إن من الممكن أن تكون بيت المقدس فكرة أو مكانا . ويأتى الجواب بصوت بلال ، مع أن المتكلم هو الإمام ، الذى لا يفتح فمه : إنها سقوط العاهرة ، هلاكها ، هلاك البغى البابلية !

ويطير جبريل بالإمام فوق الجبال والأشجار إلى أن يصلا إلى تل مدبَّب تنبسط فى سفحه مدينة فيها قصر الامبراطورة . وعندئذ يطلب منه الإمام النزول قائلا له إنه يريد أن يريه حب الناس له . وتطالعهما الجموع الزاحفة من كل شارع وحارة إلى الطريق المؤدى إلى القصر فى صفوف متراصة ، كلما حصدت مدافع الحرس الإمبراطورى صفا تقدم صف آخر لتحصده المدافع بدوره ، حتى أصبحت الجثث المكومة كالتلّ . وهنا يقول الإمام : انظر كم ، يحبوننى ! فيرد جبريل : إنه ليس حبا ، بل كره . إن كراهيتهم (يقصد كراهيتهم للإمبراطورة عائشة) هى التى دفعتهم إلى أحضانك . فيقول الإمام : بل هم يحبوننى ، لأننى أنا الماء والخصوبة ، وهى التحلل . إنهم يحبوننى لأننى حطمت

الساعات . ذلك أننا نطمح إلى الخلود ، وأنا الخلود ، ولذلك فإننا لا نتحرك . أما هي فسجينة الزمن ، وتنظر كل يوم إلى المرآة فزعة من أي تغير يعتري وجهها .

ثم جاءت اللحظة التي استطاع فيها الجموع أن يصلوا إلى الحراس ويخنقوهم . وحينئذ سكتت المدافع ، فتنهد الإمام قائلا : لقد قُضى الأمر ! ثم يظلم القصر ، وتنفجر قبته ، وتخرج منه مخلوقة خرافية تصرخ وتولول وتشع سوادا . وهذه المخلوقة لها جناحان أسودان كبيران ، وشعر مفكوك تطيره الريح . إنها اللات . ويصدر الإمام أمره : « اقتلوها » .

ثم يطير الإمام نحوها ، ويفهم جبريل أن الإمام سيضحى به في قتاله معها ، مثلما ضحى بالجموع أمام القصر . ولحرك قوةُ الإمام جبريل ، وتضع في يده الصواعق ، فيرسل على الإمبراطورة رماحا من البرق ، وترد عليه هي بالصواريخ . وأخيرا تسقط متحطمة ، وينخلع جناحاها . أما الإمام فإنه يتحول إلى وحش يرقد في الفناء الأمامي للقصر وقد فتح فمه متثائبا ، وأخذ يبتلع الجموع التي تعبر بوابة القصر . وتتقلص اللات وتتلاشى غير مخلفة وراءها على أرض حديقة القصر إلا بقعة سوداء . وعندئذ شرعت الساعات تدق ، وظلت تدق

إلى ما بعد الدقة الواحدة بعد الألف . ويبدأ عندئذ عصر « اللا وقت » ، وينتصر الماء على النبيذ [٢٣] .

وأول ما يلفت نظر القارئ فى هذه القصة هو ذلك التصوير الهزلى للإمام . هذا التصوير الذى لا بد أنه كان أحد الأسباب وراء فتوى الزعيم الإيرانى الراحل بإهدار دم سلمان رشدى . لقد سقت تلخيصا سريعا لهذا التصوير ، وهو على وجازته كاف للإيحاء بالصورة الكاملة ، بل هو فى حد ذاته كاف لإيلام الإمام الخمينى هو وأتباعه ، إذ ليس من السهل أن يقال عن زعيم روحى له فى قلوب عشرات الملايين من أتباعه ذلك الحب والإجلال الذى كان ولا يزال الإمام الخمينى يتمتع به إنه حجر حىّ وإن له ساقين مغزليتين يغطيهما شعر وحشى كثيف ، وبراثن ينشبها فى رقبة جبريل ، الذى اتخذه مطية يطير بها فى آفاق السماء وإنه لطول لحيته قد تلفع بها وأرسلها على كتفه ، وإن حاجبيه يرفرفان فى الهواء كأنهما رايتان . إن هذه ليست صورة إنسان بل وحش أسطورى آت من خارج الزمن . فهذه الحواجب المرفرفة

---

(٢٣) ص / ٢٠٨ - ٢١٦ . وهذا التصوير للخمينى هو أبعد ما يكن عن أن يكون قصيدة عصماء فى مدح الخمينى كما يقول زهير على شاكر فى كتابه « الغراب الأبيض أو ظاهرة سلمان رشدى » (كتاب الهلال / عدد ٤٦٥ / سبتمبر ١٩٨٩ / ص ٨٦) . ولا أظن سلمان رشدى قد تهكم بأحد كما تهكم بالخمينى .

وتلك السيقان المغطاة بشعر وحشى كثيف تدل على أن صاحبها لا يشعر بمرور الوقت ، ولا يفكر فى تشذيبها . وقد ذكر المؤلف بصراحة أن الإمام قد استحال فعلا فى نهاية القصة إلى وحش فاتح فمه ، وأخذ يبتلع الجموع . كما ذكر بصراحة أيضا أنه بانتصار الإمام قد بدأ عصر « اللا وقت » .

إن سلمان رشدى يريد أن يقول إن هذا الرجل لا يصلح أن يكون زعيما روحيا ، بل هو وحش مفترس ، وإنه لا يستطيع أن يقيم دولة عصرية ، إذ إنه لا ينتمى إلى عصرنا ، فدعوته تتجاهل التاريخ والتطور وظروف البيئة ومتغيرات الزمان والمكان ، ولا تعترف بشئ اسمه العلم أو التقدم أو حقوق الإنسان . وكل العلم عنده إنما هو موجود فى القرآن ، القرآن الذى رأينا رشدى يسخر منه ومن تشريعاته ويقول إن محمدا هو أول من كان ينقضها دون أدنى خالجة من ضمير . وإذا كان الإمام ، كما جاء فى الرواية ، يعد العلم إحدى الأكاذيب الكبرى فقد ادّعى رشدى أيضا أن ماهوند لا يفرق بين الكتّاب والبغايا ، فهم وهن فى نظره سواء .

وأغلب الظن أن صورة الوحش الذى يبتلع الجموع إنما ترمز إلى استحواذ الخمينى على أتباعه وتقديسهم له ونظرهم إلى ما يقول كأنه وحى منزل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه . والذى نعرفه من تاريخ النبى عليه الصلاة والسلام أنه لم يدَّع يوما العصمة لنفسه ، بل كل ما قاله القرآن فى هذه الصدد هو أن الله قد حفظ الذكر ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى ، فما القرآن إلا وحى يوحى . أما أمور الدنيا والسياسة والحروب والاتفاقات ووضع الخطط فقد كان عليه الصلاة والسلام حريصا ، بأمر القرآن وتوجيهه ، على مشاورة مَن حوله فيها ، ولم يكن ﷺ يأنف من النزول على رأى يخالف رأيه إذا اقتنع بجدواه . وأحرى بساسة المسلمين وزعمائهم ألا يتنكبوا سنة الرسول عليه السلام ، إذ مهما تكن عبقرية القائد أو الحاكم فما هو إلا بشر يخطئ ويصيب ، وليس له إلا عقل واحد ، ولا يستطيع أن ينظر إلى الأمر من كل جوانبه . وإن تعاون العقول والأفكار كفيل بأن يُرى الإنسان ما لم يكن يستطيع بمفرده أن يراه . إننا لا نهوّن من شأن الخمينى ودوره فى تحريك الإيرانيين للثورة على فساد النظام الشاهنشاهى وجبروته وعمالته لقوى الغرب الاستعمارية وتنكره للإسلام وتراثه فى بناء دولته وإدارة شئونها . كذلك فإننا لا ننكر حب الإيرانيين له بل تقديسهم إياه . ولكننا نرى أن عواقب هذا التقديس والإفراط فيه هى عواقب مفزعة . أما قول المؤلف على لسان جبريل إن الثائرين لا يحركهم الحب بل الكره فإنه حتى لو صحَّ لما كان عيبا فى الثورة ، فالثورة تحتاج إلى

الكره .. الكره للفساد والطغيان والظلم والتفاوت الطبقى الرهيب والاستبداد السياسى . ولولا هذا الكره ما قامت ثورة وإلا فكيف يثور الإنسان على شئ يحبه ؟ وتبقى دعوى رشدى أن الإمام لا يعترف بالعلم ، ولا يؤمن بالتقدم أو حقوق الإنسان، والزمن كفيل بالردّ على هذه الدعوى نفيا أو تأكيدا ، إذ إن السنوات التى مرّت على الثورة الإيرانية من القلة بحيث يصعب الحكم فى هذه القضية ، وبخاصة أن أخبار إيران لا تأتينا مباشرة ، وإن كنا بوجه عام نخشى عواقب تقديس الزعماء وعدم اتساع صدر الحاكم للآراء المعارضة والتفكير الحرّ والإبداع ، فهى عواقب وخيمة سامة ، ولا تؤدى لغير التخلف والكوارث . وعلى كل حال فليس الإيرانيون هم وحدهم الذين يفعلون هذا مع بعض زعمائهم ، بل كل الشعوب الإسلامية تقريبا وكذلك معظم دول العالم الثالث والكتلة الشرقية تفعله ، بغض النظر عن مدى النفاق فى هذا أو الإخلاص فيه .

وبالنسبة لاتخاذ الإمام لجبريل مطية فى رحلته إلى بيت المقدس فإن هذا يذكرنا برحلة الإسراء التى قام بها الرسول عليه الصلاة والسلام إلى تلك المدينة . ولكن سلمان رشدى على عادته فى الخلط والتحريف قد نسبها إلى الإمام ، وجعل « بيت مقدسه » هى سقوط الإمبراطورة والقضاء عليها . واستبدل جبريل بالبراق . إن سلمان رشدى بهذه الطريقة يحاول الربط بين

ثورة الخمينى وأتباعه على النظام الشاهنشاهى فى إيران وثورة الإسلام على الجاهلية ، وتأسيسه دولة على قواعد التوحيد والمساواة . ونحن نعرف طبعا موقف رشدى من الثورتين .

ومن الروابط التى حاول المؤلف أن يصل بهاما بين دعوة النبى عليه الصلاة والسلام وثورة الخمينى أنه جعل الصراع بين كل منهما وأعدائه صراعا بين « الماء » وشئ آخر : فى حالة الرسول عليه الصلاة والسلام كان صراعا بين الماء والرمل ، وفى حالة الخمينى بين الماء والخمر وقد رأينا كيف أن الماء فى الحالة الأولى بعد أن انتصر فى البداية على الرمل عاد الرمل فابتلعه إذ استطاعت هند أن تقضى على ماهوند . أما قصة الإمام فإنها تنتهى بانتصار الماء على الخمر ، ولكن من قال إن فصولها فى الحياة الواقعية قد تمت فعلا ؟ قد يقول بعض إن اللات قد تلاشت فى تلك القصة ولم يبق منها إلا بقعة سوداء على أرض حديقة القصر ، فكيف يمكن أن تنتصر بعد موتها ؟ بيد أن هؤلاء ينسون أن اللات كانت قد حُطّمت أيضا فى قصة ماهوند ، ومع ذلك استطاعت هند أن تبعثها وتستعين بها فى القضاء عليه .

وما دمنا بصدد الحديث عن هند فلا بد من الإشارة إلى أن المؤلف قد قرن فى قصة ماهوند بين اللات وبينها بصفتها زعيمة

الجاهليين بعد استسلام زوجها أبى سمبل ، على حين أنه فى قصة الإمام قد قرن بين اللات وعائشة إمبراطورة « دش » .
والراجح أنه اختار للإمبراطورة هذا الاسم للعواطف غير الطيبة التى يحملها الشيعة تجاه سيدتنا عائشة رضى الله عنها . وقد كان يستطيع أن يسمى الإمبراطورة أيضا باسم هند ، فهند أم معاوية رضى الله عنه مؤسس دولة الأمويين ، وعداوة الأمويين للهاشميين معروفة . وعلاوة على ذلك فقد أسس الأمويون دولة خاصة بهم ، أما عائشة وأسرتها فلم يقيموا حكما خاصا بهم ، وإنما حكم أبوها رضى الله عنه المسلمين سنتين لا أكثر ، انتقل الحكم بعدهما إلى عمر فعثمان فعلى فى نهاية سلسلة الخلافة الراشدة . فهو فى هذه الناحية مثله مثل على . لكن يبدو أن المؤلف قد أراد بتسمية إمبراطورة « دش » باسم عائشة أن ينفخ فى الخلافات بين السنة والشيعة ويزيدها ضرامًا ، فإن هندا لا تحتل بطبيعة الحال من وجدان أهل السنة ما تحتله عائشة ، إذ هى زوجة النبى عليه الصلاة والسلام ، وبنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه أقرب أصدقاء النبى إليه وأول من أسلم من الرجال ، وباذل ماله كله فى سبيل الإسلام ، ورائد فتنة الردة التى كادت أن تقضى على دولته الناشئة . ثم إنه لم يكن ثمة خلاف بين هند وعلى كالذى كان بينه وبين عائشة فى واقعة الجمل مثلا .

وثمة إشارة فى القصة لا أحب أن يفوتنى الكلام عنها ، وهى قول المؤلف إن بلالا هو سلاح غربى وُجِّه ضد صانعيه . والمؤلف يقصد بذلك أن موقف المسلمين من الغرب هو موقف مزدوج غير منطقى ، فهم يعتمدون على ما تنتجه حضارة الغرب حتى فيما يخص الدعاية لعقائدهم ، ومع ذلك لا يستحون من أن يسبوا ذلك الغرب نفسه ويحقروا من حضارته وثقافته .

أما القصة الثالثة ، قصة صلاح الدين تشامتشا وجبريل فاريشتا ، فهى من الطول والامتلاء بما لا يكاد يحصى من التفاصيل التافهة السخيفة بحيث إن من الصعب تلخيصها . ومع ذلك فلأحاول أن أقدم للقارئ فكرة عن خطها العام فقط فهناك طائرة يركبها هذان الشخصان ، وهذه الطائرة تتعرض للاختطاف ، وفى النهاية تنفجر فوق سواحل بريطانيا . ويموت كل من كان فيها ما خلا هذين الشخصين ، ويُقْبض على صلاح الدين تشامتشا ، وتقتاده الشرطة فى سيارة ثان ، ويجد أنه قد استحال إلى جدى بشرى . ويكتشف ضباط الشرطة أنه مواطن إنجليزى ، ويحملونه إلى مستشفى يعج بحيوانات وحشرات بشرية من مختلف الأنواع . وفى هذه الأثناء تتخذ باميلاتشا متشا ، زوجة صلاح الدين (وهى إنجليزية) عشيقا هو چامبى

چوشى [٢٤] صديق زوجها ، بعد أن ظنت أن زوجها قد مات فى انفجار الطائرة ، ولكنها تفاجأ به يدخل عليها فى هيئته الجديدة فلا تصدق أنه زوجها .

ويترك تشامتشا البيت ويذهب إلى مقهى يملكه هندى مسلم هو وزوجته . وتعلن إحدى ابنتيهما أنها ستتزوج تشامتشا ، وإن كانت تسميه « الشيطان » . وقد أخذت الأسرة تشامتشا إلى حجرة فى أعلى البيت وأفهموه أن هذا هو المكان المناسب الذى يمكن أن يستعيد فيه شكله الحقيقى ، لأنه هنا بين مواطنيه من الهنود ، فيرد بأنه قد ظل طوال عمره يحاول الهروب منهم .

ويتساءل تشامتشا لم أصبح جديا ؟ ألم يبذل كل جهده ليصبح إنجليزيا صالحا ؟ هل السبب هو أنه لم ينجب من زوجته الإنجليزية ؟ ولماذا يُقْصى هكذا عن عالم الإنجليز الذى يعشقه؟ ويرفض الطعام الهندى الذي قُدِّم إليه . ويتصل ، وهو لا يزال جديا ، بزميلته فى البرنامج الإذاعى الذى كانا يقدمانه معا (وهى فتاة يهودية) فتقول له إنه قد مات وإنهم قد فصلوه من

---

(٢٤) أخطأ د . نبيل السمان حين قال إن تشامتشا قد فاجأ زوجته وهى تضاجع جبريل ، إذ لم يكن لجبريل علاقة بها ، بل كان عشيقها هو چامپى چوشى . انظر كتابه « همزات شيطانية وسلمان رشدى » / ص ٣٧ .

وظيفته . ونراه يعزو سبب ظهور قرنين فى رأسه إلى أن صديقه القديم قد اتخذ من زوجته عشيقة .

ويصبح تشامتشا عند الآسيويين بطلا، وتنتشر بينهم بدعة ارتداء قرنين من المطاط . ثم يتحول تشامتشا إلى إنسان فى مرقص تحت الأرض بعد أن أحرق الموجودون (وهم من غير الإنجليز) دمية لمرجريت ثاتشر . ويقول المؤلف إن تشامتشا قد استعاد بشريته بفضل تركيز الكراهية . ويعيش تشامتشا مع زوجته وعشيقها فى نفس البيت إلى أن تنتهى الإجراءات القانونية للطلاق ، ويقضى وقته كله أمام المرناء فى ملل خانق.

أما جبريل فاريشتا [٢٥] ، الذى سقط كما رأينا مع صلاح الدين تشامتشا من الطائرة سالما فيقع فى حب روزا داياموند ، المرأة التى سقطا قريبا من بيتها على السواحل الإنجليزية ، والتى قبضت الشرطة عندها على تشامتشا . وتصوره الرواية وهو مربوط من سرته إلى سرتها ، وهو نفس الرباط الذى نراه فى موضع آخرمن الكتاب يربط بين جبريل الملاك وماهوند .

وفى مكان آخر من القصة نشاهد جبريل جالسا فى ديوان قطار وهو خائف من أن يكون قد جُنَّ ، ويصدر عنه أثناء عبور

---

(٢٥) وهو هندى أيضا مثل تشامتشا .

القطار نفقا مظلما نور أحمر من مؤخرة رأسه . ويبلغ بيت هللويا كون ويقضى وقته كله معها فى الحب . ويغار جبريل عليها فتطرده فيغضب ، وعندئذ يتزلزل الكون ويرى الله جالسًا أمامه على سرير ، ويعرف منه جبريل أنه قد أرسله بالقرآن إلى عاد وثمود العصر الحديث (المقصود أهل لندن) ، ويصبح ملاكا . ونراه كلما حاول هداية أحد من المارة لقى منه الأذى والإهانات وكلما ذهب إلى مكان وجد الشيطان ذا القرنين ينتظره . وتحاول ريكا ميرشانت عشيقته القديمة فى الهند أن يترك ذلك ، ولكنه يرفض الإغراء ويختفى .

ويتحول جبريل إلى كائن شديد الضخامة ، وتتزلزل المبانى أينما سار ، ولكن الناس لا يبالون به . وتصدمه عربة المنتج السينمائى سيصوديا ، ويُحْمل إلى بيت هللوياكون ، فتخبره أن شفاءه فى الحب ، فيعترف بالجنون وبأن من الممكن أن يتلبس به الملاك جبريل فى أى وقت ، ويعالج ، ولكنه كان فى نومه يردد : « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » . ويعرض سيصوديا عليه أن يمثل عدة أفلام عن الجاهلية ، والإمام والفتاة الفراشة ، ولكن أللويا كون تقول إنه ترك التمثيل ، إذ كانت تغار من شهرته والتفاف الفاتنات حوله . وتخرج من حياته فلا يتصل بها لانشغاله فى التمثيل . وفى يوم الافتتاح يظهر على المسرح فيرى قرون المطاط على الرؤوس

(علامة عدوه) ، وينشعب الطريق أمامه ، فيأخذ الطريق الأيسر .

ويرتفع فى سماء لندن شاعرا بالاحتقار للإنجليز ، ويجلجل صوته فى الآفاق بأنه سيحوّل بلادهم إلى بلد استوائى حيث كل شئ واضح بلا ضباب ، وعندئذ سوف يستنجون بالماء بدل الورق ويعرفون الصراصير والتراب والضجة والمبالغة فى الكلام . ثم يفقد وعيه ونراه عند أللوياكون ثانية . ويحلم وهوفى السرير بالجاهلية (وهنا يبدأ الفصل الثانى من قصة « ماهوند ») .

ويُقْبَض على د . سمبا (وهو زعيم ملون) ، ويقول أنصاره إن القضية ملفقة ، ويعقدون الاجتماعات والمؤتمرات لإثارة الرأى العام . ويركب تشامتشا سيارة أجرة ، ويفترق الطريق أمامه إلى شعبتين ، فيختار اليسار . ويفكر فى الانتقام لنفسه عن طريق خيانة جبريل فاريشتا مع عشيقته أللى كون . ويذهب الرجلان إلى مطعم هندى حيث يسبهما أربعة من الشبان الإنجليز ويبصق أحدهم فى طعامهما ، وبعد مشادة من مشاداته مع أللى كون يغادر جبريل البيت ، ويدخل محلا لبيع الآلات الموسيقية ، ويشترى بوقا يسميه عزرائيل ، ويقول إنه البوق الأخير الذى سيقضى على البشرية .

ويموت د . سمبا فى السجن فى ظروف مريبة . وتظهر عصابة الشبان الإنجليز الأربعة وتتحرش بالملونين وتضربهم وتبصق على طعامهم فى المطاعم التى يرتادونها . ونرى جبريل فى الشوارع وهو ينفخ بوقه الذهبى .

ويتعرف جبريل فى تشامتشا على الشخص الذى كان يعاكسه هو وأللى كون فى الهاتف بالكلام البذئ . ويتحول تشامتشا إلى شخص شرير تماما ، ثم يصبح نارا ، ويدخل المقهى فيدخل جبريل فى أثره ، ويشب فى المقهى حريق ويقع عرق خشبى من عروق السقف فوق تشامتشا ، ويركله جبريل فى صدره فيسترحمه تشامتشا . وتحاصرهما النيران ، لكنه فى النهاية ينقذه ، فينتصر الحب بذلك على الكراهية .

ويعود صلاح الدين تشامتشا إلى الهند (التى كان قد غادرها إلى انجلترا فى صباه حيث أرسله أبوه ليتعلم) ، إذ كان أبوه فى أيامه الأخيرة . ويعود بينهما الحب المفقود ، ويجد لذة فى أن ينادوه بـ « صلاح الدين » بعد أن يظل ينادى فى بريطانيا بـ « صلادين : Saladin » [٢٦] ، ويقوم بتمريض أبيه بنفسه . ويلاحظ تشامتشا أن أباه لا يذكر الله

---

(٢٦) تحريف اسمه بالإنجليزية .

أبدا فى النزع الأخير ، ويحتار تشامتشا عندما يرى علامات الفزع على وجه أبيه ، وكذلك عندما اعوج فمه وابتسم ، وأخذ يتساءل : ترى ما الذى رآه أبى ؟ وما الذى ينتظرنا هناك ؟

وبعد العودة من دفن أبيه يأخذ قنديلاً تركه الوالد ، ويدلكه فإذا بصديقته القديمة زينات وكيل (وهى طبيبة هندية شابة كانت قد اختلفت معه بسبب تعلقه الشديد بالإنجليز ونفوره من ثقافته القومية) تدخل عليه ، فيخبرها أنه يحبها ، فتشير عليه بالصبر حتى تهدأ فورة انفعاله بعد موت والده . وبعد عودة زينات إلى حياته يكتمل تجدده وولادته من جديد ، وتبدو حياته الإنجليزية بعيدة جدا .

ويشترك تشامتشا فى إقامة سلسلة من الأجساد البشرية تعبيرا عن الوحدة الوطنية بين المسلمين والهندوس مثلما فعل الحزب الشيوعى فى كيرالا . ويعود أيضا فاريشتا إلى الهند لينسى هللويا كون وليبتعد عن لندن ، المدينة الباردة . ونرى جبريل يتردد على حى البغاء ، كما نفهم أنه متهرب من الضرائب . وتسأله الشرطة عن ملابسات موت ريكاميرشانت . وتأتى أللويا كون مع مجموعة من المتسلقين لقهر قمة افرست ، ويفكر تشامتشا فى الاتصال بها وبجبريل .

ويموت سيصوديا برصاصة فى شقة جبريل ، وتسقط أللويا كون من ناطحة سحاب . ويعلن صلاح الدين أنه سيعود إلى قصره . ويأتى جبريل لزيارته ، وتقترح خادمةٌ أن تستدعى له الشرطة ، ولكن تشامتشا يرفض . ويحكى له جبريل أنه هو الذى قتل سيصوديا ، وأنه كان يحب أللويا كون . ونفهم من كلامه أنه كان سببا فى سقوطها من فوق قمة إفرست . وتكون خادمة القصر قد استدعت فى هذه الأثناء الشرطة . وما إن يسمعهم جبريل يدقون الباب حتى يخرج مسدسا يصوبه إلى فمه وينتحر . ويفكر تشامتشا فى إزالة بيته ، لأن القديم على حد تعبيره إذا لم يزل فلن يولد الجديد . ويقول إن الطفولة قد ولّت باعتقاداتها فى الخرافات والسحر . وتأتى زينات وكيل لتأخذه عندها فيوافق وينصرف معها .

هذا ملخص شديد الإيجاز للخط العام للقصة الثالثة فى الكتاب ، قصة صلاح الدين تشامتشا وجبريل فاريشتا . وهو لا يمكن أن يوحى بما تعج به القصة من مئات التفاصيل السخيفة المملّة ولا بحركتها البطيئة القاتلة ، ولا ببرودها الثلجى ، ولا بالمعاناة التى كان علىّ أن أتجرع لها كئوس الصبر وأنا أقرؤها (ومثلها فى ذلك قصة عائشة الكاهنة الهندية) . ولا أدرى كم قارئا واتاه طول البال المطلوب لكى يُتم هذا الكتاب . وبالنسبة لى أعترف بأنه لولا عزمى على أن أتمه بكل سبيل

ما استطعت أن أجتاز صفحاته الأولى . أستثنى من ذلك قصتى النبى عليه الصلاة والسلام ، والإمام الخمينى ، اللتين كنت سأقرؤهما حتى لو لم أستطع المضى فى مطالعة القصتين الأخريين ، وهما القصتان اللتان تستغرقان معظم الكتاب . ومع ذلك فإن نفسى قد نازعتنى عدة مرات إلى أن ألقى بالكتاب وأقرأ ما يتعلق منه بالرسول عليه السلام وبالخمينى وثورته فقط ولذلك فلا غرابة أن يكتب الأستاذ أنيس منصور أن « الرواية طويلة جدا ، وأكثر الذين يتحدثون عنها لم يروها ، وإن رأوها لم يقرأوها »(٢٧) .

وإذا أتينا إلى المحور الذى تدور عليه القصة فإنى أجد من الصعب الوصول إلى شئ فى هذا السبيل يرتاح إليه العقل ، هل القصة تحكى رحلة صلاح الدين تشامتشا من الانخلاع من هويته الإسلامية إلى التعبد لثقافة الإنجليز بعد ما ترك الهند إلى بريطانيا ، ثم رحلة عودته إلى الهند ولكن من غير الرجوع إلى الإسلام ، الذى استعاض عنه فيما يبدو بالفلسفة الماركسية ؟ لكن ذلك إن صدق على الجزء الخاص بصلاح الدين تشامتشا من القصة فهو لا يصدق على سائرها ، إذ ماذا عن جبريل فاريشتا مثلا والأسر المسلمة التى تعيش فى بريطانيا وجاء

---

(٢٧) أنيس منصور / سلمان الكذاب . مؤامرة على الإسلام / أخبار اليوم (١٩٨٩/٢/٢٥) / ص ٦ .

ذكرها فى القصة ؟ ثم لماذا رجع تشامتشا عن غرامه المفرط بكل ما هو إنجليزى ؟ لقد رأيناه ، عندما نبت له قرنان ، يتساءل عن السبب الذى أقصى بسببه عن عالم الإنجليز وهو المتعلق بهم وبثقافتهم وأسلوب حياتهم ؟ إننا نفهم منه أن سبب تحوله إلى جدى هو أن زوجته قد أصبحت عشيقة لصديقه القديم ، لكن هذه ليست خيانة من زوجته له ، إذ إنها حين فعلت ذلك كانت تعتقد أنه قد مات فى حادث انفجار الطائرة . وطبعا لا يمكن القول إنه مستاء لممارستها الجنس مع هذا الصديق بلا زواج ، فمثل هذه الاعتبارات لا تبالى بها الثقافة الإنجليزية ، التى تبيح للمرأة والرجل أن يفعل كل منهما بجسده ما يشاء ، لأن الجسد ملك صاحبه ، وهو صاحب الحق فى تقرير ما ينبغى وما لا ينبغى أن يفعله به .

لقد كان يمكن أن يكون الأمر مفهوما لو أن ظهور قرنين لتشامتشا كان سببه أنه رضى أن يديّث على امرأته . صحيح أنه فعل ذلك ، لكن القرنين كانا قد ظهرا له وأصبح جديا قبل هذا ، فلما اكتشف علاقة زوجته بصديقه تقبلها بروح رياضية ! ثم إن القرنين قد أصبحا ، كما لاحظنا ، بدعة انتشرت بين الآسيويين ، إعجابا منهم بتشامتشا ، ولا أدرى لماذا . كذلك فقد تكررت الإشارة فى القصة إلى أن تشامتشا هو الشيطان ؛ وأن قرنيه هما علامة الشيطان ، فكيف يكون تشامتشا شيطانا

وهو لا ذنب له فى هذين القرنين بل هو فى واقع الأمر الضحية ضحية اتخاذ زوجته من صديقه القديم عشيقا (إن سلمنا بتفسيره) أو ضحية قوة مجهولة ؟ أيضا ينبغى أن نكون على ذكر من أن تشامتشا قد استعاد بشريته وتخلص من قرنى الجدى وساقيه وأظلافه بفضل تركيز كراهيته لجبريل [٢٨] . فهل يمكن أن يستحيل الشيطان إنسانا بمزيد من الكراهية ؟ المفروض أن العكس هو الصحيح .

كذلك كان يمكن أن يكون الأمر مفهوما لو أن تشامتشا تخلص من قرنيه حين تنبه إلى خطأ احتقاره لهويته وبنى جنسه . ولكنه عندما أخبره بعض بنى جلدته أن البيت الذى أسكنوه حجرة من حجراته هو أنسب مكان لاستعادة بشريته بسبب وجوده بينهم ردّ عليهم بأنه قد ظل طول عمره ينفر منهم ويجهد فى الابتعاد عنهم . وحين قدموا له طعاما هنديا أحس بالاشمئزاز منه . ومع ذلك فقد استرجع تشامتشا إنسانيته فى المكان الذى شهد مراسم إحراق دمية لمارجريت تاتشر ، مع أنه ظل إلى ذلك الوقت بل وإلى ما بعده بوقت غير قصير عبدا مخلصا للإنجليز وثقافتهم وأساليب عيشهم .

---

(٢٨) الرواية / ص ٢٩٤ . وقد اضطرب سامى خشبة عند هذه النقطة ، إذ قال مرة إن تشامتشا استعاد إنسانيته بفضل الوحى (مقالته فى أهرام الجمعة ١٢/٥/١٩٨٩) ص ١٢) ، ومرة إنه استعادها بفضل تركيز الكراهية (مقاله فى أهرام الجمعة ٢/٦/١٩٨٩/ ص ١٢) .

هل يكون المحور الذى تدور حوله القصة إذن هو الصراع بين الخير (متمثلا فى جبريل فاريشتا ، الذى تحول فى بعض فصول الكتاب إلى ملاك ، وأرسله الله بالقرآن لهداية اللندنيين) ، والشر (متمثلا فى تشامتشا ذى القرنين) ؟ ولكننا لا نعرف سببا لهذه التفرقة بين الاثنين . إن كليهما قد انسلخ من دينه [٢٩] ، وكليهما زان ، وكليهما يعيش بنفس الطريقة التى يعيش بها الآخر ، فلماذا كان أحدهما شيطانا والآخر ملاكا ؟ ثم أين هذا الصراع بين الخير والشر فى الرواية ؟ وما آثاره ؟ إنه ليس إلا صراعا شخصيا غير واضح البواعث ، فتشامتشا يفكر فى الإنتقام لنفسه من جبريل بخيانته مع عشيقته هللويا كون ؟ ولكن هل خانه جبريل مع زوجته حتى يفكر فى الانتقام منه ؟ كذلك فإنى لا أفهم لم قبضت الشرطة على تشامتشا فى بيت روزا داياموند فى أول القصة وتركوا جبريل فاريشتا ؟ لقد أحس تشامتشا بالغيظ حينئذ من جبريل ، فما الذنب الذى جناه هذا فى حقه ؟ ثم لم اختار المؤلف هذين الشخصين بالذات ليسند إليهما دورَى الشيطان والملاك ؟ بل لماذا كتب لهما من

---

(٢٩) بالنسبة لتشامتشا المسألة واضحة . أما بالنسبة لجبريل فإننا نراه بعد أن شُفى من مرضه فى أول القصة يأكل لحم الخنزير ويحشو به فمه حتى تدلت منه قطع اللحم بطريقة مقززة . كل ذلك أمام عدسات التصوير ليقول للحاضرين : اشهدوا . لقد انسلخت من إسلامى . الرواية / ص ٣٠ - ٣١

دون ركاب الطائرة جميعا النجاة ؟ لقد انفجرت الطائرة ، وكان انفجارها على ارتفاع سحيق ، ومعنى ذلك أنه كان من المستحيل أن ينجو من الانفجار أحد . إننى واعٍ بأن القصة مملوءة بأحداث اللامعقول وأن هذا واحد منها . لكن هذا لا يسوغ ألاّ يكتب المؤلف هذه النجاة اللامعقولة إلا لذينك الشخصين فقط . ثم إن القصة قد صورت هذا السقوط على أنه ميلاد جديد [(٣٠)] ، وهذا يعنى أن ذينك الشخصين قد بدءا منذ تلك اللحظة حياة جديدة ، فكيف تحول أحدهما إلى شيطان والآخر إلى ملاك ولم يكونا قد قطعا فى طريق حياتهما الجديدة إلا خطوات قلائل لا تسمح بهذه التفرقة الحادة ؟ وأخيرا فإنهما كليهما قد اتخذا طريق اليسار عندما انشعب الطريق أمام كل منهما كما رأينا ، أى أن اتجاههما واحد ، فلماذا التفرقة بينهما إذن ؟

هل يكون محور القصة إذن هو تصوير حياة الهنود وأمثالهم فى بريطانيا وما يعانونه فى المجتمع البريطانى من الصراع الروحى والثقافى الذى يدور فى نفوسهم بين ماضيهم والحاضر الذى يحاصرهم فى مجتمعهم الجديد ، ومن الأذى والإهانات التى ينزلها بهم فريق من متعصبى الإنجليز ؟ لكن هذا لا يشكل إلا جزءا ضئيلا من القصة ، علاوة على أنها لم تبرزه بما يشعرنا أن الأمر يمثل أزمة خطيرة . لقد سمعنا رجال الشرطة الذين وكل

---

(٣٠) ص / ٨٤ ، ٨٧

إليهم معالجة هياج الملونين عقب موت د . سمبا المريب فى السجن يقولون لهم إن أحوالهم فى بريطانيا هى أفضل جدا من الأحوال فى بلادهم الأصلية حيث الاستبداد والفساد . وهى ملاحظة صحيحة لدرجة غير قليلة ، وإن كانت المسألة لا تعالج بهذا المنطق ، فإن الملونين ينظرون حولهم فيجدون أنهم لا يقفون على قدم المساواة مع البريطانيين ، أما فى بلادهم الأصلية فإن الظلم يعم الجميع ، فالكل فيه سواء ، فضلا عن أن البشر قد يقبلون من ذوى القربى ما لا يقبلونه من الغرباء .

هل يكون محور القصة إذن هو محاولة جبريل هداية لندن بهَدْى القرآن ؟ لكن هل كان جبريل مؤهلا لهذا وهو الذى خرج من إسلامه وكان يعيش أثناء مقامه فى بريطانيا معيشة الإنجليز ؟ وأى فضائل إسلامية يا ترى كان يحضهم عليها ؟ وما عيوبهم التى كان يدعوهم إلى التخلص منها ؟ إن القصة لاتجيب على شئ من هذا . إن فى بريطانيا ، كما فى الغرب بوجه عام ، فضائل الجد والعمل والمغامرة والتفكير العلمى والنظام والنظافة ، فهم فى هذا الجانب لا يكادون يحتاجون شيئا . وحسنا فعل جبريل أن لم يكلمهم فى هذا . ولكنه زاد فلم يكلمهم فى غير هذا . وقد كان ينبغى ، ما دام قد أمر بدعوتهم إلى القرآن ، أن يحاول هدايتهم إلى الإيمان بالله ، ويذكرهم باليوم الآخر ، ويحذرهم من عاقبة الغرور والبغى على الأمم المستضعفة ، ويبغضهم فى الخمر والزنا وأكل الخنزير ،

وينبههم إلى وجوب التخلص من السخائم المتكومة فى صدورهم على مدى القرون ضد نبى الإسلام . بيد أنه لم يفعل شيئا من ذلك ، فما معنى أنه أرسل إليهم بالقرآن إذن ؟ ولا بد أن أذكر هنا أن جبريل فى أثناء هذه الفترة من حياته قد غلبه النوم العميق أياما وليالى متتالية ، فأخذ يحلم بالجاهلية وماهوند النبى المزيف الذى كان يأتى بالوحى من عنده وينسبه للسماء ، والذى قبل الصفقة التى عرضها عليه الجاهليون ، وحين تراجع ونسب ذلك للشيطان سخر منه جبريل قائلا : « دعك من هذه الألاعيب » . فكيف يمكن أن يكون جبريل داعية إلى الإسلام فى لندن فى الوقت الذى يكذب فيه محمدا (الذى يسميه الكتاب « ماهوند ») ويقول له : « إنك أنا ، وأنا أنت ، ولا وحى هناك ولا خلافه » ؟ وكيف يقول المؤلف فى قصة الرسول عليه السلام إن الله لا يظهر للبشر [٣١] ، على حين أننا شاهدناه يظهر لجبريل فى لندن ، بل وفى صورة مزرية ، ويأمره بأن يحمل رسالة القرآن إلى أهل لندن ؟ إن هذه كتلة معقدة من التناقضات والاضطرابات . قد يقال إن جبريل قد أصبح ملكا ومن ثم فقد يمكنه أن يرى ما لا يراه البشر . لكن السؤال هو : ولماذا هذا التداخل بين جبريل البشرى وجبريل الملاك ؟ هل لتشابه الاسم ؟ لكن هل هذا سبب كاف ؟ فلم لم

---

(٣١) ص / ١١١

يجعل صلاح الدين تشامتشا بدوره هو صلاح الدين الأيوبى مثلا ؟ [٣٢] هل هى الشيزوفرانيا بسبب السقوط من الطائرة ؟ فلم لم يصب بها صلاح الدين تشامتشا أيضا وقد سقط معه ؟

وليس محور القصة هو وحده الذى يبعث على الحيرة ، بل إن هناك أشياء فى القصة لا أستطيع أن أعرف لماذا ضمنها المؤلف قصته . مثلا حياة روزا دايا موند السابقة فى الأرجنتين والأحداث الكثيرة التى ساقها المؤلف من هذا الماضى بتفاصيلها الغامضة التى يصعب على القارئ تتبعها ، فضلا عن أن يجد لها رابطا يصل بينها وبين القصة الأصلية . إن روزا دايا موند هى المرأة التى سقط قريبا من بيتها على أحد الشواطئ البريطانية صلاح الدين تشامتشا وجبريل فاريشتا ، والتى قُبض على تشامتشا عندها وبقى معها فاريشتا ووقع فى حبها ، والمؤلف يحكى لنا عن حياتها قبل ذلك فى الأرجنتين هى وزوجها دون إيزيك داياموند ، وكيف أنها فوجئت وهى راكبة حصانها ذات يوم بنعامة تجرى نحوها ووراءها سحابة من الغبار برز من خلالها رجل اصطاد النعامة وغرس سكينه فى رقبتها

---

(٣٢) ظن د . عبد العظيم المطعنى أن المقصود بصلاح الدين فى القصة هو الناصر صلاح الدين الأيوبى . انظر مقاله « حملات وقحة من وراء الحدود . جبريل وصلاح الدين فى لندن » / صحيفة « النور » القاهرية / ٤ جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ (١٤ ديسمبر ١٩٨٨ م) / ص ١٠ .

وهو لا يخلع عينيه عن روزا . وهذا الرجل اسمه مارتين دى لاكروز ، ويتكرر منظر النعامة ، ولكن هذه المرة على شاطئ البحر فوق الرمل المبلل الذى تزحف فوقه الأمواج . وتنجو النعامة هذه المرة . وتأخذ تلك المرأة فى حكاية حياتها فى الأرجنتين مع زوجها اللاهى عنها بصيد الطيور ، وصديقتها كلوديت المغرمة بتحطيم القلوب ... إلخ ، ويسوق المؤلف بعض ذكرياتها مع عشيقها دى لاكروز ، فمرة ترى نفسها وهى تتقلب فى أحضانه فوق قطعة من القماش كانا قد بسطاها لتناول الطعام فوقها ، ومرة ترى نفسها وهى تبتعد عنه وتسحب يدها من يده [٣٣] . وليس لشئ من ذلك أى انعكاس فى القصة ، ولو حذف لكان أفضل ، فهو مجرد حشو غير مفهوم . وهذا مجرد مثال .

والهلوسات فى القصة كثيرة جدا ، منها أن جبريل يجد نفسه مربوطا من سرته إلى سرة أللويا كون بحبل مضئ ، ثم نراه بعد ذلك وهو يفك ملابسها ويحل شعرها ويجامعها رغم أنها عجوز أكبر منه كثيرا . وتحاول هى أن تتخلص منه ، وتطعنه بسكين ، ولكنه يستمر فى مجامعتها برقة وحناه . ثم يفاجئهما شخص ثالث يطلق عليه النار من مسدس معه ، ثم

---

(٣٣) الرواية / ص ١٤٣ - ١٥٢

يأتي آخر ويطعنه في جرحه بسكين ، فيصرخ ويفقد وعيه ... إلخ [٣٤] ومن هذه الهلوسات تحوّل إحدى شخصيات القصة إلى كائن زجاجي متشقق [٣٥] . ومنها أيضا رؤية جبريل فاريشتا ريكاميرشانت راكبة بساطا طائرا قريبا من سطح الأرض وهي تقتفي أثره إلى مترو الأنفاق ، ثم إذا بها تتحول إلى صورة كبيرة على الحائط [٣٦] ، ورؤية ألليوباكون عفريت الرجل الذي تسلق قمة إفرست وقُتل فوقها ، ومشاهدتها عند القمة نورا صافيا وعددا من الملائكة [٣٧] ، وارتجاج الأرض في لندن ومعرفة الناس من ثم أن تحت الأرض ديدانا مارّة من النوع الذي يبتلع البشر [٣٨] ، وظهور زينات وكيل لتشامتشا في القصر الذي خلّفه له أبوه بعد أن دلك القنديل [٣٩] . وذلك كله غير سقوط تشامتشا وفاريشتا سالمين رغم انفجار الطائرة على ارتفاع سحيق ، وتحول الأول إلى جدى ، ورؤيته في المستشفى الذي حمله إليه رجال الشرطة بشرا على شكل حيوانات وطيور وحشرات ، فضلا عن تحول حمزة هو ومن اشتبك معهم من مقاتلي الجاهلية إلى أسود [٤٠] وقد استقى الكاتب وصف المانتيكور (وهو الأسد ذو الرأس البشرية) من كتاب لويس

---

(٣٤) ص / ١٥٤ - ١٥٥
(٣٥) ص / ١٦٩
(٣٦) ص / ٢٠٠
(٣٧) ص / ١٩٦
(٣٨) ص / ٢٥٤
(٣٩) ص / ٥٣٤

زيورچس « Book of Imaginary Beings » [41] والحق أن هذه التحولات وأمثالها إن كانت العصور القديمة تؤمن بإمكان وقوعها فإن العصر الحديث قد أصبح ينظر إليها على أنها قصص لطيفة يمكن للقارئ أن يلجأ إليها لتحمله إلى الماضى البعيد فيشم عطره المختلط بغبار السنين وصدئها ليس غير ، أما إدخالها فى قصة عصرية تعالج مشاكل من صميم عصرنا (وأين ؟ فى بريطانيا !) فإنى لا أستطيع أن أهضمه . إنها نزوة من الكاتب لم تستطع مقدرته القصصية الواهنة أن تغطى عليها ، فضلا عن أن تُجمّل عُوارها .

الحق أن هذه الهلوسات اللامعقولة قد جنت على القصة جناية شنيعة . ولا يشفع لها عندى أن يقال إن ذلك مذهب فى فن كتابة القصة . لقد ارتقى العقل البشرى ، وتطور فن القصة وتجاوز هذه الخيالات البدائية . ويزيد الجناية شناعة أننا نحاول أن نجد لهذا دلالة فى القصة فلا نجد شيئا . إن الكاتب ، فيما هو واضح ، يترك قلمه توجهه النزوة الطارئة إلى أية جهة تريد ولا أستبعد أن يكون الملل هو السبب الرئيسى وراء هذا ، فإن الكاتب ، فيما يبدو ، كان يضغط على نفسه لكى يستمر فى

---

(٤٠) ص / ١١٦ - ١١٧

(٤١) انظر صفحة الشكر والتقدير فى آخر الكتاب .

كتابة قصة تشامتشا وفاريشتا وقصة عائشة الكاهنة الهندية ، فكان يحاول أن ينفى عن نفسه مشاعر الملل المزعجة بهذه الألاعيب التى ظن أنها ستعجب الجمهور وتخفف عنه ثقل العشرات بعد العشرات من التفاصيل التافهة التى تفتّر حركة القصة ولا تحمل فى أطوائها أية دلالة أو قيمة فنية أو مضمونية . وحسبك من دليل على فتور حركة القصة وهمودها أنها تحكى ، فيما تحكيه ، قصة حب وهجر بين جبريل فاريشتا وأللويا كون تنتهى بأن يقتلها هى وسيصوديا المنتج السينمائى . ومع ذلك فإن قصة الحب هذه تمضى باردة تماما ، ويحس القارئ وهو يطالعها كأنه يأكل نشارة خشب .

والقصة تكتظ بالشخصيات ، وكثير منها لا ندرى له دورا مقنعا فى القصة ، وبعضها لا نعرف إلام آل مصيره . إن عندنا مثلا ريكا ميرشانت وروزا داياموند وأللويا كون ، اللاتى يقع فى غرامهن جميعا جبريل فاريشتا ، ولا فرق بين واحدة منهن وأخرى فى هذه النقطة التى هى مسوغ ظهورهن على مسرح أحداث القصة . وعندنا كلوديت صديقة روزا داياموند أثناء مُقامها فى الأرجنتين ، وزوج روزا داياموند وعشيقها . ويحاول القارئ عبثا أن يعرف سبب ظهورهن المفاجئ واختفائهن المفاجئ ودعك من سيصوديا وبلى بطوطة وغيرهما ممن لا أرى أنهم قد قدموا فى القصة أو أخرّوا .

وثمة نقطة أخرى أثارت حيرتى ولم أستطع أن أجد فيها شيئا شافيا ، فإن المؤلف قد سمّى الجبل الذى كان يقابل ماهوند فوقه جبريل بـ « جبل كون » ، وهو نفسه لقب « هللويا كون » إحدى عشيقات جبريل . إن هللويا كون هى متسلقة للجبال شهيرة ، فهل كونها عشيقة جبريل ومتسلقة جبال كاف لإطلاق اسمها على الجبل الذى كان ماهوند يتلقى فوقه الوحى فى الرواية ؟ لقد جهدت أن أجد ما يمكن أن يلقى الضوء على هذا الربط فى معاجم الجغرافيا وأطالسها ومعاجم الألقاب والأسماء الإنجليزية التى تحت يدى فلم أوفق إلى شئ . والملاحظ أن جبريل البشرى لم يتسلق جبلا فى حياته مرة .

وما دمنا بصدد اسم جبل « كون » فإن الملاحظ أن بعض الأسماء فى هذه القصة التى نحن بصددها تجمع بين العنصر الإسلامى والعنصر المسيحى ، مثل ميشال سفيان ، وحنيف جونسون ، وجون مسلمة . ولم أجد لذلك تفسيرا .

كذلك مما يلفت النظر أيضا اسما الطائرة التى أقلت تشامتشا وفاريشتا من الهند إلى بريطانيا ، وتلك التى عادت بهما إلى الهند . لقد كان اسم طائرة المجئ إلى بريطانيا هو « بستان ٧٤٧» ، و « بستان » هو اسم إحدى جنان الفردوس كما يقول المؤلف [٤٢] أما اسم طائرة العودة فهو « جلستان ٧٤٧ » ، وهو اسم جنة أخرى فى الفردوس [٤٣] . وقد يقال

---

(٤٢) الرواية / ص ٣١ (٤٣) ص / ٥١٢

إنه سمى طائرة السفر إلى بريطانيا باسم إحدى الجنان ليكون سقوط تشامتشا وفاريشتا منها رمزا على السقوط من الجنة (٤٤) . ألم يقل إنهما بهذا السقوط قد وُلدا من جديد ؟ ولكن هل تصمد عيشتهما فى الهند للمقارنة مع الحياة فى جنة ما قبل الهبوط هبوط آدم وحواء ؟ ثم لماذا سمى طائرة العودة أيضا باسم إحدى الجنان ولم يكن ثمة انفجار هذه المرة ولا سقوط ولا ميلاد جديد ؟

وهو يحاول الربط بين هذه القصة وقصة « ماهوند » عن طريق الربط بين بغايا لندن اللاتى قابلهن جبريل يوما فى أحد أحياء تلك المدينة فى جولة من الجولات التى حاول أن يهدى فيها أهلها وبين بغايا ماجور « الحجاب » فى مدينة « الجاهلية » ، إذ اقترب منهن وسألهن : « من تظنننى أكون ؟ إننى أعرفكن لقد قابلتكن مرة من قبل فى غير هذا المكان . وراء حجاب . انتى عشرة منكن » . ثم يعدد الوقح أسماء زوجات الرسول

(٤٤) للدكتور نبيل السمان تفسير آخر لهذه التسمية ، إذ يقول : « فتسمية الطائرة المحطمة ليس محض صدفة ، فإن تهاوى البستان الشرقى متمثلا بالطائرة هو إشارة رمزية لقصائد كتاب « البستان » للكاتب الفارسى « الشيرازى » الصادر فى القرن الثالث عشر الميلادى . وهى قصائد فى الفضيلة والعفة ، وفى العدالة والإحسان ، والتى تلاشت مع الماضى بسقوط الطائرة . انظر « همزات شيطانية وسلمان رشدى » / ص ١٠٤ .

الطاهرات عليهن رضوان الله [٤٥] . وهو رباط كما ترى سمج بذئ ليس فيه حذق الفن بل غلظ الذوق وسفالة القصد . كما أن هناك فيما يبدو رابطا آخر أراد الكاتب الربط به بين القصة التى بين أيدينا وبين قصة « ماهوند » ، وهو مشهد ممارسة الجنس فى صمت وسكون تامّين ، وإن كان الدافع إلى ذلك فى قصتنا هذه خجل سفيان محمد وزوجته ، ومن ثم فهى تظل صامتة ساكنة أثناء الجماع فلا تتلوى أو تهتز [٤٦] ، أما فى قصة « ماهوند » فإن الدافع هو عمل المؤمس (التى سماها المؤلف الشاذ على اسم زوجة من زوجات الرسول الشريفات النبيلات كانت قد انتقلت رضى الله عنها إلى الرفيق الأعلى) على إرضاء نزعة الشذوذ لدى طلابها المصابين بالنكروفيليا ، وهى التلذذ بمضاجعة الموتى ! وهو كما ترى ربط مفتعل سقيم يدل على أن شذوذ ذوق المؤلف ضارب بجذوره فى الأعماق المظلمة البعيدة من شخصيته .

وتبقى القصة الأخيرة ، قصة الكاهنة الهندية . وتبدأ القصة بميرزا سعيد أخطر فى قصره وهو ينظر إلى زوجته النائمة فى حنان . ولكنه يرى فى حديقة القصر

---

(٤٥) ص / ٤٥٩ - ٤٦٠ .   (٤٦) ص / ٢٤٧

ما أفقده سكينة روحه إلى الأبد : فتاة قد حطت الفراشات على يدها اليسرى وهى تلتقطها باليمنى وتضعها فى فمها وتأكلها . وهذه الفتاة اسمها عائشة . وهى فقيرة يتيمة عذراء غير متزوجة ومصابة بالصرع . وكانت تنظر إلى كل من يشتهيها بنظرة احتقار . ولما رآها الناس تأكل الفراشات ظنوا أنه قد أصابها مسّ . وكان أهل قرية تتليبور الهندية [٤٧] يظنون أن الفراشات تشفي من العقم والأمراض ، ثم انصرفوا عنها بعد أن ثبت أن ذلك غير صحيح .

وكان هناك رجل من المنبوذين الهنود دخل الإسلام اسمه عثمان ، تعلق بها وأخذ يتبعها أينما سارت . وكان عثمان هذا مهرجا ومعه عجل يهز رأسه مرة أن « لا » ومرتين أن « نعم » إذا سأله عثمان عن شيء . وتختفى عائشة أسبوعا ثم تعود وقد غطتها الفراشات بدل الملابس ، وأصبح الناس يسمونها « كاهنة » وتخبر هذه الفتاة شيخ القرية أن رئيس الملائكة هو الذى استدعاها ، وأنه أمرها بالحج إلى مكة المكرمة وتقبيل

---

(٤٧) ذكر د . نبيل السمان فى كتابه « همزات شيطانية وسلمان رشدى » (ص / ٤١) أن عائشة هذه كانت تعيش فى مدينة « الجاهلية » ، وهذا غير صحيح ، فلا علاقة لعائشة هذه بالجاهلية البتة ، وإنما ذكرت القصة أنها تعيش فى قرية تتليبور الهندية فى عصرنا هذا . انظر « الآيات الشيطانية » / ص ٢١٧ .

الحجر الأسود ، فيعترض أهل القرية بأن الحقول محتاجة إلى من يرعاها ومن ثم فإنهم لا يمكنهم أن يتركوا كلهم القرية ، وبخاصة أن الله قد أعفى الفقراء والمرضى من تأدية فريضة الحج ، ويقول عثمان إن هناك مرضى وأطفالا وعجائز ، وأن المسافة بينهم وبين المحيط مائتا ميل . وفوق ذلك كيف يعبرون المحيط ؟ هل سينبت الملاك لهم أجنحة يطيرون بها ؟ فتعلن عائشة أن الملاك قد طلب أن يمشوا مائتى الميل حتى إذا ما وصلوا إلى المحيط فإن الماء سينشق أمامهم ، وعندئذ يسيرون على قاعه إلى مكة .

وفى الصباح يستيقظ ميرزا سعيد أخطر فيجد أن أهل القرية قد استعدوا للرحيل مشيا على الأقدام على أن يتناوب الكبار حمل الأطفال . ثم إنهم قد جمعوا كل ما عندهم من طعام وأسرة وركائب ، وقسموها بالتساوى .

ويكتشف ميرزا سعيد أن زوجته وأمها تستعدان للرحيل مع الحجيج فيحاول أن يثنيهما ، فتتهمانه بالكفر ، وتؤكدان له أن الملاك قد وعد بشفاء زوجته من السرطان بعد عودتها من الحج ويثور ميرزا سعيد ويعرض عليها أن تسافر بالطائرة فترفض ، فيعرض السفر بالمرسيدس المكيفة والمزودة بالكوكاكولا فترفض أيضا . وهو فى أثناء ذلك يسخر من الاعتقاد فى الملائكة المجنحة ، والله ذى اللحية ، والجنة ، وانشقاق البحر . وتطلب

زوجته وعائشة منه أن يشاركهما ، فيصيح أن « لا إله » ، فتكمل عائشة قائلة : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فيجيبها بأن التجربة الصوفية هي شعور ذاتي وليس حقيقة موضوعية ، وأن الماء لن ينشق ، وإنها بالعكس تقود الناس إلى الهلاك . ثم أردف أنه رغم عدم إيمانه بالله فسوف يصحبهم ليبين لها أنها واهمة .

وتنطلق جموع الحجيج ومعهم عائشة تسربلها الفراشات ، وقد انساب شعرها الذى أصبح فضيا وطال حتى بلغ عرقوبيها . ويحاول أحد الضباط الهنود إيقاف المسيرة على أساس أنها مظاهرة طائفية . وتنجح عائشة فى إقناع الضباط بتركهم يمرّون ويترك سيربنيڤاس مصنعه ويتبع الحجاج ، ويدور بينه وبين ميرزا سعيد حوار حول هذه الفتاة يؤكد فيه هذا أنه بوصفه رجلا عصريا متأكد أن العجائز لابد أن يهلكوا في مثل هذه الرحلات ، وأن الله لا يشفى السرطان ، وأن البحار لا تنشق . ويقترح علي سيرينيڤاس أن يكوّنا جبهة علمانية ضد هذه الخرافات ويتعاونا على إيقاف هذه المسيرة . ولكن سرينڤياس يرد بأنه ليس كافرا وأنه يعلق صور الآلهة على جدران مصنعه ، فيقول له ميرزا سعيد أن هذا كله ليس إلا رمزا ماديا على فكرة مجردة . ولكن سرينيڤاس لا يقتنع ، ومع ذلك يخبر عائشة بأنه ليس ذاهبا معهم إلى مكة ، بل سيبقى معهم فقط إلى أن يصلوا البحر ثم يعود.

ولا يكف ميرزا سعيد فى أثناء ذلك عن محاولة ثنى زوجته خوفا عليها من الموت بالسرطان واقناع حماته بركوب السيارة بعد أن تنفّط أخمصا قدميها ، ولكنهما ترفضان . ويصاب زجاج سيارته بالسرطان فتعدّ زوجته هذا علامة على خطر موقفه ، وتطلب منه أن يترك المرسيدس ويمشى معهم ، فيستنكر ذلك .

وتموت زوجة محمد دين فى الرحلة فيحزن علّيها زوجها حزنا شديدا ، وينتهى الأمر بركوبه المرسيدس مع ميرزا سعيد ، الذى يحاول مرة أخرى أن يرجع عائشة عن عزمها بلا جدوى . وبعد ذلك كان الحجاج آخر كل نهار يأتون إلى المرسيدس ويتطلعون إلى ميرزا سعيد ومحمد دين . وتحس عائشة بشىء من القلق ، وتختفى يوما ونصف يوم ، ثم تعود وتخبرهم أن الملاك جبريل قد تجلى لها وأنبأها بأن الحجاج إذا ظلوا على صنيعهم هذا بعد استشهاد إحداهم ودخولها الجنة فلن ينفلق لهم البحر ، بل كل ما سيحدث هو أن يستحموا فيه ثم يعودوا إلى بلادهم القاحلة التى لن تسقط فيها الأمطار بعد ذلك أبدا ، عندئذ يستغفرها الحجيج وينفضون عن المرسيدس .

وكان الهنادكة يشتمونهم والسلطات تطاردهم حتى لا يناموا فى شوارع المدن التى يمرون بها . ويموت عجل عثمان فيجدف فى حق الله ، لأنه على حد قوله لا يطمئن إلى حبهم له إلا بإرهاقهم

وإهلاكهم على الطريق ، ويتهمها بأنها شيطان . ويموت أربعة آخرون . وعندما يكثر عدد الموتى يقلق الحجاج ويتحلقون حول المرسيدس ، فيحدثهم ميرزا سعيد عن شرور بعض السحرة . ويحذرهم عائشة من الإصاخة إلى كلام الشيطان . ويحاول ميرزا سعيد أن يغرى زوجته بالسفر إلى أوروبا وأمريكا قائلا لها إن الأطباء هناك يصنعون المعجزات ، ولكنها لا تستجيب له ، فيشتمها قائلاً : « أيتها القحبة البلهاء ! » وتضعف أمها ، وتنضم لراكبى المرسيدس ، وكذلك سرينيڤاس .

ويسد الهنادكة بالدراجات القديمة الشارع الذى كان الحجاج سيمرون منه ، ويستعد عمال المناجم لهم بمعاولهم ، ولكن السماء تمطر وترعد . ويلتقط ميرزا سعيد عائشة ومن معها وينطلق بسيارته . وينتظر الناس أن يحل بهم عقاب السماء . ويُدفن الآلاف من عمال المناجم فى مناجمهم أحياء ، فتقول عائشة بوحى منغم إن ذلك عقاب لهم على نواياهم الشريرة ، فيرد ميرزا سعيد بأن العمال الموتى إنما كانوا يشتغلون فى باطن الأرض ، ولم يكونوا من المتحرشين .

وتنزل عائشة وزوجة ميرزا سعيد من السيارة ، فينادى زوجته أن ترجع فلا تستجيب ، فينزل من السيارة ويفهمها أن الناس قد تفرقوا ولم يبق إلا هم . ولكن فجأة يعود الناس من كل

خشب وقد كستهم الفراشات الذهبية وسارت أمامهم فى صفوف كأنها حبال تشدهم من بئر قد سقطوا فيها . فأخذ الناس ينظرون فى رعب ولا يصدق ميرزا سعيد ما تراه عيناه . وتنتشر الأقاويل بأن الفراشات قد أيقظت الناس من إغمائهم ، وأعادتهم إلى الحياة ، وشفتهم من جروحهم ، ولكن ميرزا سعيد يحاول أن يعلل الأمر تعليلا علميا ، لترد عليه زوجته بقولها :
« وماذا يقول علمك فى الفراشات التى تسربل الناس ؟ »

وتسوء حالة الزوجة فيفزع الزوج . وتوافق عائشة على توقف الموكب لصلاة الجمعة ، ويشارك ميرزا سعيد فى الصلاة وهو يشعر بالاشمئزاز من نفسه . وكان قد نسى ما حفظ من القرآن ، بل نسى أصلا كيفية أداء الصلاة . وأثناء الخروج من المسجد وجد المصلون سلة بها طفل رضيع ، فسألوا الإمام ، فكان جوابه أن هذا الطفل من الشيطان ، فتحولوا بالسؤال إلى عائشة ، التى أجابت بكلام غير ذى علاقة بالموضوع . وانتهى الأمر بأن رُجم الطفل حتى الموت .

ويسأل ميرزا سعيد عائشة ، لإحراجها ، عن السبب الذى يجعلها لا تذكر كلام جبريل لها بنصه ، بل تكتفى فى كل مرة بشرح ما يقول بكلامها هى ، فتؤكد له أنه يغنى لها على إيقاع الأغانى الشعبية ، فيبتهج ميرزا سعيد من هذا الرد الذى يراه

فاضحا لها ويتمايل قائلا إن جبريل يغنى هكذا : « هو چى ا هو چى ا » . ويبدأ الحجيج فى الرقص تعبيرا عن خيبة أملهم واشمئزازهم . ثم يحضر الإمام مستنكرا هذه الأعمال التى لا تتناسب والوقار اللازم للمسجد .

ويحل الظلام ، ويقترب ميرزا سعيد من عائشة ، ويعرض عليها حلا وسطا قائلا لها إن زوجته تُحتضر ، وهى لن تستطيع أن تشق البحر للحجيج ، فما الرأى فى أن يحضر لها ولعشرة تختارهم بنفسها طائرة تأخذهم إلى مكة وتعود بهم فى ثمان وأربعين ساعة ، وبذلك تتم المعجزة ؟ وأن معجزة لعشرة خير من ألا تقع أية معجزة لأحد . فتجيبه بأنها ستفكر . وفى المساء تبدو عليها الحيرة ثم تختفى . وعند الفجر تظهر وتخطب فى الحجيج ، وتذكر لهم أن جبريل قد أكّد لهم خطورة الشك وأنه أحبولة الشيطان . ثم تذكر لهم صفقة ميرزا سعيد ، وتعقب قائلة : إما أن ننجح جميعا وإما ألا ينجح أحد . وفى النهاية تؤكد لهم أن دليل صدقها هو انشقاق البحر ، فيتحداها ميرزا سعيد .

ويصل الحجيج إلى البحر فيهرعون إلى الماء وينزلونه ، ويظلون يتقدمون فيه . ويستغيث ميرزا سعيد طالبا النجدة ، ثم ينزل البحر هو ومن معه لينقذوهم ، ولكن الحجاج يزدادون غوصا فى الماء إلى أن يختفوا .

وتأتى الشرطة بعد أيام لسؤال الناجين ، وهم ميرزا سعيد وحماته وسرينيڤاس ومحمد دين . فيجمع الثلاثة الأخيرون على أنهم رأوا البحر ينفلق وأنهم شاهدوا الحجاج يعبرونه سائرين على قاعه . أما ميرزا سعيد فيؤكد أنهم بطبيعة الحال قد غرقوا . وتذكر الشرطة للثلاثة السابقين أن الجثث قد طفت على سطح الماء وقد انتفخت وأنتنت ، ولكنهم يؤكدون أنهم قد رأوا المعجزة بأنفسهم .

وهنا يكون تشامتشا قد عاد إلى بلاده ، ويقرأ فى الصحف عن مئات الجثث الطافية المنتنة لمسلمين أغرقهم الهنادكة تعصبا .

هذا ملخص القصة ، وهذه هى نهايتها ، وهى كما ترى نهاية مختلف حولها . فجميع الذين شهدوا الحجيج وهم ينزلون الماء ويتقدمون فيه ، ما عدا ميرزا سعيد ، يؤكدون أن البحر قد انشق لهم وأنهم عبروه إلى مكة المكرمة . والشرطة تقول إن مئات الجثث الطافية المنتنة قد انتشلت من البحر . إننا طبعا لانزعم أن البحر قد انشق لهم ، فهذا خروج عن قوانين الكون كما نعرفها ، لكن المشكلة ليست فى إمكان انشقاق البحر فى واقع الحياة أو عدم إمكان ذلك ، بل فى إمكان حدوث ذلك فى هذه الرواية ، وهى كما يعرف القارىء لها منطقها الخاص الذى

رأينا أنه يتسع لعناصر اللامعقول ، وينظر إليها على أنها أمر عاديّ . فليس انفلاق الماء فى القصة أمرا مستحيلا إذن ، وهو ليس أغرب من تحول رجل إلى جدى له قرون وأظلاف وشعر كثيف ، ويمشى على أربع . إن المؤلف هو الذى وضع نفسه فى هذا المأزق . صحيح أن الشرطة قد ذكرت أن مئات الجثث قد وُجدت طافية منتثة على سطح الماء ، بيد أن من الممكن الرد بأن الشرطة ، وهى هندوكية ، قد دفعها تعصبها إلى هذا الادعاء ، محاربة للمسلين وتحطيما لثقتهم فى دينهم وأوليائهم . فالنهاية غامضة مضطربة كما هو واضح ، ولا ندرى ماذا يريد المؤلف من ورائها .

وبالنسبة للقصة هل يمكننا القول إنها تصور الصراع بين النظرة الدينية العامية للكون وبين النظرة العلمية المادية : الأولى تمثلها عائشة والمؤمنون الذين تبعوها وصدّقوا أن البحر سينفلق لهم فعلا ليعبروه إلى الأرض الحجازية فيؤدوا شعائر الحج ويعودوا وقد شُفى المرض منهم ... إلخ ، والثانية يمثلها ميرزا سعيد أخطر ؟ لكن وضع المسألة على هذا النحو ليس سليما ، لأن الإيمان والتدين لا يستلزمان بطبيعتهما الاعتقاد فى الخرافات وانكسار قوانين الكون ، ولأن كثيرا من المتدينين يتمسكون بالنظرة العلمية إلى الطبيعة ونظامها ، الذى يعدونه مظهراً لإرادة الله سبحانه ، كما أن كثيرا من أصحاب النظرة

العلمية مؤمنون متدينون . كذلك فإن وضع المسألة على هذا النحو ليس عدلا ، إذ لا يُعقل أن نضع عوام المتدينين مقابل مثقفى الماديين ، بل كان ينبغى أن يوضع العوام من هنا مقابل العوام من هناك ، أو المثقفين من هذا الجانب مقابل المثقفين من ذاك . وحتى لو غضضنا الطرف عن هذا كله فإن الكاتب قد زاد المسألة اضطرابا وتعقيدا بجعل الفراشات تتبع الكاهنة عائشة أينما سارت وحيث حلت ، بل وتغطيها ، بل وتسير أمام أتباعها فى موكب الحج فى خطوط كأنها حبال تشدهم من آبار سحيقة ، إذ كيف يمكن تفسير ذلك إلا بأن الكاتب قد أضفى على تلك الفتاة مقدرة إعجازية من نوع ما ؟ ومع هذا فقد أخطأ الكاتب هنا أيضا ، إذ نسب إليها القول بأنها ترى جبريل وتتلقى منه الوحى . فلا أظن أحدا من عوام المسلمين من أمثال هذه الفتاة يبلغ به الزعم إلى هذا الحد ؟ إذن فقد اضطربت القضية فى يد الكاتب واختلطت خيوطها . وإذا كان كما هو الظاهر من سياق القصة ، يريد أن يقول إن التدين مهلك لأن صاحبه لا يستطيع فهم الكون ، فتسيره من ثم الخرافات والأوهام فإن المقدمات التى ساقها لا تؤدى إلى هذه النتيجة . لقد كذّب نفسه بنفسه .

ثم ما مغزى احتشاد الفراشات حول عائشة وتغطيتها لجسدها العادى ؟ ولماذا الفراشات بالذات ؟ هل هى ترمز إلى شىء ؟

لقد ألمع أحد من كتبوا عن « الآيات الشيطانية » إلى أن سلمان رشدى قد أخذ موضوع الفراشات عن جابرييل جارسيا ماركيز الروائى الكولومبى ، الذى تظهر مع إحدى الشخصيات فى قصة من قصصه فراشات صفراء [٤٨] فهل ينبغى أن نفهم من هذا أن سلمان رشدى قد أخذ هذه الأعجوبة من قصة الروائى الكولومبى ونقلها مقتطعة من سياقها ودون فهم لمغزاها ؟ لكن ما مغزاها فى قصة الكاتب الكولومبى ؟ إن الباحث لم يقل شيئا عن هذا . أياما تكن المسألة فإننى لم أفهم مغزى تجمع الفراشات حول عائشة وصنعها من نفسها رداء يكسو جسد هذه الفتاة .

كذلك لم أفهم السر فى تكرار الإشارة فى القصة إلى اشتهاء ميرزا سعيد أخطر لعائشة كلما نظر إليها ، حتى بعد أن ابيض شعرها ، وبعد أن تبلور موقفه منها وأصبح يراها خطرا داهما على زوجته المريضة بالسرطان [٤٩] ولا فى تعلق عثمان المنبوذ الذى دخل الإسلام بها .

---

(٤٨) انظر زهير حسين الهاشمى / وقفة نقدية مع المرتد سلمان رشدى / مجلة « العالم » اللندنية (بالعربية) / ص ٥٢

(٤٩) الرواية / ص ٢١٩ ، ٤٩٧ مثلا .

ثم ما السبب الذى جعل المؤلف يختار لتلك الفتاة اسم « عائشة » وهو إسم الإمبراطورة فى قصة الإمام التى يضمها هى والجزء الأول من قصة هذه الفتاة فصل واحد ؟ إن الإمبراطورة تمثل الوثنية والإباحية ، أما هذه الفتاة فإن المؤلف قد جعلها تمثل الإيمان والتدين ، فهما من ثم متنافرتان ، فلم سماهما باسم واحد إذن ؟ لقد سبق أن رجحنا أن يكون المؤلف قد اختار للإمبراطورة عدوّة الإمام (الخمينى) اسم « عائشة » لما يحمله الشيعة من عواطف غير طيبة تجاه عائشة زوجة النبى رضى الله عنها . والملاحظ أن الكاتب قد نصّ على أن عائشة الكاهنة الهندية فتاة عذراء [٥٠] ، وهما الصفتان اللتان تميزان عائشة عن بقية زوجات الرسول عليه السلام . كذلك فقد كانت هذه الفتاة مصابة بالصرع [٥١] ، وهى تهمة طالما اتهم بها المستشرقون ومن لف لفهم سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام . فهل يريد المؤلف الربط بينهما وبين الرسول ، وبخاصة أنها كما قال كانت تدعى الوحى ، وكذلك الربط أيضا بينهما وبين بعض أهل بيته ؟ ولكن لماذا ؟

ويلاحظ أن المؤلف فى هذه القصة أيضا قد أبرز الإشارة إلى الماء (وإن لم يكن بنفس القوة التى فى قصة « ماهوند »

(٥٠) ص / ٢٢٣

(٥١) نفس الصفحة .

وقصة الإمام) ، وذلك حين تحدث عن تحول عثمان المهرج المنبوذ إلى الإسلام واعترافه لعائشة بأنه تسمى باسم مسلم لكى يذوق الماء ، فإن المنبوذين محرّم عليهم استخراج الماء من البئر أو مجرد لمسه [٥٢] . ولكننى فى الواقع لا أستطيع أن أفهم مغزى هذه الإشارة . إن التقابل فى قصة « ماهوند » كان بين الماء رمز الطهارة ، والرمل رمز التحوله . وفى قصة الإمام كان بين الماء رمز التقشف ، والخمر رمز الترف والفساد والفجور . أما هنا فالتقابل بين الماء وماذا ؟ هل يريد الكاتب بهذا أن يربط بين القصص الثلاث ؟ لكنه رباط شكلى أيضا لا فن فيه ولامهارة .

ومثل هذا الربط بعداً عن الفن وحذقه الربط بين « ماهوند » و « الإمام » و « عائشة » الكاهنة الهندية عن طريق مقارنة علاقة كل منهم بجبريل بعضها ببعض ، إذ قال المؤلف إن الأمر فى حالة ماهوند يتم عن طريق الصراع مع جبريل (وقد رأيناهما وهما يتصارعان تصارعاً ينتهى بطرح ماهوند لجبريل أرضا والبروك فوقه) ، وفى حالة الإمام يتم عن طريق العبودية (هل يشير إلى أن الإمام قد ركب جبريل وطلب منه أن يحمله إلى بيت المقدس ، فكأنه استعبده ؟) . أما فى حالة عائشة فلا شئ .

---

(٥٢) ص / ٢٢٣

وهو كما ترى ربط مفتعل ، وفوق ذلك فهو تدخل مباشر من الراوى واستطراد من استطراداته الكثيرة .ثم ما الذى يهدف إليه من وراء هذه المقارنة ؟ وما الذى يجمع ، فى حالة الإتصال بجبريل (حتى لو سلمنا جدلا بأن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى يأتى بالوحى) ، بين هولاء الثلاثة ؟ إن مثل عائشة الكاهنة ، كما سبق القول ، لا يمكن أن تدعى الاتصال بجبريل ، وهو ما يصدق على الخمينى أيضا ، فلماذا إذن هذه المقارنة ؟

وثمة رابط مفتعل آخر بين قصة « عائشة » الكاهنة وقصة « ماهوند » ، وهو مسألة « المساومة » التى عرضها ميرزا سعيد أخطر على عائشة ، والتى فكرت فيها الفتاة وقتا ثم انتهى الأمر بها إلى الرفض [٥٣] إن هنا يذكرنا بالصفقة التى عرضا الجاهليون على ماهوند ، وهى الصفقة التى قبلها ، ثم عاد تحت تمرد بعض أتباعه وتنصل منها . ولعل المؤلف يرمى إلى أن عائشة أصلب مبدأ من ماهوند . كذلك يذكرنا هذا بالحل الوسط الذى اقترحته ريكا ميرشانت على جبريل ، حين قالت له إن كل ما هو مطلوب منه أن يزورها يوما فى الأسبوع وأن ينام معها ، وفى مقابل ذلك تخلصه من الفكرة المجنونة

---

(٥٣) ص / ٤٩٩

المسيطرة عليه (وهى أن يهدى مدينة لندن مما هى فيه من ضلال) فضلا عن أنها سوف تكون هادئة تماما معه ، وسوف يكون هو أعظم ممثل سينمائى فى العالم . وفى النهاية يرفض جبريل هو أيضا الحل الوسط [٥٤] .

وإلى جانب ما مرّ ، هناك أمر لا يمكن أن يصدقه عقل ، لا لأنه خارق للعادة ، بل لأنه لا يمكن أن يقع فى أى مجتمع إسلامى ، وهو رجم جموع المصلين للطفل اللقيط الذى وُجد على باب المسجد . إن المؤلف هنا يحاول تشويه الإسلام . إنه يريد أن يقول لقرائه من الأوربيين : انظروا إلى وحشية المسلمين ! إنهم يرجمون طفلا رضيعا بريئا لا حول له ولا طول ! وأين ؟ على باب المسجد . ومتى ؟ عقيب صلاة الجمعة ، كأنه يريد أن يلمز الصلاة فى الإسلام بأنها لا تلطّف المشاعر بل تبارك القسوة والفظاظة .

وفى هذه القصة أيضا يقابلنا نفس الموقف الذى رأينا عند تشامتشا ، موقف الكفر والإلحاد ، إن تشامتشا يعلن أنه لم يعد يتوكأ على عكاز الألوهية القديم ، وأنه لا يؤمن إلا بالجَلَد والنظام والعقل والسعى وراء كل ما هو نبيل [٥٥] ، كما أنه

---

(٥٤) ص / ٣٣٣ - ٣٣٥ (٥٥) ص / ٣٣٥

مغرم ببريطانيا غراما جارفا (وإن كان قد عاد إلى بلاده فى نهاية القصة) . وميرزا سعيد أخطر يؤكد لزوجته ولعائشة أن الله غير موجود وأنه لا يشفى من السرطان ، وإنما هم الأطباء فى أوروبا وأمريكا . وهو حين يضطر للمشاركة فى صلاة الجمعة مع جموع الحجيج يحس بالاشمئزاز من نفسه . وأظن أن هذا هو ما يريد الكاتب أن يقوله فى كتابه بقصصه الأربع ، ولكنه سلك إليه طريقا طويلا ومعقدا ، وأرهق نفسه وأرهقنا معه .

* * *



البذاءات والقاذورات فى الرواية [1]

المقصود بهذا العنوان هو ما يطلق عليه فى الإنجليزية « scatology » (وبالفرنسية « Scatologie ») ، وهى لفظة يونانية الأصل مركبة من مقطعين هما « Scato » ومعناه « الروث » و « Logy » بمعنى « علم أو دراسة » أى دراسة الأرواث والفضلات الحيوانية والبشرية . وهذه الكلمة هى فى الأصل مصطلح طبى يُقْصَد به تشخيص المرض عن طريق تحليل البراز ، ثم انتقلت إلى حقل الأدب والنقد للدلالة على الكتابات الأدبية التى تتخذ من الفضلات ، وبخاصة براز الإنسان ، والموضوعات الداعرة موضوعات لها ، وتستخدم ألفاظ الفحش والبذاءة وكل ما يصدم الذوق السليم [2] .

---

(١) لا بد أن أعتذر إلى القارئ من الآن مما سأضطر فى هذا الفصل إلى الخوض فيه ، مما لم أكن أتصور فى يوم من الأيام أن أدنو منه . ولكن ما باليد حيلة ، فنحن فى مجال دراسة وعلم . وقد قيل « لا حياء فى العلم » . وعلى كل حال فناقل الكفر ليس بكافر .

(٢) انظر مثلا J . A . Cuddon , A Dictionary of Literary Terms , Penguin . Books , 1980 . مادة « Scatology » ، وكذلك معجم Larousse Classique , Librairie Larousse , Paris مادة « Scatologie » .

وقد اختلفت المعاجم فى ترجمتها إلى العربية ، فبعضها ترجمها بـ « الاهتمام بالموضوعات الداعرة أو معالجتها وبخاصة فى الأدب » [٣] ، وبعضها بـ « علم المُبْرَزات » [٤] وبعضها ترجمها بـ « كتابة برازية » وشرحها بأنها « نوع من الأدب المتعلق بالبراز والغائط وبالموضوعات الداعرة إجمالا » [٥] ، وبعضها بـ « مزاح يستعمل البَراز فيه للتشبيه ولا سيما بَراز الإنسان » [٦] . وفى ترجمة العبارة الفرنسية : « Plaisanterie scatologique » يقول المعجم الأخير إنه « مزاح يتخلله ذكر البراز (مزاح بالخرة) » . ويمكن ، إذا أردنا نقل هذا المصطلح إلى اللغة العربية فى كلمة واحدة كما هو فى اللغات الأوربية التى تستخدمه ، أن نترجمه بـ « الخُرئية » ، بصيغة المصدر الصناعى ، كالواقعية والرومانسية والطبيعية والرمزية .... إلخ . وأنا حين أستعمل هذا اللفظ لا يغيب عن

---

(٣) منير البعلبكى / المورد - قاموس إنجليزى عربى .

(٤) إسماعيل مظهر / قاموس النهضة فى اللغتين الإنجليزية والعربية . ومن الواضح أنه يقصد معنى المصطلح فى ميدان الطب ، وأنه لم يتعرض لترجمته فى الاصطلاح الأدبى .

(٥) د . جبور عبد النور . و د . سهيل إدريس / معجم المنهل - قاموس فرنسى عربى ، وجروان السابق / الكنز الوسيط - قاموس فرنسى عربى .

(٦) إدوارد تركيا / Nouveau Dictionnaire - Francais Arabe .

بالى ما فيه من تقزيز ، بل إنى قصدته قصدا ليدل بإيحاءاته المنفّرة على ما يوحى به المصطلح الأدبى من التفشية ومصادمة الذوق العام بالبذاءات والعُرى والفحش وألفاظ العورات والفضلات وما إلى ذلك .

والحق أن هذه الرواية هى معرض حافل بشتى صنوف البذاءات والقاذورات . ولا أستطيع أن أذكر أننى قرأت طول حياتى رواية تضارعها فى هذا المجال أو حتى يمكن أن تُقْرن بها ولو من بعد بعيد .

ويزيد ما تعج به الرواية من بذاءات وعرى وفحش انحرافا وشذوذا أنها تعالج بين ما تعالجه موضوعا جليلا هو نبوة محمد عليه الصلاة والسلام . فهذا الموضوع ، كيفما كان موقف الكاتب الذى يعالجه ، ينبغى أن يُتناول بما يليق به من جلال الشأن ، فليست النبوة موضوعا هينا حتى تعالج وسط هذا الركام الحاشد من البذاءات والقاذورات التى من الواضح أن صاحبها لا يرى قداسة لشىء أو لأحد كائنا ما كان أو من كان . وليس النبى محمد عليه الصلاة والسلام ولا زوجاته الشريفات بالذى يليق أن يُصَوَّروا بذلك الأسلوب الذى صورهم به الكاتب ، بالغا ما بلغت كراهيته أو رغبته لسبب أو لآخر فى إظهار الكراهية للإسلام ونبيه . ما أسهل أن يقف أى سليط اللسان

وسط الشارع ويقذف كرام المارة بوابل من بذاءاته وفحش لغته ما دام قد أمن العقاب ! وما أيسر أن يطلق لسانه بكل غليظ من اللفظ وجارح من التعبير ! إن ثمة فرقا بين حرية التعبير والسباب . إننا مع حرية التعبير ، أما السباب وقذف المحصنات وبذاءات اللسان وعهره فهى أمور يعاقب عليها القانون ، وحق له ذلك .

و « الحرنيّة » فى هذه الرواية تتبدى فى عدة أشياء . ولنبدأ بألفاظ السباب المقذعة . إن الكاتب يسرف إسرافا شديدا فى إيراد كلمة « bastard : ابن زنا » ، سواء على لسانه هو (بوصفه الراوى) أو على لسان شخصياته . وهو فى سبابه هذا لا يبالى شخصية المسبوب ، فقد سب بهذه الكلمة أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، فقال : « وفى قديم الزمان قدم إبراهيم الشيخ إلى هذا الوادى ومعه هاجر وابنهما إسماعيل . وفى هذه الصحراء القحلة تركهما ومضى . ولما سألته زوجته : أيمكن أن تكون هذه إرادة الله ؟ أجابها : نعم ، هى كذلك . ثم غادر المكان .... ابن الز .... » [٧] كما سبَّ بها نفسَه جبريل فاريشتا (الذى يتحول فى بعض المواضع فى الرواية إلى الملاك جبريل) ، وذلك إذ يقول عن نفسه : « لو كنت أنا الإله

---

(٧) الرواية / ص ٩٥

لخلصت البشر تماما من الخيال ، وعندئذ فلربما استطاع أبناء الزنا من أمثالى أن ينعموا بنوم هانىء مريح »[8] ، وسب بها البشر ، عندما تحول إلى ملاك ، قائلا : « أولاد زوان . مجانين »[9] وتقول ياميلا تشامتشا (وهى بريطانية) عن الزنوج : أولاد الزانية الملاعين »[10] ويقولها الشاعر الجاهلى بعل عن المسلمين[11] . كما يقولها سلمان الفارسى عن نفسه[12] ، ومثله صلاح الدين تشامتشا ، الذى يصف نفسه قائلاً « : أنا ابن الحرام المسكين »[13] ، بل يصف بها أباه أيضا : « العجوز ابن الزانية »[14] .

والكاتب يلح على هذه اللفظة ويصف بها لا البشر وحدهم بل المعانى والأشياء أيضا ، فالذوق ابن زانية : « ابن الزانية هذا . أولاد الزوانى هؤلاء . تجردهم من الذوق ابن الزانية »[15] ، والجبل أيضا :« ذلك الجبل ابن الزانية »[16] . وكذلك الأسنان . تقول ميمى ميموليان (شريكة صلاح الدين تشامتشا فى البرنامج الإذاعى الذى كانا يقدمانه معا) إن قدمها قد زلقت فسقطت على ذقنها وتناثرت أسنانها على الرصيف ،

---

(٨) ص / ١٢٢ — (٩) ص / ٤٦٧ — (١٠) ص / ٢٨.

(١١) ص / ٣٥٩ — (١٢) ص / ٣٦٧ — (١٣) ص / ٥١١

(١٤) ص / ٥٢. — (١٥) ص / ١٣٧ — (١٦) ص / ١٩٨

« ولما أفقت وجدت أسناني مكومة بجوار وجهي . وعندما فتحت عيني وجدت أن بنات الزواني يحملقن فيّ . أليس ذلك شيئا لطيفا ؟ » [١٧] والذهاب : « في الواقع أن ابن الزانية يطير عموديا لفوق أو لتحت ، أو يتجه ألى هذا الجانب أو ذاك » [١٨] وبعد ، فهذه ليست إلا مجرد أمثلة ، وإلا فقد تكررت الكلمة أكثر من ذلك كثيراً .

وفي عدة مواضع من القصة تصك أعيننا كلمة « bitch : القحبة » ، فالألسنة ترددها ببساطة شديدة كبساطة التنفس . إن ميرزا سعيد أخطر يسب عائشة (الكاهنة الهندية) بقوله : « أيتها القحبة » [١٩] . أما هال ڤالانس أحد منتجي البرامج الإذاعية في الإذاعة البريطانية فإنه يشير إلى رئيسة الوزارة البريطانية الحالية السيدة مارجريت تاتشر بقوله : « ماجي القحبة » [٢٠] . كما ينعت بها جبريل فاريشتا حبيبته هللويا كون مرتين على الأقل [٢١] ، ويصف بها تشامتشا الطبيبة التي رفضت أن توصله بهاتف منزل أحد زملائها الأطباء [٢٢] .

ومثل هاتين الكلمتين في شذوذها ، بل أشد ، كلمة « bugyer : المأبون » ، التي تتردد في جنبات القصة وتتنادى بها الشخصيات أحيانا دونما أدنى حرج .

---

(١٧) ص / ٢٥٩ (١٨) ص / ٢٦٨ (١٩) ص / ٢٣٨

(٢٠) ص / ٢٦٩ (٢١) ص / ٥٤٥ (٢٢) ص / ٥٢٩

وثمة كلمة أخرى أكثر إقذاعا يسرف الكاتب فى إيرادها إسرافا أشد من إسرافه فى استعمال الكلمات السابقة ، وهى كلمة « Fucking » (أو صيغة الأمر منها) ، وهى تقابل الكلمة الشائعة فى العامية بمعنى « يجامع » . وهذه القصة لا يرددها فى بريطانيا إلا أوباش الإنجليز وسفلتهم . ومع ذلك فإن قارىء الرواية يشعر كما لو أن شخصياتها قد دخلوا فى مباراة حامية للفوز بلقب « أكثر المرددين لكلمة « Fucking » فلا تحرج ولا تردد إلا إحساس بما فى الكلمة من عرى جارح وإيحاءات غليظة بذيئة ، بل بالعكس تلذذ عارم بنطقها وإدخالها فى عبارات من كل نوع وداخل أى سياق وأمام أى شخص وفى أى موقف .

وكثيرا ما تتكرر هذه اللفظة عدة مرات فى الصفحة الواحدة ، كما حدث فى ص / ٢٦٨ على سبيل المثال : a fucking «tank» ، « fucking pee aich dee » ، « fucking «Argentina» ، « my fucking life » ، « the fucking «nation» ، « this fucking country » ويمكن ترجمتها على الترتيب إلى : « الدبابة المنيو »[٢٣] ، و « الدكتوراه المنيو ...» ، و « الأرجنتين المنيو....» ، و « حياتى المنيو ... » ،

---

(٢٣) تحول اسم الفاعل فى الأصل الإنجليزى إلى اسم مفعول فى الترجمة جريا على الأسلوب العامى عندنا فى السباب .

و « الأمة المنيو ....» ، و « هذا البلد المنيو ...» ، وكما حدث فى ص /٢٧. ، إذ وردت فيها هذه العبارات : «Fucking Surry and Hampshire »[٢٤] ، و « a whole fucking class » : طبقة منيو ... بالكامل » ، و « Fucking old corpses : جثث قديمة منيو .... » .

ولا تجد البنت حرجا فى أن تقول لأمها : « fuck off »[٢٥] ومعناها بعد التخفيف والتشذيب : « اغربى عن وجهى » . أما معناه بالضبط فلا يقال بحال ، كذلك لا يحس جبريل فاريشتا (فى حالته الملائكية) أية معابة فى أن يقول ردا على اقتراح حمزة على الرسول عليه السلام أن يذهب إلى جبريل ويسأله رأيه فى العرض الذى اقترحه عليه أهل مكة بخصوص التساهل فى مبدأ الوحدانية وقبول اللات والعزّى ومناة : « What the fuck do I know »[٢٦] ، ومعناها إجمالا : « وكيف لى بأن أعرف ؟ » . ولا أدرى كيف يمكن نقل كلمة « the fuck » إلى اللغة العربية فى هذا السياق . ولكن إذا أردنا التقريب ، والتقريب فقط ، فلربما أمكن نقل شئ من نظاظتها إذا قلنا إن جبريل قد قال ذلك مع شخرة من أنفه

---

(٢٤) سارى وهامبشير موضعان فى بريطانيا .

(٢٥) الرواية / ص ٢٧١ (٢٦) ص / ١٠٩

وتحريكه إصبعه الوسطى مزيده اليمنى تحريكة معينة . ويقول بعمل الشاعر الجاهلى عن خالد وسلمان وبلال : those fucking » clowns«[٢٧] ، أى « هؤلاء البهلوانات الـ ... » . وكثيرا ما تدخل هذه الكلمة الفاجرة على لفظتى « الأم » و « الأخت » مثل : The mother fucking Americans : الأمريكيون الذين ينيـ ... أمهاتهم »[٢٨] ، و Mother fucking » : sparks : شرر ينيـ ... أمه »[٢٩] ، و Mother fucking » : dreams : أحلام تنيـ ... أمها »[٣٠] ، و The sister » : fucking British البريطانيون الذين ينيـ ... أخواتهم »[٣١] .

ولا يقتصر استعمال هذه الكلمة على وصف البشر ، بل توصف بها الأشياء أيضا ، مثل « a fucking hell hole : هاوية الجحيم المنيو ... »[٣٢] ، و « fucking wings : الأجنحة المنيو ... »[٣٣] ، و « the fucking bedpan : قصرية السرير المنيو ... »[٣٤] ، و « his fucking super- man costume : بدلة الإنسان الأعلى المنيو ... »[٣٥] ،

---

(٢٧) ص / ١٠١ (٢٨) ص / ٨٠ (٢٩) ص / ٨٥
(٣٠) ص / ١٢٢ (٣١) ص / ٨٠ (٣٢) ص / ١٨٠
(٣٣) ص / ١٧٨ (٣٤) ص / ١٦٩ (٣٥) ص / ١٧٩

وكذلك الحيوانات : « the fucking beetles : الخنافس المنيو ... » [٣٦] « the fucking dog : الكلب المنيو ... » [٣٧].

ولا تُستعمل هذه الكلمة نعتا فقط بل ظرفا أيضا ، وذلك كما فى المثال التالى الذى تقول فيه إحدى شخصيات القصة عن السيدة تاتشر : what she actually thinks she can fucking achieve : فى الواقع أن ما تفكر فيه يمكنها تماما أن تنجزه » [٣٨] . وهو بطبيعة الحال لم يستخدم كلمة « تماما » بل استخدم كلمة « fucking » ، التى إذا شذبت وجُرّدت عما فيها من فحش بذئ أعطتنا شيئا قريبا من معنى « تماما » . ولتقريب هذا المعنى فإنى أحيل على بعض تعبيراتنا العامية الفاحشة التى تدل مع ذلك على الإعجاب مثلا ، مثل : « دا واد ذكى وابن قحـ ... » .

وهذا غير استعمالها فعلا عاديًا عاريا ، مثل قول أبى سمبل (الذى يقوم بدور أبى سفيان) لبعل الشاعر الجاهلى : « إننى أعرف أنك تنيـ ... زوجتى » [٣٩] ، و « إن النساء البيض فى نظر الأولاد من أمثال بطوطة قد خُلقن لينيـ ... هن الإنسان ثم يلقى بهن بعيدا » [٤٠] ، و « ألا يمارس الرجال

---

(٣٦) ص / ١٦٣ (٣٧) ص / ٤١٠. (٣٨) ص / ٢٧٠.
(٣٩) ص / ١٠٠ (٤٠) ص / ٢٦١

الأتقياء أبدا النيـ ... ؟ » [41] ، وقول بعل : « لم يكن للجاهليين من حديث قبل مجئ ماهوند إليهم إلا النيـ ... والفلوس » [42] ، وقول سلمان : « إن الله قد أباح لماهوند أن ينيـ ... من النساء ما يشاء » [43] .

وحتى عندما يحاول سيضوديا (الذى يعانى من حبسة فى لسانه) أن ينطق كلمة « function » نراه (بدلا من أن يتعثر لسانه عند المقطع الأول كعادته ويقول « fun » عدة مرات قبل أن تنطلق حبسته وينطق الكلمة كلها) يقول فى البداية : « fufu » ثم يثنى قائلا : « fuck » قبل أن يستقيم بالكلمة لسانه . وكى يتأكد لديك أن الكاتب قد أراد البذاءة عن عمد وسبق إصرار أنه لم يكتف بـ « fuc » ، بل أضاف حرف « k » ، الذى لا وجود له فى « function » [44] .

وكأن كل لفظة من اللفظتين البذيئتين السابقتين غير كافية وحدها نرى الكاتب يجمع بينهما ، وذلك فى وصف رجل غريب كان يقف فى أحد المحلات التى تبيع الآلات الموسيقية : « ابن الزانية المنيو ... » [45] .

---

(٤١) ص / ٢٧٨ (٤٢) ص / ٣٨٠ (٤٣) ص / ٢٨٦
(٤٤) ص / ٤٢١ (٤٥) ص / ٤٤٨

وفى أكثر من موضع نرى إحدى شخصيات القصة تبدئ وتعيد فى هذه الكلمة فى الموقف الواحد ، بل فى الجملة الواحدة كما فى المثال الآتى [٤٦] : you can go fuck yourselves , fucking cunts ... fucking shit ... Are you fucking enjoying your fucking shit dinner ? » .

ويلاحظ القارئ أن المؤلف يكثر من ذكر الخرء وأكله والبول والفساء والبلغم والمخاط ... إلخ على نحو مرضى يدل على أن نفسيته لا تهش لطهر أو جمال ، بل هى مغرمة بالقبح والعفن والنتن غراما شاذا . فصلاح الدين تشامتشا ، بعد أن تحول إلى جدى بشرى وبعد أن ضربه رجال الشرطة ضربا مبرحا وركلوه فى بطنه وجنبيه ركلا أليما ، يفيق فى المستشفى عل سائل أخضر لزج يخرج من رئتيه [٤٧] . ليس ذلك فقط ، بل إن ذوقه الغليظ ليجعل صلاح الدين تشامتشا يرى فى المنام نفسه هو والمرضة ، حين تركبه وهو ممدّد على السرير لتخلص رئتيه من ذلك السائل المخاطى ، حبيبين يمارسان الجنس فى اغتلام عنيف [٤٨] فتأمل هذا الربط الشاذ بين الإفراز الرئوى المخاطى وقمة

---

(٤٦) ص / ٤٤١

(٤٧) ص / ١٦٥ . وقد تكررت هذه الإشارة . انظر مثلا ص / ١٧٠.

(٤٨) ص / ٢٥٥

النشوة الجنسية ! وفى موضع آخر يذكر أن والد تشامتشا فى مرضه الذى مات فيه قد تقايأ ملء كوب كبير من البلغم المخلوط بالدم [٤٩] .

وباميلا زوجة تشامتشا تذكر أن فريقا من الناس قد خلعوا ملابسهم وأخذوا يحتسون البول من الخوذ [٥٠] . ولم يكن هذا عن شدة عطش لعدم الماء ، بل هو خيال الكاتب السقيم . ومثله قول الراوى إن جبريل فاريشتا قد ذهب إلى مرحاض الطائرة ليتبول فى إحدى عشرة دقيقة (يقصد عملية التبول نفسها وليس الذهاب إلى المرحاض) [٥١] إننى أشم هنا رائحة استمتاع بإطالة أمد التبول هذه الدقائق الطويلة ، كأن طول مدة التبول معناه طول مدة حضور لفظه فى فم الكاتب ، وحضور معناه فى عقله ووجدانه ، وحضور طعمه فى لسانه ، وإلا فما معنى تحديده بإحدى عشرة دقيقة ، بل لماذا الغرام بالوقوف عند التبول أصلا ؟ كذلك هل يمكن لإنسان سوى يريد أن يقول : إن الطائرة كانت تسلط أضواءها على الملهى الليلى أن يعبر عن ذلك بهذه الطريقة : A helicopter hovers over the nightclub urinating light in long golden streans : كانت هناك طائرة عمودية تحوم فوق الملهى الليلى تتبول ضوءا

---

(٤٩) ص / ٥٣. (٥٠) ص / ٢٨. (٥١) ص / ٨٢

فى دلقات ذهبية اللون طويلة » [٥٢] ، أو يتخيل طائرة مختطفة ينتظر ركابها بفارغ الصبر أن يطلق سراحهم على أنها ذكر معدنى وركابها حيوانات منوية تنتظر القذف [٥٣] ، أو يصف بذاءة بعض معاكسى الهاتف بقوله : « الفجاجة الاستمنائية للمعاكسين الآخرين » [٥٤] ؛ كذلك فإن ميمى ميموليان تقول لتشامتشا : « إنك برغم (الخرا) الذى تتلفظ به ربما كنت مهتما بى قليلا » [٥٥] .

ونرى رجال الشرطة الإنجليز يجبرون صلاح الدين تشامتشا (وكان قد تحول إلى مانيتكود ، أو جدى بشرى) على أن يلعق زبله . ونترك للكاتب حبل الكلام : « سبّه شتاين وهو يوجه إليه فيضا من الركلات صائحا : « حيوان » . واشترك معه برونو فى الركل قائلا : « إنكم جميعا واحد . إنك لا تنتظر من الحيوانات أن تراعى فى سلوكها مقتضيات الذوق المهذب . أليس كذلك ؟ والتقط نوفال حبل الكلام فقال : « إننا نتحدث عن مراعاة النظافة والصحة هنا أيها الوغد القذر » [٥٦] .

---

(٥٢) ص / ٤٥٤ (٥٣) ص / ٤١ (٥٤) ص / ٤٤٤

(٥٥) ص / ٢٦١ . ونص الكلام هو : « behind all your bullshit » والمقصود « رغم كل ما تقوله من كلام فارغ » .

(٥٦) حورت هنا فى ترجمة العبارة . فالأصل الإنجليزى هو :
« We're talking about fucking personal higiene here , you little fuck » .

وانتابت تشامتشا دهشة شديدة . ثم لاحظ أن عددا كبيرا من كريات طرية قد فرشت أرض سيارة الشرطة [1] ، وشعر بالمرارة والخجل يكادان يقضيان عليه . وبدا أن طريقة قضاء حاجته قد أصبحت كطريقة الجدى الآن . يا للعار والمذلة ! إن مثل هذا الإذلال قد يكون مقبولا لدى بلطجية القرى من سيلهات أو محلات إصلاح الدرجات فى چورچا نوالا ، أما هو فمن طينة أخرى !

. . . .

وعاد الضابط شتاين ، الذى بدا أنه رئيس الثلاثة ... إلى موضوع النفايات المكورة التى تتدحرج هنا وهناك فى أرضية السيارة المنطلقة ، موجها كلامه إلى تشامتشا : « هنا فى هذه البلاد يقوم كل واحد بتنظيف ما أحدث من قذارة » . ثم ... أجبره رجال الشرطة على الركوع ، وقال له نوفاك : « والآن ، نظف الأرضية » . ووضع چو برونو يده الكبيرة خلف رقبة تشامتشا ، وضغط رأسه إلى أسفل نحو أرضية السيارة المفروشة بالزبل ، قائلا له كأنه يسامره : « والآن ، ابدأ . واعلم أنك إذا بدأت التنظيف فى الحال فسوف تنتهى منه سريعا » .

---

(٥٧) سيارة ثان .

وفى تلك الأثناء كان تشامتشا يتلوى فوق طعامه من الغثيان تلويا ، باذلاً أقصى جهده لكيلا يتقايأ ، إذ كان يعرف أن مثل هذه الغلطة لو وقعت فسوف يطول عذابه . وأخذ يزحف على أربع فى أرجاء السيارة يلتقط الزبل ، الذى كان يعذبه وهو يتتبعه فى تدحرجه من هذا الجانب إلى ذاك » [٥٨] .

ومع ذلك فلم يعد الأمر بعد قليل يثير لديه أى شعور بالغثيان : « وحتى كريات الزبل لم تعد تهيج معدته ، التى كانت قد تعودت على ذلك » [٥٩] .

وفى موضع آخر من الرواية نرى رئيس الساقاك السابق يترك لأحد معارفه بطاقة مكتوبا عليها : « وهو كذلك يا آكل (الخرا) ، يا من تنيـ ... امرأتى » [٦٠] . وفى ص/٤٦١ نجد الجدران كأنها تخاطب ساكنها قائلة : « أيها الزنجى ، كل (خرا) الرجل الأبيض » . ويقول الكاتب عن هند (زعيمة معسكر الجاهلية بعد دخول زوجها أبى سمبل فى الإسلام) إنها حبست نفسها فى برج عال من القصر لمدة عامين وشهرين تدرس فيها كتب السحر فى السر . وكل ما كانت تطلبه هو أن يتركوا لها مرة واحدة فى اليوم طبقا من الطعام وأن يفرغوا فى

---

(٥٨) ص / ١٥٩ - ١٦١

(٥٩) ص / ١٦١

(٦٠) ص / ٢٠٧

نفس الوقت القصرية التى تقضى فيها حاجتها »[٦١] فانظر هذا الربط بين الأكل وبين البول والبراز ، وفى حالة سيدة هى زعيمة قومها ! إن هذا الربط يدل على شذوذ فى الذوق والطبع .

وهو يجرى تعبير « السنوات (الخرا) »[٦٢] على لسان أحد المرتدين عن الإسلام ، إشارة إلى السنوات التى قضاها مسلما لا يشرب الخمر . كما وصف بهذه اللفظة المقززة الطعام أكثر من مرة . يقول أحد الشبان الإنجليز المشاغبين للجرسون الهندى : « إننا لن نأكل هذا (الخرا) »[٦٣] ، ثم يوجه الكلام إلى صلاح الدين تشامتشا وجبريل فاريشتا (فى نفس المطعم) : « هل تجدان طعامكما لذيذا ؟ إنه (خرا) منير .. »[٦٤] . أما فى ص/٤٠٥ فقد بلغ شذوذ الذوق لدى المؤلف الغاية ، إذ يقول رجال الشرطة الهنود لسأداباش ، الذى أكدّ أنه رأى البحر ينفلق أمام عائشة الكاهنة الهندية والحجيج ورآهم يسيرون على قاعه الجاف حتى عبروه آمنين مطمئنين : « دعك من هذا (الخرا) الذى يقذف به فمك »[٦٥] .

---

(٦١) ص / ٣٩٢
(٦٢) ص / ٣٨٥
(٦٣) ص / ٤٤١
(٦٤) نفس الصفحة .
(٦٥) ص / ٤٠٥ . والترجمة الحرفية : « لا تخر من فمك » .

ليس ذلك فقط ، بل إن جامبى جوفى عشيق پاميلا زوجة تشامتشا يصف بهذه الكلمة الدكتور سمبا أحد زعماء الملونين فى بريطانيا ، فيقول : « إن حياته الشخصية (خرا) » [(٦٦)] . ومن ثم فلا أعجب أن نرى الناس يلقون بالبراز على أحد الضباط [(٦٧)] . فإن إلقاء الخرء على شخص ما لا يساوى على كل حال شيئا بالقياس إلى أكله أو إفرازه من الفم .

وفى الفصل الأخير من الرواية خصص الكاتب عدة صفحات لوصف الحالة المرضية لوالد صلاح الدين تشامتشا والتطورات التى كانت تطرأ عليه أولا بأول ، مثل الإسهال ، الذى يصفه بقوله : « وبعد ساعة ابتدأ الإسهال : سائل رفيع أسود » [(٦٨)] والذى يقول المريض نفسه عنه : « (الخرا) الأسود شئ سئ » [(٦٩)] .

وكما يكثر الكاتب من ذكر البراز على نحو مرضى شاذ يتكرر لفظ الفساء عنده بلا أدنى داع سوى أنه فيما يبدو يتلذذ بتقليب هذا اللفظ على لسانه وإدارته فى فمه كأنه يمص

---

(٦٦) ص / ٤١٢ . والترجمة الحرفية هى : « إن الرجل فى حياته الشخصية قطعة من الخرء » . وانظر أيضا ص / ٣٦. حيث وردت نفس العبارة فى وصف بيلى بطوطة : « تلك القطعة من الخرء التى لا تساوى شيئا » .

(٦٧) ص / ٤٤٩ (٦٨) ص / ٥٢٩ (٦٩) نفس الصفحة .

قطعة من السكر . إنها نوع من الحكة .. الحكة النفسية التى لا يستريح صاحبها إلا إذا خرج على الذوق الطبيعى السليم وأثار فيمن حوله مشاعر الاشمئزاز والتقزز ، وعندئذ تهدأ آلام الحكة قليلا لتعود فتهيج أقوى مما كانت . وهكذا دواليك فى هذه الدورة الجهنمية . وعلى سبيل المثال نذكر شكوى أحد الهنود الذى تحول إلى نمر من أنه فى كل ليلة يجد أن شيئا فيه قد تغير . « ومن ذلك أننى أصبحت أخرج ريحا بلا توقف » (٧٠) وإذا كان هذا النمر البشرى يفسو دائما فإن جبريل فاريشتا الممثل الهندى المشهور « كان يحب أن يفسو » ، وهو سلوك بذئ كانت تضيق به عشيقته (٧١) ، وهو لا يخجل أن يقول عن امرأة (٧٢) إنها « أطلقت أيضا رائحة ذات قدرة على إثارة الغثيان تجعله يتقايأ لولا أن معدته كانت خالية من أى أثر للطعام أو الشراب » (٧٣) ويزيد الأمر وقاحة محاولة المؤلف التظرف والظهور بمظهر من يعمل على أن يخفف من وقع ما أتته هذه المرأة ، وذلك بالدوران حول المعنى المباشر وعدم ذكر الفساء صراحة ، على حين أنه بهذا التظرف (الذى اتخذ شكل اللجوء

---

(٧٠) ص / ١٦٨ (٧١) ص / ٣١٠ .

(٧٢) هى ريكا ميرشانت

(٧٣) ص / ٣٢٥ - ٣٢٦ . وضمير المذكر فى الكلام يعود على جبريل .

إلى عبارة طويلة) قد أطال الوقوف عند الأمر مبرزا إياه بذلك بل ومجسما له تجسيما .

وكأن الفساء البشرى العادى لا يملأ عينيه (أو بالأحرى منخريه) فنراه يقول عن ميرزا سعيد إنه « فى آخر ليلة من عمره سمع ضجة تشبه تحطم أشجار غابة تحت قدمى عملاق ، وشم نتانة كأنها فساء عملاق » (٧٤) .

وتصل وقاحته أقصاها عندما يظن أنه يمكن أن يتهكم بالإسلام بقوله : « وبين نخيل الواحة ظهر جبريل للنبى ووجد نفسه يتدفق بقواعد ، قواعد ، قواعد ، إلى أن أصبح المسلمون عاجزين عن أن يحتملوا تصور نزول وحى جديد .. قواعد تنظم كل شئ ، لعنة الله على كل شئ . على سبيل المثال إذا فسا إنسان فليُيمم وجهه نحو الريح » (٧٥) .

وكثيرا ما يقابل القارئ هذه العبارة : « وتعرت (فلانة) تماما » أو « وأصبحت عارية كما ولدتها أمها » ، وهكذا ، كقوله عن إحدى مختطفى الطائرة الهندية إنها خرجت من قمرة القيادة وخلعت ملابسها فأصبحت عارية كما ولدتها أمها ، وذلك لتريهم الأسلحة التى كانت تخبئها حول جسدها (٧٦) ،

---

(٧٤) ص / ٥٠٦ (٧٥) ص / ٣٦٣ (٧٦) ص / ٨١

وكقوله عن أللويا كون إن كل من كان معها من الفتيات قد خلعن ملابسهن وأصبحن عرايا ، ثم أخذن يرقصن (٧٧) . ومع ذلك فإن القارئ لا يجد لشئ من هذا صدى فى نفسه . فالقصة جافة ، وجوها الشاذ وذوق كاتبها المنحرف لا يسمحان بشئ من هذا . ولست أقصد أنه كان يسرنى أن تثير القصة غرائز القراء وتهيج شهواتهم ، وإن كان الطبيعى أن تثور غرائز القارئ لمثل هذه الأوصاف لو تمت فى جو طبيعى . ثم إن الكاتب ، كما لاحظت ، مشغوف بالعرى من أجل العرى . بل إنى أحس أنه يعانى من نقص فى الرجولة ، ومن هنا غرامه بوصف أعضاء الرجل أكثر من التفاته إلى أعضاء المرأة . فأبو سمبل زعيم الجاهليين يقول لبعل الشاعر الذى كان يهجو الرسول عليه السلام والمسلمين والذى كان أبو سمبل يعلم بحقيقة علاقته بزوجته هند : « أيها القَوَّاد الجعجاع ذا الخصيتين الصغيرتين » (٧٨) ، وكقول إحدى المومسات للشاعر بعل ، الذى كان مختبئا فى الماخور ويشتغل قوادا لها ولزميلاتها : « ياللهول ! إنهم لو سمعوك

---

(٧٧) ص / ١٩٨ . وانظر أيضا ص / ٢٢٥ حيث يقول إن عائشة (الكاهنة الهندية) أصبحت عارية تماما ، وص / ٣١٧ حيث يوصف برونيل بأنه أضحى عاريا كما ولدته أمه ، وص / ٣٧٣ حيث أنها تتجمع عارية سوداء ، وكذلك ص / ١٨٧ ، ٢٢٦ ، ٣١١ ، ٤٠٩ ، ٤٣٨ ، ٥١٧ ... إلخ .

(٧٨) ص / ١٠٠ .

تقول هذا فسوف يطبخون بيوضك لي الزبد » [٧٩] ، وفي موضع آخر نجد بعلا أيضا وقد أمسكه عمر من أعضائه التناسلية وأخذ يعصرها [٨٠] . وفي سيارة الشرطة نرى صلاح الدين تشامتشا ، بعد أن تحول إلى جدي بشري ، وقد بوغت بذكره ، الذي تضخم ضخامة مهولة وانتصب بطريقة محرجة حتى إنه وجد من الصعوبة بمكان أن يعترف بأنه ذكره ، فيتهكم به أحد الضباط قائلا وهو يعبث به ويقرصه : « ما هذا إذن » [٨١] وهذا المنظر قد تكرر بعد أكثر من مائة صفحة ، وذلك عندما لاحظ تشامتشا (وكان لا يزال جديا) شيئا هائلا منتصبا بين فخذيه [٨٢] .

ومع ذلك فإن الكاتب في موضع آخر يحاول أن يتطرف متظاهراً برقة الذوق وحرصه على ألا يخدش حياء أحد ، فنراه (بعد أن يذكر أن قرنَيْ صلاح الدين تشامتشا قد صغرا) يقول : « ونزولا على مقتضيات الدقة المتناهية ينبغي على الإنسان أن يضيف أن شيئا في داخل جسمه الذي تحول (إلى جسم جدي) ... (ولا داعي لمصادمة الذوق السليم الذي عندنا أن نصرح بتفاصيل أكثر من هذا) شيئا آخر (ولنقف

---

(٧٩) ص / ٣٨٠

(٨٠) ص / ٣٨٩

(٨١) ص / ١٥٧

(٨٢) ص /٢٩١

عند هذا الحد) قد صغر أيضا قليلا » [٨٣] على أن حالة التطرف هذه لم تستمر ، فإن الحكة النفسية لديه لا ترحمه . وعلى هذا فهو يعود إلى فظاظته وشذوذه بكل ما فى طبيعته المريضة من عنفوان لا يفلح معه استخدامه للتوريات أحيانا ، فيقول بعد صفحات قلائل مشيرا إلى عضو الذكورة عند تشامتشا : « إبهامه السفلى » [٨٤] ، وذلك للتفرقة بينه وبين إبهامه العلوى (أى الإبهام الحقيقى) الذى كان يدخل دائما البيت فى تلك الفترة وقد وضعه فى فمه وأخذ يقرض الجلد الذى حول ظفره . وحتى عندما يموت أبو تشامتشا بالسرطان ويأخذ الحنوطى فى تغسيله يسترجع تشامتشا المرة الوحيدة الأخرى التي رأى فيها والده عاريا ، وذلك حين كان فى التاسعة من عمره عندما دخل على والده الحمام خطأ وهو يستحم ، فصدمه منظر ذكره الضخم صدمة لا تنسى ، إذ كان ذكر أبيه مدمجا غليظا كالهراوة ، أما ذكره هو فقد كان ضئيلا تافها [٨٥] فهل بعد هذا شذوذ ؟ وهل يمكن لإنسان فى لحظات الموت هذه (وموت من ؟ موت أبيه !) أن ينحرف ذهنه إلى

---

(٨٣) ص / ٢٧٣ (٨٤) ص / ٢٧٨

(٨٥) ص/٥٣٢ . ولا يستغرب القارئ ذلك ، فإن تشامتشا هذا هو نفسه الذى يقول فى خاطره لأبيه وهو فى مرض الموت ذاك : « الأحمق المنبو ... » ص / ٥٢٦

مثل هذه الخواطر الغريبة إلا أن يكون إنسانا مريضا تنز نفسه وعقله وضميره قياحا وصديدا متعفنا ، ولا حرمة عنده لشئ أو شخص أو قيمة ، ولا إحساس لديه بما يليق وما لا يليق ؟

وأخيرا نسوق هذه الصورة التى لا ندرى كيف واتت الكاتب وبخاصة أنها تجمع إلى شذوذها كونها غير ممكنة . إن صلاح الدين تشامتشا يغلى بالغضب من حنيف چونسون زير النساء ، ولا يستبعد أنه يحصى غزواته الجنسية عن طريق حزوز يحدثها على طول قضيبه [٨٦] .

أما عضو الأنوثة فإنه يشير إليه بقوله : « موضع الحب المثلث الشكل الطرى الملمس » [٨٧] . وفى موضع آخر من الرواية تقابلنا هذه العبارة : « فحوص لداخل المهبل » [٨٨] . ووجه الشذوذ فى الأمر أن هذه الفكرة لم ترد فى سياق طبى مثلا ، بل هى حلقة فى سلسلة الذكريات التى تدفقت كيفما اتفق على ذهن چامبى چوشى أثناء حديثه مع فتاة هندية (تعيش فى لندن) . فانظر كيف لا يخطر للذهن ، من بين آلاف الذكريات والأفكار والتصورات ، إلا هذه الذكرى وأمثالها ، إنه انحراف فى الذهن والذوق والخيال ! وفى موضع ثالث

---

(٨٦) ص / ٢٨٠ - ٢٨١

(٨٧) ص / ٤٣٩ (٨٨) ص / ٢٥٢

يتحفنا الكاتب بهذه الصورة التى لا أظنها خطرت لأحد من قبل لقد سيق صلاح الدين تشامتشا ، بعد تحوله إلى جدى بشرى (مانتيكور) إلى مستشفى يعج برجال ونساء قد تحولوا مثله إلى حيوانات وطيور وحشرات من كل لون : ثيران وجاموس وقرود وزرافات وببغاوات .. إلخ » ثم تناهى إليه من اتجاه آخر صوت امرأة تضعو كالخنزير وتصرخ مما بدا له أنه لحظات المخاض الأخيرة . ثم تبع ذلك مواء طفل وليد . ومع ذلك فإن صرخات المرأة لم تخفت حين بدأ صراخ الطفل ، بل بالعكس تضاعفت حدتها . وبعد خمس عشرة دقيقة أو نحو ذلك استطاع تشامتشا أن يميز صوت طفل ثان قد انضم إلى الأول . وبرغم ذلك لم يبد لآلام مخاض المرأة من نهاية ، بل أخذت المرأة على مدى منى . بدا بلا انتهاء تضيف كل ربع أو نصف ساعة مولودا جديدا إلى الأعداد التى لا حصر لها والتى كانت تتدفق كالجيوش الجرارة من رحمها » (٨٩) . هل يمكن لخيالك أن يصمد أمام هذه الصورة بدون أن يصيبه القئ ؟ إن هذه الصورة العجيبة الشاذة لا معنى لها ولا مغزى وراءها ولا ترمز إلى أى شئ (٩٠) . وهى ككل ما فى الرواية من انحرافات وشذوذ

---

(٨٩) ص / ١٦٦

(٩٠) هذا الشغف السيكوباتى بالأعضاء التناسلية (وبخاصة عضو الرجل) يورد على ذهنى تلك الطوائف البشرية التى تعبد هذه الأعضاء .

وبذاءة وقاذورات ليست إلا إفراز عقل وخيال غير سويين . إن الكاتب كثيرا ما يخرج عن موضوعه مستطردا إلى هذه التفصيلات المقززة التى لا تضيف إلى روايته شيئا ، ومن ثم فلو حذفت فلربما أصبح لروايته بعض الشكل الفنى .

وما دمنا بصدد الحديث عن عورات الجسم فإليك مثالا آخر من هوس المؤلف بتعرية هذه العورات دونما هدف فنى أو إنسانى اللهم إلا الاستطراد الذى تدفعه إليه « الحكة النفسية » التى سلفت الإشارة إليها . إن صلاح الدين تشامتشا يوقف سيارة أجرة ويركبها ، فيوجه السائق الحديث إليه على الفور على النحو التالى : « اركب يا سيدى هل يضايقك المذياع ؟ إن المتحدث هو أحد العلماء الذى كان على الطائرة المختطفة ، وقد فقد نصف لسانه . إنه أمريكي . وهو يقول إنهم قد وصلوه بقطعة من اللحم أخذوها من مؤخرته ... إننى أنا نفسى لا أستطيع أن أتخيل قضمة من لحم عجيزتى نفسها ، ولكن الخو ... [٩١] المسكين لم يكن أمامه أى خيار . أليس كذلك ؟ ياله من ابن زانية ! كم هو مضحك » .

وكان يوجين دامز داى [٩٢] يتحدث فى المذياع عن الثغرات الموجودة فى سجل الحفريات ، بلسانه العجيزى الجديد » [٩٣] .

---

(٩١) أى « المأبون » .   (٩٢) اسم العالم الأمريكى الذى قطع لسانه

(٩٣) ص / ٤١٨

وهذا الكلام ليس له أية علاقة بما قبله أو بما بعده ، بل لايضيف للرواية شيئا . إنها مجرد خيالات هلوسية بذيئة عنّت للكاتب وهو ممسك بقلمه فأدخلها فى رواية من غير أدنى تفكير أو مقاومة ، وذلك بإلحاح من انحراف ذهنه نحو الربط المرضى بين الطعام والبراز ، بين الفم والدبر ، بين اللسان والعجيزة [٩٤] ولا أظن أنه فات القارئ تكرير المؤلف لفكرة وصل اللسان بقطعة من لحم العجيزة ، مع أن المسألة لم تكن تحتاج إلى هذا التكرار ، بل لم يكن لها لزوم من البداية أصلا ثم إنه لم يكتف بهذا كله ، فاشتق نعتا من كلمة « buttock » هو « buttocky : عجيزىّ » ، الذى لا أذكر أننى قابلته من قبل فى أى مكان .

ونفس اللذة فى تكرير ذلك اللفظ نجدها فى تكريره للكلمة التى تستعملها العامية بدلا من « العجيزة » ، وهى كلمة

---

(٩٤) وجدت هذا الربط الأخير فى عبارة إنجليزية بذيئة قديمة هى « buttock and tongue » ، وتعنى « المرأة السليطة اللسان » ، وإن كان المعجم التاريخى للعامية الإنجليزية لا يستبعد أن تكون هذه الكلمة تورية لعبارة : « buttock and tongue » ، التى تعنى « مومسا » . انظر Eric partridge , A Dictionary of Historical Slanq Cabridged . , by jacoueline slnpson << buttock andtongue >> مادة penguin Books , 1972

« طيـ ... » [٩٥] ، وذلك على لسان پاميلا زوجة تشامتشا ، التى تقول : « إذا كان عندك أية اعتراضات فـ (طلّعها من طيـ ... تي . طيـ ... ـك) » [٩٦] . والأصل الإنجليزى هو :
« blow them out of your ass . Arse . Ass » ،
و « arse » هو النطق الإنجليزى ، أما « ass » فهو النطق الأمريكى ، أى أن المؤلف الفاضل أراد أن يستعمل الكلمة ، لا بالإنجليزى فقط ، بل بالأمريكانى أيضا ، وليس مرة واحدة بالأمريكانى بل مرتين . وبهذا يكون قد استخدم هذه الكلمة البذيئة ثلاث مرات متتابعة ، حرصًا منه طبعا على ألا تفوت القارئ الفائدة المرتجاة . وفى موضع آخر من الرواية يعود إلى هذه الكلمة نفسها ، وذلك فى العبارة التالية من كلام هال ڤالانس : « I'm going to sell the arse off it » [٩٧] .
والضمير « it » يعود فيما يبدو على بريطانيا .

---

(٩٥) أعتذر لاضطرارى إلى إيراد هذه الألفاظ ، ولكن كيف أستطيع أن أنقل للقارئ الذى لم يطلع على هذه الرواية صورة صحيحة لها . إن الكاتب قد يضطر إلى ما لا يحب أحيانا .

(٩٦) أى أخرجها من دبرك . ص / ١٨٠ . وبالمناسبة أذكر أنى قرأت هذه الكلمة مطبوعة كاملة فى مذكرات الأستاذ أحمد الشقيرى . وقد أوردها فيما أظن على لسان أحد رؤساء سوريا السابقين ، وذلك ضمن التعبير المشهور عن الميت وقطعة القطن التى لا يخرج من الدنيا بسواها . والمراد واضح - وقد ساقها الشقيرى شاهداً على بذاءة بعض الرؤساء وعدم احتشامهم حتى فى اجتماعاتهم على أعلى مستوى .

(٩٧) ص / ٢٦٨

على أن شذوذ ذوق المؤلف وخياله لا يقف عند هذا الحد ، بل يتعداه إلى ألوان من الشذوذ الجنسى منتشرة على طول الرواية لقد أشرت إلى كثرة استعمال كلمة « bugger : خو .. (أى مأبون) » فى الرواية ، وكذلك عبارتى « motherfucking » و « sister fucking » ، اللتين تعنيان على الترتيب « نائـ ... أمه » و « نائـ ... أخته » . وأسوق هنا مثالا آخر جديدا على هذا الشذوذ ، وهو قوله فى غمرة استطراده (بدافع من حبه لاستعراض قراءاته ومعارفه) للحديث عن ميكيافيلى وأنه برغم كون اسمه قد أصبح عنوانا على الشر كان من أنصار الجمهورية ، بل تعرض أيضا لدرجة من التعذيب كفيلة بجعل معظم الرجال يعترفون باغتصاب جداتهم » [٩٨] . أما صلاح الدين تشامتشا فيحلم بأنه يجامع ملكة بريطانيا [٩٩] . وإليك نصّ كلام الرواية : « وكان تشامتشا فى ذهوله يستيقظ وينام كما لو أن هاتين الحالتين لم تعودا تتطلبان أن يفكر الإنسان فيهما بوصفهما حالتين متناقضتين ، بل بوصفهما حالتين تنصب كلتاهما فى الأخرى وتنبثق منها لخلق نوع من هلوسة الحواس التى لا تنتهى ... وقد وجد نفسه يحلم بالملكة ، بأنه يجامع

---

(٩٨) ص / ٤٠١ .

(٩٩) لاحظ أنها جدة منذ وقت غير قليل . وعلى كل فهى عجوز ، وهذا هو وجه الشذوذ فى المسألة .

أكبر رأس فى الدولة فى رقة وحنان . لقد كانت هى جسد بريطانيا . كانت الدولة متجسدة فيها . لقد اختارها ، واندمج معها إنها حبيبته ، نور حياته وبهجة روحه » (١..) . وهذه

(١..) ص / ١٦٩ . ولا أدرى كيف سكت البريطانيون على ذلك ، وتغاضوا عن هذه البذاءة التى وجهها الكاتب لملكتهم ، التى يعتزون بها أشد الاعتزاز بوصفها رمزا على دولتهم وتاريخهم ومجدهم ؟. ثم إن الكاتب قد ذكر ذلك فى صراحة لا يمكن تأويلها بحال ، فقال إنه يجامع الملكة التى تتجسد فيها بريطانيا . أتُراهم سكتوا عن ذلك لما فى الرواية من بذاءات أشد فحشا فى حق الرسول الأكرم ﷺ وزوجاته المحصنات الشريفات رضى الله عنهن جميعا ؟ ولعل فى هذا بعض ما يريد د . شمس الدين الفاسى من جواب حين قال عن سلمان رشدى : « فبالنسبة للخليل إبراهيم اتهمه بارتكاب جريمة الزنا مع هاجر ولما حملت سفاحا منه ووضعت ذهب بها إلى مكان مقفر مهجور ، لتعيش بابنها إسماعيل بعيدا عن أعين الناس .. لو وجه سلمان رشدى هذه التهمة لملكة إنجلترا مثلا ماذا يفعل به الشعب الإنجليزى والحكومة الإنجليزية ؟ ... لا أظن أن الإنجليز يقابلون الطعن فى ملكتهم ببرود ، وإنما لابد وأن يقيموا الدنيا ولا يقعدوها حتى يمزقوا هذا المتطاول على ملكتهم شر ممزق ، لماذا إذن جعلوا من هذا الزنديق بطلا ؟ بل لماذا شددوا حوله الحراسة حتى لا تناله أيدى الغاضبين من المسلمين ؟ » (د . شمس الدين الفاسى / آيات سماوية فى الرد على كتاب آيات شيطانية / ص ١٧ - ١٨) . ومع ذلك فهناك تعليق سريع على كلام الدكتور الفاسى ، فإنى لا أذكر أن الكاتب ، رغم بذاءاته وسفالاته الكثيرة ، قد اتهم سيدنا إبراهيم بارتكاب الزنا مع هاجر ، ولكنه تطاول عليه ونعته بابن الزنا ، كما سبق القول . وإضافة إلى كلام سلمان رشدى عن ملكة بريطانيا فقد سلف أن رأينا وصفه لمارجريت تاتشر ، على لسان شخصية من شخصيات الرواية بـ « ماجى القحبة » .

من المرات القلائل (فى الرواية) التى يجد فيها الدارس معنى لشئ من البذاءة والفحش اللذين تعج بهما الرواية ، إذ يمكن فهم هذا الحلم على أنه لون من التنفيس عن الإذلال الذى شربه تشامتشا على أيدى الإنجليز حتى الثمالة فى رحلته مع الانسلاخ عن شرقيته وإسلامه وماضيه كله إلى محاولة الاندماج فى المجتمع البريطانى والتخلق بثقافته ومثله وعاداته وتقاليده . إنه يريد أن يقول : لقد هزمتُ بريطانيا ، وهأنذا أجامع ملكتها بل إلهتها المجسدة لها [(١٠١)] ، وربما أمكن إضافة سبب آخر إذا قلنا إن صلاح الدين تشامتشا يمثل سلمان رشدى نفسه ، وإن اتخاذ زوجة تشامتشا (البريطانية) عشيقا هى جزء من حياة رشدى الشخصية أيضا (لاحظ أن زوجة رشدى الأولى كانت هى أيضا بريطانية) . فجماعه للملكة يعد فى هذه الحالة تعويضا عن فعلة زوجته ، وكأن لسان حاله يقول : « إذا كنت قد فشلتُ مع امرأة إنجليزية عادية فهأنذا أجامع ملكة بريطانيا نفسها » . ذلك أن حلم تشامتشا بمجامعة الملكة إنما

---

(١٠١) استخدم الكاتب هنا كلمة « Avatar » ، التى تعنى عند الهندوس « إلها متجسدا (وبخاصة الإله فشنو) أو سليل إله . انظر مثلا Nouveau petit Larousse I llustre , Paris , 1939 . ، مادة « avatar » ، و New Larousse Encyclopedia of Mythology , 1969 , p . 389 وبالمناسبة فقد تكررت هذه الكلمة فى الرواية عددا غير قليل .

حدث قبل اكتشافه أن زوجته قد اتخذت عشيقا . فمجئ جماعه للملكة بريطانيا قبل اكتشافه هذا معناه أن رشدى لم ينتظر حتى يكتشف تشامتشا ما فعلته زوجته كى يكون جماعه للملكة رد فعل لتشامتشا نفسه ، بل أسرع قلم رشدى بذكر الجماع كرد فعل لرشدى تجاه اتخاذ زوجته عشيقا وتجرعه كأس الديوثية ، وما يعنيه من احتقار له ولرجولته . وقد يرجع أن تشامتشا هو سلمان رشدى ، وپاميلا زوجة تشامتشا تمثل زوجة رشدى نفسه إن قلم الراوى فى أثناء وصفه لحلم رأى تشامتشا فيه زوجته پاميلا وعشيقها چامپى چوشى ، الذى كان يتردد عليها ويعاشرها على محضر من تشامتشا قد جرى بهذه العبارة : « ... ليجد نفسه يرتجف فى بهو بيته ، على حين كان چامپى چوشى ... مشتبكا فى جدال حاد مع پاميلا ، مع زوجتى »[(١.٢)] وقد كتبت عبارة « مع زوجتى » بحروف مائلة قصد إبرازها . فتغير الضمير هنا من الغائب إلى المتكلم لم يحدث عبثا . وأغلب الظن أن سلمان رشدى قد أراد أن يقول : « إن الحديث هنا إنما هو عن زوجتى أنا فى الحقيقة » . إن هذا ، إن صح السبب الثانى الذى أضفته للتفسير الأول ، عيب فنى بطبيعة الحال . بيد أن اهتمامنا هنا إنما ينصب على التحليل النفسى لهذا الحلم

(١.٢) ص / ٢٥٦ من الرواية .

الشاذ الذى يرى فيه تشامتشا نفسه يجامع امرأة عجوزا . وأى جماع ؟ إنه جماع برقة وحنان .

على أن هذه ليست المرة الأولى التى نقابل فيها هذا اللون من الشذوذ الجنسى (شذوذ جماع العجائز) ، فقد ورد قبل ذلك بعدة صفحات ، وعلى نحو أوغل فى الشذوذ والمرضية والهلوسة . ولأدع القارئ يقرأ بنفسه سطور المشهد :

« وجد نفسه عند إحدى البحيرات وسط غابة هائلة من الأشواك وقد ترك حصانه يشرب . ثم جاءت هى إليه على صهوة مهرها . وعندئذ احتضنها ، وأخذ يفك ملابسها وشعرها ثم راحا فى الجماع . وكانت هى تهمس له قائلة : « كيف يمكنك أن تحبنى وأنا أكبر منك كثيرا جداً ؟ » فأجابها بكلام يخفف عنها . وبعد ذلك قامت فارتدت ملابسها ثم انطلقت بمهرها ، على حين بقى هو فى مكانه مرهق الجسم دافئه . ولم يلاحظ حينئذ اليد النسائية التى تسللت إليه من وسط الشوك ، وأخذت سكينة ذات المقبض الفضى ...

لا . لا . لا . هذه الناحية !

وعندئذ قادت مهرها إليه عند البحيرة . وفى اللحظة التى ترجلت فيها ناظرةً إليه فى عصبية انقض عليها قائلا لها إنه لم يعد بمستطاعه احتمال اعتراضاتها . ثم سقطا على الأرض معا

فصرخت . أما هو فأخذ يمزق ملابسها ، على حين أمسكت يدها التى كانت تخمش جسده بقبض سكين .

لا . لا . أبدا . لا . هذه الناحية .. هنا !

ثم انخرطا فى الجماع برقة وحنان ، ويد كل منهما منهمكة فى مداعبة الآخر مداعبة بطيئة . ثم وصل إلى قطعة الأرض المكشوفة عند البحيرة راكب ثالث ، فانفصلا فى الحال ، فاستل دون إنريك مسدسه وصوّبه نحو قلب غريمه . وشعر (الرجل الذى كان يجامع المرأة) بأورورا تطعنه فى قلبه طعنات متتابعة : هذه لچوان ، وهذه لهجرك إياى ، هذه لعاهرتك الإنجليزية الكريمة . وأحس بسكين ضحيته تغوص فى قلبه فى الوقت الذى كانت روذا تطعنه : طعنة .. طعنتين .. ثلاثا .

وبعد أن قتلته رصاصة هنرى أخذ الرجل الإنجليزى سكين القتيل وطعنه طعنات عدة فى جرحه الناغر .

وعندئذ صرخ جبريل ، ثم راح فى غيبوبة .

وحين استرد وعيه كانت المرأة العجوز التى فى الفراش تخاطب نفسها فى هينمة استحال عليه معها أن يميز شيئا يذكر من كلامها »[١٠٣] .

---

(١٠٣) ص / ١٥٤ - ١٥٥

أرأيت إلى هذه السادية ؟ [١٠٤] أرأيت كيف تمتزج لذة الجنس ورقته بألم الطعن بغضب الحقد وعماه ؟ ومع من ؟ مع امرأة عجوز طاعنة فى السن . وهذا كله فى ثوب كثيف من الغموض بل الهلوسة ، إذ من الصعب جدا على القارئ أن يعرف بالضبط من يجامع من ، أو من يقتل من ، فالأزمنة تتداخل ، وكذلك الأشخاص والحوادث . والحقيقة أننى لولا إصرارى على دراسة هذه الرواية ما كنت بمستطيع أن أتجاوز الصفحات الأولى منها لهذا السبب الذى لا يقتصر على هذا المشهد وحده بل يعم الرواية فى مجموعها ، وذلك فضلا عن ثقل حركتها وبطئها الذى يقتلك من الملل [١٠٥] ، وهذا الركام الحاشد من البذاءات والمقززات المقيئات .

وهذه الفظاظة والعدوانية نجدها ، ولكن على نحو أشد بشاعة فى الأسلوب الذى كان يتبعه سفاح العجائز فى قتله للنسوة الطاعنات فى السن ، إذ كان من طقوسه ، كما يقول الكاتب ، فى قتلهن أن يستخرج أحشاءهن ويلفها حول جثثهن [١٠٦] .

---

(١٠٤) هناك إشارة أخرى إلى العدوانية الجنسية فى ص / ٤١٥ ، حيث يتهم صلاح الدين تشامتشا د . سمبا بالعدوان على النساء والفتيات اللاتى يمارس معهن الجنس .

(١٠٥) ما عدا الفصول الخاصة بقصة النبى عليه الصلاة والسلام وقصة الإمام الخمينى ، كما وضحت فى فصل آخر من فصول هذه الدراسة .

(١٠٦) الرواية / ص . ٤٥

على أن امتزاج الموت بالجنس لا يقتصر فى الرواية على دنيا البشر وحدهم ، ففى ص/٤٧٩ نشاهد القردة الوحشية (١٠٧) مرهقة ضجرة ، ثم تسقط فى وسط الطريق ميتة وهى لا تزال مشتبكة فى عملية الجماع .

وأشنع من ذلك وأفظع أن يمارس أحد الناس الجنس مع امرأة ميتة ، وهو ما يسمى بـ « النكروفيليا » ، أى مضاجعة الموتى (١٠٨) . ويزداد الأمر شناعة حين نعلم أن الكاتب المأفون قد ذكر ذلك فى سياق الحديث عن الماخور الذى ابتدعه خياله المتقيح المنتفخ بالصديد والعفن ، والذى سمى كل عاهرة فيه باسم واحدة من زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام الشريفات الكريمات ، إذ حينما جاء الدور على تقديم العاهرة التى سماها باسم « زينب بنت خزيمة » إلى القراء قال : « وأغرب هؤلاء العواهر تلك التى سُمّيت باسم « زينب بنت خزيمة » ، فإن زوجة ماهوند (١٠٩) هذه كانت قد ماتت منذ وقت قريب .

---

(١٠٧) فى الأصل « fucking » ومعناها « تنيـ ... » .

(١٠٨) انظر فى ذلك مثلا Janes Draver , A Dictionary of psychology , Penguin Books , 1977 ، وكذلك د . مكدونالد لادل / قاموس مصطلحات علم النفس (ترجمة يوسف ميخائيل أسعد) / دار النهضة العربية ١٩٧١ . (مادة « Necrophilia ») .

(١٠٩) هذا هو اسم الرسول الكريم فى الرواية .

لقد كانت النزعة الشاذة نحو مضاجعة الموتى لدى عشاقها ، الذين كانوا يمنعونها من الإتيان بأية حركة أثناء اللقاء الجنسى من الجوانب البغيضة للنظام الجديد فى ماخور الحجاب ، لكن الشغل شغل . وهذه أيضا هى إحدى الحاجات التى كانت المومسات يلبينها لعملائهن » [110] .

ومن مضاجعة الموتى إلى مضاجعة السحالى (كيف يكون ذلك ؟ لا أعرف ، وإنما يعرفه الذهن الموبوء المشوه) . إن بلالا المؤذن (وهو أمريكى تحول إلى الإسلام وأصبح من أتباع الإمام) [111] ، وهو الذى وكل إليه إذاعة بيانات زعيمه على الأثير إلى الشعب فى دش [112] ، كعادته فى كل بيان يلقيه يبدأ حديثه بفاصل من الشتائم الموجهة إلى الإمبراطورة عائشة [113] ، مرددا قائمة بجرائمها ، والاغتيالات التى تمت بأمرها ، والرشاوى التى حصلت عليها ، وعلاقاتها الجنسية مع السحالى [114] .

---

(١١٠) الرواية / ص ٣٨٢ (١١١) المقصود الخمينى .

(١١٢) المقصود « قم » وإيران بوجه عام .

(١١٣) واضح أن المقصود « الشاهبانو » ، ولكنه سماها « عائشة » فيما يبدو لنفور الشيعة من عائشة (زوجة الرسول الكريم) وأبيها رضى الله عنهما .

(١١٤) ص / ٢١٠ من الرواية .

والمسافة بين ممارسة النساء الجنس مع السحالى وولادتهن الصراصير والفئران ليست بالبعيدة . إن سفيان محمد وزوجته لايمارسان الجنس كثيرا ، وإذا مارسه ففى الظلام والصمت التام والسكون المطلق ، فلا تلوى من زوجته فى الفراش ولا تراقص وإنما تأدية واجب فحسب . وحين أنجبت الزوجة بنتا للمرة الثانية لم تلم الأقدار على ذلك ، بل أرجعته إلى ضعف الحيوانات المنوية التى دخلت جسمها من زوجها الناقص الفحولة ، وحمدت الله على أن المولود لم يكن صرصورا أو فأرا (١١٥) تريد أن تقول إن حيوانات زوجها المنوية من الضعف بحيث إنها لم تكن تتوقع معها أن تلد طفلا بشريا بل حشرة ، فالطفل يحتاج (كما يفهم من كلامها إلى بذور منوية أقوى . والواقع أننى لا أستطيع أن أتصور كيف يواتى زوجة خيالها ، بله لسانها ، على أن تقول عن نفسها هذا الكلام ، وأن تشير إلى هذا الجزء الحساس من جسدها هذه الإشارة القززة . لكنها ليست الزوجة بل الكاتب .. الكاتب غير السوى ! ولعله لم يفت القارئ هنا أيضا سمات « النكرونيليا » كما صورها فى مشهد الماخور ، وهى تتلخص فى صمت الزوجة وسكونها التام أثناء الجماع .

---

(١١٥) ص / ٢٤٧

على أن ذلك ، رغم كثرته وفظاعته ، ليس هو كل ما فى جعبة الكاتب من انحراف جنسى ، فهو يذكر فى موضع آخر من الرواية أنه كانت العادة بالنسبة للمومسات فى الجاهلية وصدر الإسلام (ولنعدّ الآن عن مسألة الأمانة التاريخية) أن يتخذن أزواجا لا يسببون لهن أية مشاكل ، فكانت واحدة تتزوج جبلا والثانية نبعا ، والثالثة شجيرة ، كى يمكن من الناحية الشكلية أن يقال إنهن متزوجات . وفى ماخور « الحجاب » كانت القاعدة تقضى بأن تتزوج البنات « نافورة الحب » التى فى الفناء الداخلى ، والتى كان يطوف بها المترددون على الماخور كما يطوف الحجاب لأسباب أخرى حول الحجر الأسود [116] ، وإن كان قد أضاف أن بنات الماخور قد ثرن على الزواج من النافورة الحجرية بحجة أن ذلك لون من الوثنية لا يليق بهن ما دمن أخذن ينظرن إلى أنفسهن على أنهن زوجات النبى (أستغفر الله) ، ثم أصررن على أن يتزوجن بعلا [117] ، ليبدأ لون آخر من الشذوذ ، هو شذوذ « التدييث » ، الذى كان على بعل أن يمارسه ، كما مارسه أيضا صلاح الدين تشامتشا ، الذى يمثل فيما يبدو سلمان رشدى نفسه .

---

(١١٦) غنى عن القول إن هذا كله من وحى خيال الكاتب الشاذ .

(١١٧) ص / ٣٨١ ، ٣٨٣

وفى النهاية نختم بالشذوذ رقم واحد فى قائمة الانحرافات الجنسية ، ألا وهو شذوذ اللواط . لقد كان جبريل فاريشتا ، وهو صبى ، يحلم بنفسه جالسا على منصة مفروشة بالورود وهو يتكلف ابتسامة خجلى تحت طرف السارى الذى ألقاه على وجهه احتشاما ، على حين أخذ زوجه الجديد بابا صاحب مهاتر يمدّ يده فى حب ليزيح الغطاء ، وأخذ يتأمل ملامحه فى مرآة موضوعة فى حجره . وقد أيقظه هذا الحلم الذى تزوج فيه بابا صاحب ووجهه ملتهب ومتضرج بحمرة الخجل والإحساس بالعار (١١٨)
والحمد لله أنه د أحس بالخجل .

والآن ، وبعد أن استعرضنا ألوان الشذوذ التى فى الرواية ، أليس غريبا أن تتعالى الأصوات بحجة الدفاع عن هذه الرواية التى ليست فى الواقع أكثر من برميل يطفح بالبول والبلغم والبراز والأحشاء العفنة المتقيحة ، غاص فيه الكاتب عاريا إلى قمة رأسه ، ليطفو بين الآونة والأخرى ممسكا فى يده ببعض محتويات البرميل ، يعرضها عليها بوصفها فنا وأدبا ؟ هل يعقل أن تحتوى نفس إنسانية على هذا الكمّ الهائل والمتنوع من الشذوذات ؟ حقا ما أصدق شكسبير حين قال : إن فى السماء والأرض ياهوراشيو ... !

ومن بين أولئك الذين دافعوا عن سلمان رشدى وروايته

المدعوّ س . نعمان الحق ، وكانت حجته من أغرب الحجج . وسوف أدعه يتكلم بلسانه هو . وهذا هو ما قاله لسلمان رشدى على سبيل النصيحة والتوجيه : « إن قولك إن العالم الإسلامى قد أظهر أنه يفتقر تماماً إلى ضبط النفس والتسامح هو نسيان لحقيقة تاريخية ، فإن الأمم الإسلامية لم تمر ببوتقة عصر التنوير ولم تعرف أية ثورة علمية . ومن ثم فتفكيرهم مختلف . وليست المظاهرات السلمية طريقتهم فى التعبير . ولا يمكننا أن نغيرهم بين عشية وضحاها . وأفضل شئ هو أن نتجنب أن نصيبهم فى المواضع الحساسة . ولقد كنت تعرف ذلك جيدا يا سيدى »[119] وفى الحقيقة لا أدرى ما العلاقة بين التنوير والثورة العلمية وبين السماح والرضا بهذه البذاءات والسفالات ، التى سوف نرى المزيد منها حين نتحدث عن الإساءات التى وجهها المؤلف إلى رسول الله ﷺ وزوجاته الشريفات الطاهرات وصحابته الكرام ، والاعتداءات البشعة على حقائق التاريخ . ثم ما قول نعمان الحق فى إحراق بعض الأوربيين لدور الخيالة التى كانت تعرض فلما عن السيد المسيح لم يعجبهم ؟ بل ما قوله فى اعتداء طوائف منهم أحيانا على دور العبادة والمراكز الإسلامية فى

---

(١١٨) ص / ٢٢

(١١٩) من مقالة له بالنيويورك تايمز نشرت تحت عنوان « A Muslim Tells Salman Rushdi He Did Wrong »

بلادهم دون أدنى إساءة من المسلمين إليهم ؟ ولماذا لم تمنعهم من ذلك بوتقة التنوير والثورة العلمية ؟

لقد قطعت البشرية شوطا طويلا فى رقى الذوق وستر العورات والسوءات ، وأصبح من سمات التحضر أن تكون هناك مجارٍ تحت الأرض بعيدة عن عيون الناس وأنوفهم وأيديهم وأرجلهم لتصريف الفضلات ، وأن يغطى البشر أعضاءهم التناسية والإخراجية ، وأن يمارسوا الجنس فى خلوة ، فما معنى هتك هذه الأستار وإبراز النفايات والسوءات ونشرها على الملإ ؟ إن العجماوات هى التى لا تبالى هذا . إننا حين نقول ذلك لا نتنكر للفطرة البشرية ، فنحن لا نستطيع أن ننكر أن الناس يدخلون المراحيض ويتبولون ويتبرزون ، ويمرضون أمراضا تتقيح منها أجسادهم ويسيل منها صديد منتن وتتعفن أحشاؤهم ، وأن لهم غرائز لا بد من أن تُشْبَعَ ، وأن إشباعها يتم عن طريق أعضاء بذاتها فى أجسادهم . إنه لا عيب فى ذلك كله . لكن العيب كل العيب فى أن يفتح أحدهم مثلا المرحاض على من يقضى حاجته واجداً فى رؤيته وشم رائحة فضلاته لذة ومتاعا ، أو يقوم هو نفسه بقضاء حاجته جهارا نهارا على قارعة الطريق أمام السابلة ، أو يخلع ملابسه ويجرى فى الطرقات مستعرضا أعضاءه الداخلية أو عارضا بثوره وصديده ووسخه على الناس . ومع ذلك فلا أحد عاقل يعترض على أن

يحلل الطبيب المعالج بول المريض وبرازه ، أو يمد يده فى قيحه وصديده ، أو يكشف عن أعضائه ويجسها .. إلخ ، فالضرورة تقتضى ذلك . إن السياق غير السياق . إن أديبا قد يقف مثلا عند الوساخة التى تملأ شوارع مدينة ما أوحىٍّ ما من هذه المدينة لإبراز المستوى غير الإنسانى الذى يعيش فيه الناس فى ذلك المكان ، أو قد يتخذ شيئا من ذلك رمزا على القبح النفسى أو التحلل الروحى أو ما إلى ذلك ، أو قد يجرى شيئا من ذلك على لسان بعض شخصياته للإيحاء بغلظ ذوقها . وقد يوحى ببعض ألفاظ الجنس مثلا بمدى خطورة الكبت الجنسى . وليس على مثل ذلك الأديب من حرج . أما أن ينطلق الكاتب من كل عقال فيجعل أشخاص روايته كلهم ، متعلمهم وجاهلهم ، بريطانيهم وهنديهم وعربيهم ، صغارا وكبارا ، فى القديم والحديث ، بذيئين لا يحتشمون ، بل يستمتعون بإثارة اشمئزازنا باللغوصة فى البراز والمخاط وتعرية سوءاتهم والتركيز على الشذوذ الجنسى بكل ألوانه ، وذلك كله بلا داع سوى أنهم غير أسوياء ، فهذا أمر آخر (١٢٠) . إن الرواية من مفتتحها إلى

---

(١٢٠) للتفرقة بين استخدام الجنس مثلا فى الأدب استخداما مقبولا واستخدامه استخداما رخيصا يمكنك الرجوع إلى المقالة الجيدة التى كتبها د . نبيل راغب فى « موسوعة الفكر الأدبى » / هيئة الكتاب المصرية / جـ ٢ / ص ٥١ - ٥٦ (بعنوان « الجنس ») .

منتهاها هى معرض حاشد بصنوف الشذوذ والقبح ، وليس فيها نسمة بليلة واحدة تلطف هذا الجفاف الجمالى والذوقى ، اللهم إلا (إلى حدٍّ ما) منظر الفراشات الذهبية التى كانت تصاحب عائشة الكاهنة الهندية . ويبدو أنه حتى هذه النسمة اليتيمة قد هبت فى الأصل من بقعة أخرى خارج « الآيات الشيطانية » ، إذ يقول أحد من كتبوا عن الرواية إنه فى إحدى روايات ماركيز الروائى الكولومبى يظهر أحد الأشخاص وتظهر معه فراشات صفراء [١٢١] ، بل إن هذه النسمة الوحيدة لم تنج من قبح نفس الكاتب وشذوذ خياله ، إذ يقول : « كانت هناك فراشات تحط على هذه البقعة ، على حين كانت (عائشة) بيدها اليمنى تلتقطها وتلقى بها فى فمها . وببطء وفى نظام كانت تفطر بالأجنحة المستسلمة . كانت شفتاها ووجنتاها وذقنها ملطخة بالبقع الكثيرة المختلفة الألوان التى خلفتها عليها الفراشات الميتة » [١٢٢] . ليس هذا فقط ، بل إن هذا المنظر قد أثار

---

(١٢١) زهير حسين الهاشمى / وقفة نقدية مع رواية المرتد رشدى - أساطير شيطانية ملغومة بكلام خبيث / مجلة « العالم » اللندنية (بالعربية) السبت ٢٩ إبريل ١٩٨٩ / ص ٥٢

(١٢٢) ص / ٢١٩ من الرواية . وبالمناسبة فلا أذكر أن هناك طعاما واحدا فى الرواية كلها قد سلم من الشذوذ . فهناك من يأكل خُرْأه ، وهناك من يشرب بوله ، وهناك الطعام الذى يوصف بأنه (خرا) . وها هى ذى عائشة تأكل الفراشات الميتة . وحتى السمكة التى كانت أم تشامتشا تأكلها وقفت =

شهوة ميرزا سعيد صاحب القصر الذى كانت عائشة تأكل الفراشات فى حديقته [١٢٣] إن الكاتب ، كما هو واضح ، عدو للجمال لا يملك نفسه من تلطيخه وتحطيمه . ولنتابع القراءة :
« كانت عائشة تمسك (الفراشات من أطراف أجنحتها وقد ألقت برأسها إلى الخلف ثم تلقفها بطرف لسانها الرفيع ، ثم تركت فمها مفتوحا ... وارتجف ميرزا سعيد وهو يرى الفراشات تدف بأجنحتها فى مغارة الموت المظلمة ، وهى مع ذلك لا تبدى أية محاولة للنجاة . وعندما اطمأنت (الفتاة) إلى أنه قد رأى هذا أطبقت شفتيها وشرعت تمضغ » [١٢٤] .

إن الكاتب (وكذلك صلاح الدين تشامتشا أحد أشخاص الرواية) عاشق مدنف لبريطانيا وثقافتها وأسلوب حياتها ، أفلم يجد شيئا .. شيئا واحدا فى بريطانيا جميلا أو يوحى بشئ من الجمال ؟ هل معقول ألا يجد سوى البذاءة والعرى الفاحش

= فى حلقها إحدى أشواكها فماتت . أما السمكة التى أكلها تشامتشا نفسه فى أول الرواية فقد كانت بالنسبة إليه عذابا أليما . إذ حاول عبثا أن يقلد التلاميذ الإنجليز فى أكلها بالشوكة ، فتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه . وعندما أكل جبريل فاريشتا لحم الخنزير على الملإ ليبين لهم أنه قد انسلخ عن إسلامه كان يحشو به فمه بطريقة تبعث على الغثيان ، إذ كانت شرائح لحم الخنزير تتدلى من جوانب فمه .

(١٢٣) الرواية / ص ٢١٩ (١٢٤) ص / ٢١٩ - ٢٢٠ .

القبيح ؟ لو أنه كان ممن ينقمون على الحضارة الغربية لقلنا : « موتور قصد إلى الرواية بها » ، لكنه كما قلت مدنف مدله ولهان . وعندما تنتقل الرواية إلى الهند لا تشم أنوفنا أو تقع أبصارنا على شئ سَوِىّ ، لا فى المدينة ولا فى الريف ولا فى البحر ولا على الأرض ولا فى السماء . أيعقل أن تكون البثور الصديدية قد انتشرت فى نفس الكاتب كلها فلم تنج منها بقعة واحدة يمكن أن تنبض بالشعور بشئ صحيح جميل ؟ (١٢٥) .



(١٢٥) يفسر د . محمد يحيى دور سلمان رشدى فى رواية « الآيات الشيطانية » على أنه مهرج البلاط الذى يضحك الملك وحاشيته ، إذ إنه يقدم الإسلام للغرب فى صورة ساخرة مستهترة لا يقصد بها الوصول إلى الحقيقة ، بل موافقة هوى الأوروبيين وإضحاكهم . وهذا التفسير وجيه ما اقتصر الأمر على قصة النبى عليه الصلاة والسلام وقصة الخمينى . ولكن المسألة أكبر من ذلك وأبعد غورا . إن شخصية رشدى ، كما اتضح من هذا الفصل الذى بين أيدينا ، هى شخصية شاذة مغرمة غراما شديدا بالبذاءات والسفالات والقاذورات وكشف السوءات والعورات ومصادمة الذوق السليم وتلطيخ كل ما هو جميل . انظر د . محمد يحيى / الآيات الشيطانية - الظاهرة والتفسير المختار الإسلامى / ١٩٨٩ / ص ١٥ ، ٥٠ ، ٥٨ .

خلط وتحريفات وإساءات

سينصب حديثنا فى هذا الفصل على ما جاء فى الفصلين الثاني والسادس من رواية « الآيات الشيطانية » ، وعنواناهما على الترتيب هما « ماهوند » و « عود إلى الجاهلية » ، وهما الفصلان اللذان تناول فيهما سلمان رشدى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وصراع الإسلام والوثنية ، وشخصيات بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . وقد قدم الكاتب هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الإسلام للقارىء الأوربى بصورة مشوهة ، بغية النيل من الإسلام ونبيه وتاريخه ورجاله الأوائل العظام الذين انتصر هذا الدين على أيديهم ، واكتسح العالم وقضى على أقوى امبراطوريتين فى ذلك الحين بفضل رجولتهم وتضحياتهم وقوة إيمانهم وعمقه فى عقولهم ونفوسهم وضمائرهم . والمؤلف ضامن بطبيعة الحال أن قراءه سيتلقون بالقبول والابتهاج كل ما سيقوله ضد الإسلام ونبيه وأتباعه . ولا يمكن القول بأن الكاتب مجرد روائى لا يعرف ما يطلبه الخوض فى الكلام عن التاريخ وأبطاله ، وبخاصة الأنبياء وأتباعهم ، فهو متخصص فى التاريخ وحاصل على شهادته من إحدى الجامعات

البريطانية [١] . وأول مايلفت النظر هوالخلط بين مكة والمدينة فى كثير من الأحيان . إن الرسول وصحابته وأعداءه يسكنون جميعا مدينة واحدة هى مدينة « الجاهلية » ، والمقصود بها مكة ففيها بئر اسمه « زمزم » [٢] . والقبيلة التى يسكنها هى قبيلة « القرش : shark » [٣] (يريد أن يقول إن « قريشا » تصغير لكلمة « (سمك) القرش » . [٤] وفى هذه المدينة يقوم « بيت الحجر الأسود » (يقصد الكعبة) [٥] ، الذى اسودَّ من كثرة لمس الحجاج بعد أن كان أبيض . وإلى هنا لاخلاف فى أن الرسول والمسلمين وقريشا يسكنون مدينة واحدة

---

(١) انظر د . شمس الدين الفاسى / آيات سماوية فى الرد على كتاب آيات شيطانية / ص ١٢ ، وكذلك جمال سلطان / قضية سلمان رشدى/ دار الرسالة / الزقازيق / ١٩٨٩ / ص ٩ .

(٢) الرواية / ص ٩٤ (٣) ص / ٩٥

(٤) هذا أحد التفسيرات لاسم هذه القبيلة . وهناك من يقول إن « قريشا » هو لقب مضر ، وقيل : بل لقب فهر ، وإنها مشتقة من « التقرش » أى الكسب والتجارة ، لأن فهرا وأولاده كانوا مولعين بالتجارة ، أو من « التقرش » بمعنى « التّجمع » ، لتجمع هذه القبيلة بعد تفرقها . انظر ابن هشام / السيرة النبوية (تعليق طه عبد الرءوف سعد) / المكتبة الأزهرية / حـ ١/ص ٨٦ ، ومعجم « محيط المحيط » للبستانى (مادة « قرش ») ، وسيد أمير على / روح الإسلام / ترجمة أمين محمود الشريف / سلسلة الألف كتاب / حـ ١ / ص ٧٨ ، ٧٩

(٥) الرواية / ص ٩٩

ولكن الخلط يبدأ عندما نرى معسكر الإسلام والوثنية لا يزالان يقطنان مدينة « الجاهلية » إلى ما بعد غزوة بدر [٦] ، وكذلك عندما تقول الرواية إن الهجرة قد تمت بعد ذلك [٧] .

ومن خلطه الجغرافى أيضا أنه جعل « اللات » صنما من أصنام الكعبة [٨] ، كما جعل بيت « العُزىّ » فى مكة (التى يسميها ، كما رأينا ، بـ « الجاهلية ») [٩] ، مع أن « اللات » كانت لثقيف بالطائف ، وكانت « العزى » بمكان يقال له « نخلة » على مسيرة يوم ونصف من مكة [١٠] . وليس صحيحا بالتالى ما ذكره من أن الرسول عليه السلام كره الدخول إلى مدينة « الجاهلية » (التى هى مكة ، كما قلنا) قبل أن تُهْدم « العزى » [١١] . إن وجود ثلاثمائة وستين صنما حول الكعبة لم يكن يمنع الرسول عليه السلام أن يصلى عند البيت ، ولا أن يدخل مكة فاتحا (بعد أن كان قد هاجر منها وبقى بعيدا عنها عدة سنوات) ، وأن يذهب إلى الكعبة بنفسه ليحطم الأصنام التى حولها ، كما هومعروف مشهور .

---

(٦) ص / ١٢٣ - ١٢٤ (٧) ص / ١٢٥ (٨) ص / ٣٥٢

(٩) ص / ٣٧٢ ، كما سماها « المدينة الرملية » ص / ١٩٤

(١٠) انظر ابن هشام / السيرة النبوية / جـ ١ / ص ٣٧٢

(١١) الرواية / ٣٧٢

وكما يخلط الكاتب فى الحقائق الجغرافية ولا يبالى لجده يفعل الشىء ذاته مع حقائق التاريخ . إن السيدة خديجة رضى الله عنها تظل حية فى روايته إلى ما بعد غزوة بدر (١٢) . وعندما تموت (فى الرواية) تكون سنها سبعين عاما ، مع أنه بحسبة صغيرة يتضح لنا أنها رضى الله عنها انتقلت إلى الرفيق الأعلى عن نحوثلاثة وستين عاما (قمريا طبعا) ، فقد تزوجها الرسول عليه السلام وعمرها أربعين عاما ، وكان ذلك قبل المبعث بخمس عشرة سنة ، لأن سنه آنذاك كانت خمسا وعشرين . فإذا كانت رضى الله عنها قد تُوفيت فى السنة الثامنة من بعثة النبى عليه الصلاة والسلام فإن عمرها يكون حينئذ يكون = ٤٠ + ١٥ + ٨ = ٦٣ عاما (قمرية وهو مايعنى بالسنين الشمسية أقل من ذلك بنحو عامين) . فلماذا تنكب الكاتب هذه الحقيقة التاريخية الواضحة وضوح الشمس ؟ وفوق ذلك يقول إن النبى عليه الصلاة والسلام قد وجد فى خديجة الأمّ والأخت والحبيبة والعرّافة والصديقة (١٣) . فأما الأمّ والأخت والحبيبة والصديقة فالمقصود منها ، فيما نفهم ،

---

(١٢) لم يشر إلى غزوة بدر صراحة ، بل ذكر من وقائعها ، مثل قتل حمزة لإخوة هند زوجة أبى سفيان ، ما يفهم منه أنه يتحدث عن هذه الغزوة / ص ١١٧ - ١١٨ (١٣) ص / ١١٨

أن حبها له وحنانها عليه واهتمامها به كانت ذات أبعاد متعددة ، دلالة على غنى هذا الحب والعطف وعمقه وقوته ، ولكن المشكلة فى « العرافة » : ماذا يريد بها ؟ لقد كان بيت الرسول عليه الصلاة والسلام أبعد ما يكون عن العرافة والكهانة ، وكان عليه الصلاة والسلام يكره الكهان والعرافين ، ويعلن دائما أنه لا يعلم الغيب ، ويؤكد أنه من اختصاص المولى سبحانه . لقد كلمت خديجة ، بعد أن جاءها زوجها الكريم من الغار مرتجفا يطلب أن يدثروه ، ابن عمها ورقة بن نوفل فى هذا الذى حدث له ﷺ ، فطمأنها أنه الوحى . فهذا كل ما هنالك مما يمكن أن أفكر فى أن المؤلف قد لواه ليقول عن خديجة رضى الله عنها وأرضاها إنها كانت لرسول الله عليه الصلاة والسلام كاهنة . وهو فيما يبدو قد أراد أن يجعل هذا حجرا يعبر عليه إلى القول بأن محمدا عليه السلام كان هو نفسه كاهنا ، فإن المسافة بين كون الزوجة كاهنة وكون زوجها الذى يحبها وتحبه وتؤمن به هى مسافة جد ضئيلة . والعجيب أن المؤلف يقول برغم ذلك أن خديجة ، فى الوقت الذى كان محمد يظن بنفسه الجنون ، قد آمنت بأن ما رآه إنما هو جبريل حقا ، وأنه هومن ثم رسول الله [١٤] . فأين الكهانة فى هذا ؟

---

(١٤) ص / ١٨٨

أما خالد بن الوليد فالرواية تجعل إسلامه يتم فى الفترة المكية [١٥] . إذ إننا نراه مسلما فيها فى وقت مساومة قريش للرسول عليه السلام ، وكان لآيتى الغرانيق (المزعومتين) تأثير غير هيّن عليه ، فقد بدأ يشك هو وبعض المسلمين فى أمر النبى عليه السلام ، وإن كان قد ظهر لهم ، كما تقول الرواية ، أن النبى كان أبعد منهم نظرا [١٦] . وهذا كله خبط كخبط الناقة العشواء ، إذا إن خالدا (الذى لا أدرى لم جعله الكاتب سقاء) لم يسلم إلا بعد غزوة الأحزاب ، أى بعد الهجرة بأكثر من خمس سنوات هو وعمرو بن العاص فى وقت واحد ، إذ قدما معا على الرسول عليه الصلاة والسلام فى المدينة وأعلنا إسلامهما [١٧] كذلك لا أعرف أن خالداً رضى الله عنه قد شك ، بعد إسلامه ، فى أمر النبى عليه الصلاة والسلام أو خالفه فى شىء ، بل مضى قدما فى سبيل نصرة الإسلام برجولة كريمة ، وعزيمة جبارة ، وإيمان لا يتزعزع ، ونصر مؤزر كفل له أن يسمّى بحق « سيف الله المسلول » .

وكما جعلت الرواية خالداً يسلم قبل تاريخ إسلامه الحقيقى بعدد قليل من السنين ، قدّمت أيضا إسلام سلمان الفارسى إلى

---

(١٥) انظر ص / ١٠٤ (١٦) ص / ١٠٧ ، ١٢٥

(١٧) انظر ابن هشام / السيرة النبوية / حـ ٣ / ص ١٧٣ - ١٧٤

ما قبل الهجرة بوقت غير قصير [١٨] . ويمضي الكاتب فيدّعي أن سلمان رضي الله عنه كان يكتب الوحي للنبي عليه الصلاة والسلام ، ولكنه اكتشف أن محمدا غير مخلص في دعواه النبوة ، إذ كان يضع القواعد والقوانين أولا ، ثم يأتي جبريل فيوافق عليها ، ليكون هو أول من يكسرها . وقد كان تعليق سلمان على هذا قوله إن الذي يكون قريبا من الحاوي يكون من السهل عليه اكتشاف أخاديعه . ويجعل الكاتب سلمان يسخر من الإسلام وتشريعاته بقوله إن هذه التشريعات لم تترك شيئا إلا قعّدته وقننته ، حتى الفساء وما ينبغي على المسلم أن يفعله إذا فسا ، وكيف أن الإسلام يحرم أن تعلوا المرأة الرجل أثناء الجماع ، كما يحرّم هرش مواضع بعينها من الجسم ، مهما تكن دواعي الهرش ، وكذلك الجمبري (رغم اعترافه أن أحدا من المسلمين لم يره) . ويزعم الكاتب أن سلمان قد سكت في البداية على خداع محمد ، لأن الخطر الجاهلي كان محدقا بهم . كما يقول إنه كان أكثر المسلمين ثقافة (لأنه فارسي) ، ومن ثم كان هو صاحب فكرة الخندق ، ولكن بعد أن نجا المسلمون بفضله من الهلاك المحقق لم يذكره جبريل بكلمة طيبة في القرآن ، بل بالعكس كرهه المسلمون لأنه جرح كرامتهم ، إذ كان اقتراحه

---

(١٨) الرواية / ص ١٠٤

رمزا على عجزهم عن مواجهة عدوهم مواجهة مباشرة ، ومن ثم على جبنهم واحتمائهم بالخندق . كما تشير الرواية إلى أن من بين الأسباب القوية التي دفعت بسلمان بعيدا عن النبي والإسلام اتخاذ النبي لعدد من الزوجات أكبر من العدد الذي حدده القرآن للمسلمين ، ورضَاه عليه السلام بالصفقة التي ساومه عليها الجاهليون ، وهي أن يذكر اللات والعزّى ومناة بالخير في قرآنه في مقابل اعتراف أهل « الجاهلية » بالمسلمين وضمهم إياه إلى دار الندوة ليصبح عضوا في « مجلس المدينة » . كذلك يسمى سلمانُ القرآنَ بـ « الشعر الإلهي » ، وهي تسمية لها دلالتها . ويقول إن سلمان كان يغير بعض ألفاظ القرآن بألفاظ من عنده (مثل « حكيم » بدل « سميع ») ، وإن محمدا لم يلاحظ ذلك ، مما أثار في قلبه الشكوك (إذ كيف يعجز رسول الله أن يميز بين كلام الوحي وكلام البشر ؟) ، ودفعه إلى مزيد من العبث بالنص القرآني ، فكان يكتب « اليهود » بدل « النصارى » ، ويقرأ ذلك للنبي فيثني عليه خيرا دون أن يتنبّه لما حدث من تبديل . ومضى الحال على هذا المنوال إلى أن ابتدأ النبي يشتبه فيما حدث . عندئذ عرف سلمان أنها القاضية ، ففر من يثرب إلى « الجاهلية » (أي مكة) مرتدا عن الإسلام ، وانضم إلى بعل الشاعر الجاهلي الذي يهجو المسلمين ودينهم ونبيهم ، والذي كان يشتغل قوادا

لومسات الماخور ، وأخذ يعاقر الخمر معه . وتصوره الرواية فى أحد المشاهد مخموراً فى مشادة مع عاهرة من عاهرات الماخور على أجرة الزنا . وعند فتح مكة يختبىء سلمان ، ولكن سرعان ما يقبض المسلمون عليه ويأتون به إلى النبى عليه الصلاة والسلام ، فيذكّره النبى بما فعله ، فيرجوه سلمان أن يعفو عنه ، ويلحف فى الرجاء ويصرخ ، على حين يقف خالد منتظرا الأمر بقطع رقبته . وتنتهى المسألة بأن يفشى سلمان مخبأ بعل ، ويتشفع فيه بلال (١٩) ، فيعفو عنه الرسول (٢٠) .

وقد كان يكفى فى الرد على هذا الهراء أن نقول إن سلمان لم يسلم ، بل لم ير النبى عليه السلام ، إلا فى يثرب بعد الهجرة (٢١) ، فينقضّ هذا البناء الذى أقامه المؤلف من الرمال وعلى الرمال . لكننى سأقف عند كل نقطة أوردها الكاتب ليكون كل إنسان على بينة من مقدرة هذا المخلوق على التزييف والكذب والاختلاق والجرأة الوقحة فى التهجم على النبى ﷺ وصحابته وتاريخهم الناصع الكريم . لقد جعل من سلمان أحد كتّاب الوحى ، مع أنه لم يكتب الوحى قط . أكثر من هذا أنه لم

---

(١٩) أى يتشفع فى سلمان .

(٢٠) الرواية / ص ٣٦٥ - ٣٧٥

(٢١) انظر ابن هشام / السيرة النبوية / حـ ١ / ص ٢٠١

يكن بين كتاب الوحى أعجمى واحد ، بل كلهم كانوا عربا [٢٢]
كذلك جعل المؤلف يرتد قبل فتح مكة ، وذكر من بين الأسباب الهامة التى دفعته بعيدا عن النبى والإسلام اتخاذ الرسول أكثر من أربع زوجات [٢٣] ، وموافقته عليه السلام أهل « الجاهلية » على الصفقة التى عرضوها عليه ، وهى ذكر آلهتهم بخير فى قرآنه ، مما كانت نتيجته آيتى الغرانيق اللتين يجد فيهما اللات والعزى ومناة . فأما هذا السبب الأخير فهو (بغض النظر مؤقتا عن آيتى الغرانيق ، اللتين سنناقش قضيتهما بالتفصيل فيما بعد) لا يمكن بالنسبة لسلمان الفارسى رضى الله عنه أن يكون صحيحا ، لأن سورة « النجم » ، التى يقال إنها كانت تضم فى الأصل آيتى الغرانيق قبل أن يحذفهما الرسول عليه السلام ، قد نزلت فى مكة ، قبل الهجرة بزمن غير قصير ، أى قبل أن يدخل الإسلام بعدّة أعوام ، وبالتالى لم يعاصر نزول هاتين الآيتين المزعومتين ولاحذفهما ، فضلا عن

---

(٢٢) انظر ابن سيد الناس / عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير / مكتبة القدسى / القاهرة / جـ ٢ / ص ٣١٥ - ٣١٦ ، حيث بلغ بهم أربعين كاتبا .

(٢٣) يقول المؤلف على لسان سلمان الفارسى فى حق سيدنا رسول الله عليه السلام ما نصه : « إن الله قد أباح لماهوند أن ينيــ ... من النساء ما يشاء » ص / ٣٨٦ . وهو كما ترى كلام ساقط من كلام الأوباش لا يقوله سلمان الفارسى بل سلمان الهندى وأمثاله .

أن تكونا سببا من أسباب شكه وارتداده المدعيين . وأما بالنسبة لعدم التزام النبى عليه السلام بأربع زوجات كسائر المسلمين فالمعروف أن هذا التحديد لم ينزل به الوحى إلا فى السنة الثامنة للهجرة ، أى بعد فتح مكة بسنتين ، فكيف يكون هذا الأمر سببا فى شىء حدث قبل ذلك بسنوات (أقصد ردة سلمان المزعومة) ؟ أليس ذلك من أعجب العجب ؟ وعلى أية حال فإننا لم نسمع أن أحدا من المسلمين ، بل ولا من غير المسلمين من الذين كانوا يتصلون بالنبى ويعرفون أحواله ، قد اعترض على هذا الاستثناء الإلهى الخاص به ﷺ : لا سلمان ولا غيره . وكيف يمكن أن يدور ذلك فى خلد سلمان وقد كان من أشد الصحابة إيمانا وأحبهم للنبى عليه السلام وآثرهم لديه ، حتى لقد قال ﷺ فيه : « سلمان منا أهل البيت » ؟

كذلك لا يمكن أن يكون هذا الاستثناء دليلا على شهوانية الرسول عليه الصلاة والسلام أو عدم احترامه للتشريعات التى أتى بها . لقد تم التحديد المذكور فى أواخر حياته ﷺ ، وكان قد جاوز الستين وبنى بزوجاته جميعا ، فلم يتخذ بعد ذلك زوجة أخرى . ترى لو كان الرسول عليه السلام متدلّها فى حب النساء فلم حددهن أصلا بأربع ما دام لن يلتزم بهذا التحديد ؟ أكانت غايته أن يحرج نفسه بإصدار تشريع لا يلتزم به لكى يأتى سلمان رشدى وأمثاله فى آخر الزمان فيتخذوا من هذه المسألة

مطعنا فيه ومتكأ لتشكيك المؤمنين به ؟ أم يا ترى كان حتى ذلك الحين يجهل أنه مولعٌ بالنساء كما يدعى أعداؤه ؟ إن الرسول عليه السلام لو كان هو مؤلف القرآن ما أصدر هذا التشريع أبدا أو كان على الأقل ينسخه إذا وجد أنه لن يستطيع الالتزام به كما ظن قبلا . ثم ما الذى دفعه إلى إصدار هذا التشريع من الأساس وقد كان التعدد بلا ضابط عرفا متبعا ؟ أكان هناك حزب نسائى بين أتباعه يقوم بالضغط عليه ويلوح له بأنه لن يعطيه أصواته فى الانتخابات إلا إذا حدّد عدد الزوجات ؟ أم تمرّد عليه أحب أربع زوجاته إلى قلبه ، وخيرنه بين التحديد أو تركه واللحاق بأهله ؟ إن المعروف أنه خيرهن بين الرضا بالمعيشة المتقشفة التى كن يعشنها فى بيته أو أن يسرحهن سراحا جميلا ، فاخترن جميعا العيش معه بلا أدنى تردد ، وأولاهن فى ذلك عائشة الصغيرة ، التى ردد الكاتب البذئ حديث الإفك القديم ، مع أن قرارها هذا كاف وحده فى هدم هذه الفرية الرخيصة (وسوف نعود إلى هذه القضية فيما بعد) . وعلى أية حال فقد كان النبى ﷺ يستطيع ، ما دام نوى أن يصدر هذا التشريع ، أن يطبقه على نفسه ويروى فى الوقت ذاته غلة شهواته المزعومة بأن يطلق زوجاتهن كلهن ويستبدل بهن أربعا من أجمل بكارى العرب والعجم ، وبخاصة أنه لم يكن له من أية من أولئك الزوجات ولد يمكن أن يبقى عليها من أجله . ثم أن الذين يأخذون عليه

صلى الله عليه وسلم أنه اعفى نفسه من الالتزام بأربع زوجات يتناسون أن الوحي بعد ذلك بقليل قد نزل يحرّم عليه هو من دون المسلمين جميعا أن يستبدل بأي من زوجاته جديدة ، مما يدل على أنه عليه السلام كان له وضع خاص فى هذه المسألة ، فتارة يلتزم هو به ، وتارة العكس . بل لقد كان يلزم نفسه في بعض التشريعات الأخرى بأشياء ينهى المسلمين عنها . من ذلك مثلا الوصال فى الصيام ، إذ كان صلى الله عليه وسلم فى بعض الأحيان لا يفطر فى رمضان مع حلول المغرب ، بل يظل صائما إلى غروب شمس اليوم التالى . كذلك فقد صرح عليه السلام أنه ، مثل غيره من الأنبياء ، لا يورث ، وبالتالى فكل ما يتركه من متاع الدنيا وراءه فهو للمسلمين جميعا ، ليس لورثته على حبه الشديد لهم حق فيه . ثم إلى أين كانت زوجاته اللاتى كان سيطلقهن لو كان عليه أن يلتزم بأربع مثل سائر المسلمين سيلجأن بعد الطلاق وقد حرم القرآن أن ينكحهن أحدٌ بعده أبدا ؟

أما ما نسبه المؤلف إلى سلمان الفارسى من كلام يتعلق بالنساء وكيف أن على المسلم أن يوجه وجهه مع الريح إذا فسا فهو كلام أليق بسلمان الهندى لا بسلمان الفارسى ، فسلمان الفارسى لم يكن سخيف العقل ، معتل الشخصية ، بذئ الفهم ، عدوانيا ، فظا ، وإنما السخيف العقل المعتل الشخصية البذىء الفم العدوانى الفظ هو سلمان رشدى . ومثل ذلك يقال فى

حكاية تحريم الجمبرى والهرش فى مواضع من الجسم معينة . أما الزعم بأن القرآن قد حرّم أن تعلو المرأة الرجل أثناء الجماع فهو كلام لا رأس له ولا ذيل [٢٤] . فالآية القرآنية قاطعة الوضوح فى هذا الشأن : ﴿ نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنّى شئتم ﴾ [٢٥] . أى أن كل الأوضاع الجماعية جائزة ما دام

---

(٢٤) سلمان رشدى يسخر هنا من الإسلام ، وهدفه إضحاك القارئ الأوربى وصرفه عن الصورة الحقيقية لهذا الدين العظيم وقيمه الحضارية الكريمة التى جاء لإرسائها فى الأرض وغرسها فى النفوس . لقد جاء الإسلام بدعوة الحرية: حرية الفكر والضمير ، وحرية التعبير وإبداء الرأى ، وحرية العقائد من الخرافات والأوهام . كما جاء بمبدأ المسئولية الفردية ، وخلّص البشر من الإحساس بالذنب على خطيئة لم يرتكبوها .. خطيئة غفرها الله منذ آزال سحيقة لمن اجترحها ، فكيف بمن لم يفعلها ؟ كذلك فتح الإسلام الباب بين البشر والله على مصراعيه ، فلا وساطة لكاهن أو قسيس . وأعلى شأن العلم والعلماء ، وجعلهم ورثة الأنبياء ، وجعل مدادهم وزان دم الشهداء فى كفة الحساب الأخروى . وقدّس العمل الصالح المفيد واعتمده أساسا من أسس النجاة فى الدنيا والآخرة . وسوى بين الناس ، فلم يتعصب لفرد على فرد ، ولا لطبقة على طبقة ، ولا لأمة على أمة ، بل البشر كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، وإنما التفاضل فيه بالتقوى والعمل الصالح . وجعل النظافة من الإيمان ولم يتجهم فى وجه الدنيا بل أباح طيباتها وقصر التحريم على الخبائث . واعترف بالغرائز البشرية فلم يتجاهلها وإنما وضع فقط قواعد تنظيم إشباعها تنظيما سليما صحيا نظيفا ... إلخ ... إلخ ، هذا هو الإسلام . أما حكاية الفساء والجمبرى وما إلى ذلك مما ذكره سلمان رشدى فهو هزل فى غير موضع الهزل ، ولن يوقف مد الإسلام الكاسح عن أن يغمر أوروبا (بما فيها المكان الذى يختبئ فيه رشدى الآن) بأمواجه المطهّرة .

(٢٥) البقرة : ٢٢٣

الجماع يتم بالطريق الطبيعى . إن يهود المدينة هم الذين أثاروا هذه المسألة وأرادوا بها أن يربكوا بعض المسلمين ممن كانت بينهم وبينهم أحاديث ومناقشات ، فزعموا لهم أن الرجل إذا جامع امرأته من خلف (الجماع الطبيعى) جاء الولد أحول ، فنزلت الآية الكريمة السابقة تضع حدا لهذا السخف والتنطع [٢٦] ، فأتى سلمان رشدى فقلب الأمر إرادة تشويه صورة الإسلام ونبيه ، وهيهات !

فإذا انتقلنا إلى موضوع حفر الخندق فإن سلمان الفارسى حين اقترح هذا الأمر لم يدر فى ذهنه أنه فارسى وحيد بين العرب ، وإنما دفعه إلى ذلك إيمانه بالله وحماسته لدينه وحبه لنبيه ولإخوانه المسلمين ، الذين كان يتهدد وجودهم ذلك العدوان الحقود الغادر من جانب أحزاب المشركين واليهود [٢٧] . كذلك

---

(٢٦) انظر تفسير النسفى لهذه الآية ، وكذلك تفسير ابن كثير وكشاف الزمخشرى على سبيل المثال .

(٢٧) الغريب المريب فى أمر سلمان رشدى هنا ، وكل أموره غريب مريب ، أنه لم يذكر اليهود وغدرهم فى غزوة الخندق وتآمرهم على طعن المسلمين فى ظهورهم طعنة قاتلة ، ذلك أنه يعرف أنه لو فعل لأدبه اليهود تأديبا يجعل منه مثلا وعبرة . أما المسلمون فإنهم للأسف جعجعة ولا طحن . لقد أفتوا بقتله فكانت النتيجة أنه اختبأ بعيدا عن متناول أيديهم . ولو كانت الإساءة فى حق غيرهم ما شغلوا أنفسهم بفتوى ولنفذوا فيه ما يريدون نحن أمة قوالة لا فعالة وغيرنا فعالون لا قوالون . لقد اقتفت المخابرات البريطانية أثر الجاسوسة الهندية إلى أقاصى الأرض فى الشرق الأقصى ، وكاد أن يتم لهم قتلها لولا أن فى عمرها بقية . وعلى كل حال فقد حطموها . ولا أظنهم سيتركونها .

لا يمكن أن يكون قد حاك فى قلبه شىء من عدم ذكر القرآن له ولما قدمه للإسلام والمسلمين فى هذه الغزوة ، فقد كان رضوان الله عليه يعرف جيداً أنه ليس من طبيعة القرآن أن يذكر اسم أحد ممن قدموا للإسلام والبشرية الأيادى الكريمة ، بل إنه لم يذكر من أسماء معاصرى النبى عليه الصلاة والسلام جميعا من مسلمين وغير مسلمين إلا زيدا (« زيدا » باسمه الأول فقط ، لا باسمه كاملا : « زيد بن ثابت ») وأبا لهب (وهذا لقب وليس اسما) . ولو كان من شيمة القرآن ذكر أسماء أبطال الإسلام وأصحاب التضحيات الجليلة لكان الأحرى به أن يذكر قبل سلمان خديجة رضى الله عنها ، زوجة النبى التى وقفت بجانبه فى وقت الخطر بمالها وجاهها وحبها وإيمانها وأقاربها ، وأبا بكر أول من آمن بالرسول عليه الصلاة والسلام من الرجال فضلا عن أنه أنفق ماله كله فى سبيل الله ، وحمزة ، الذى استُشْهِد فى ميتة مأساوية قل أن يوجد لها نظير فى تاريخ الإنسانية ، وعمر ، الذى كان إسلامه فتحا .... إلخ .

لقد كتبت فى هذا الموضوع فصلا ضمنته دراسة لى فى المقارنة بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوى الشريف ، وبينت فيه أنه فى الوقت الذى تكثر فيه فى أحاديث النبى ﷺ أسماء القبائل والأشخاص والأماكن فإن اتجاه القرآن العام هو ضرب الصفح عن ذلك ، وبخاصة فى أسماء معاصرى النبى

عليه الصلاة والسلام . وكنت قد قرأت عَرْضاً لأنيس منصور لهذه الرواية [٢٨] قبل أن تقع لى نسخة منها ، فكتبت تعقيبا على هذه النقطة ، وكان الأستاذ أنيس منصور قد أشار إليها ضمن ما لخصه من الرواية : « ووجه الخطأ هنا هو أن هذا الكاتب البذىء لم يفهم طبيعة الأسلوب القرآنى فى مسألة الأسماء ، فليس سلمان الفارسى هو وحده الذى لم يذكر اسمه القرآن ، بل الصحابة جميعا ، بل كل معاصرى النبى عليه السلام ماعدا اثنين (أحدهما مؤمن والثانى كافر) ، كما سبق بيانه . أما أحاديث النبى ، وهى أسلوب آخر كما قلنا أيضا وبيَّنا ، فقد احتفت بسلمان رضى الله عنه وكرمته ، إذ قال الرسول عليه السلام فى حقه : « سلمان منا أهل البيت » [٢٩] ، وليس بعد هذا تكريم . كما قال فيه هذه الكلمات التى تدل على مبلغ إعزازه له وحبه إياه : « سلمان جلدة بين عينىَّ » [٣٠] . ولست بحاجة إلى أن أقول إن شيئا مما زعمه سلمان رشدى إفكا من حقد هذا الصحابى الكريم النبيل على العرب والمسلمين لم

---

(٢٨) بعنوان « سلمان الكذاب . مؤامرة على الإسلام » / أخبار اليوم (٢٥ / ٢ / ١٩٨٩) / ص ٦ .

(٢٩) ابن هشام / السيرة النبوية / جـ ٣ / ص ١٣٤

(٣٠) انظر الشريف الرضى / المجازات النبوية / عيسى البابى الحلبى / ص ٢٢٣

يدُر فى نفس سلمان الفارسى ، ولا فعل رضى الله عنه أى شىء مما نسبه إليه زورا وبهتانا من تزوير للقرآن الكريم أو اختباء من النبى عليه السلام وخالد خوف القتل . لقد خلط خلطا شنيعا واجترأ على التاريخ وعظماته كما لم يجترىء عليه إنسان » .

ونصل الآن إلى ردة سلمان المزعومة وسببها المفْتَرىَ . وبطبيعة الحال لم يرتد سلمان الفرسى ولم يلحق بمعسكر الوثنية فى مكة [٣١] . وإذا كان سلمان رشدى قد جعل من هند زوجة أبى سفيان (وأم معاوية) زعيمة لذلك المعسكر وأبقاها وثنية إلى آخر حياتها ، بل وجعلها تنتصر على رسول الله ﷺ بأن قتلته سحرا ، فإن سلمان الفارسى كان أحد الشخصيات الهامة بين شيعة على (كرم الله وجهه) ، الذى وضعت الأقدار فى مواجهته ، معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه (ابن هند زعيمة الوثنية إلى آخر حياتها فى الرواية) . أريد أن أقول : قد أرقف هندا فى مواجهة الرسول فقد كان ينبغى عليه ، جريا

(٣١) من هنا يتبين أن ما قاله زهير على شاكر من أن سلمان الفارسى من المقدسات التى لا تمس عند سلمان رشدى غير صحيح . وهل هناك أسوأ من أن ينسب إليه كذبا العبث بالنص القرآنى والردة والمشاركة فى إدارة الماخور ؟ انظر زهير على شاكر / الغراب الأبيض أو ظاهرة سلمان رشدى / كتاب الهلال / عدد ٤٦٥ / سبتمبر ١٩٨٩ / ص ٩٧

مع هذه الفكرة إلى غايتها ، أن يجعل سلمان من الذين ظلوا مستمسكين بالتوحيد إلى آخر نفس فى حياته الكريمة المباركة ، حتى بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى زعيما معسكرى التوحيد والوثنية الأولان : الرسول عليه الصلاة والسلام وهند ، وخلف من بعدهما خلف كان على رأسه على (ابن عم الرسول وصهره) ومعاوية (سليل هند) ، ما دام سلمان قد أخذ جانب علىّ لا معاوية . (ولكنه سلمان رشدى ! ولا معقب .)

إذن فمن أين أتى سلمان رشدى بهذا الإفك المبين ؟ إن هناك رواية يوردها بعض المفسرين فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال : أوحى إلىّ ، ولم يُوحَ إليه شىء ، ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ (٣٢) قال ابن كثير : نزلت فى مسيلمة الكذاب وقال آخرون أن عبد الله بن سعد ابن أبى سرح كان يكتب للنبى ﷺ ، وكان إذا أملى عليه النبى « عزيز حكيم » كتب هو « غفور رحيم » فيوافقه النبى ، فشك وارتد ، ولحق بقريش وحكى لهم القصة ، ثم عاد إلى الإسلام قبل فتح مكة ، وقيل بعد فتحها (٣٣) . وأنا ، وإن كان بنفسى أشياء من هذه القصة

---

(٣٢) الأنعام : ٩٣

(٣٣) انظر هذه القصة فى تفسير الطبرى ، والنيسابورى ، والكشاف ، والنسفى . وليس فى الرواية أنه كان يكتب كلمة « اليهود » بدل « النصارى » كما زعم سلمان رشدى .

لأسباب سأبسطها بعد قليل ، أرى أن ابن أبى سرح بعودته إلى الإسلام قد حسم المسألة ، إذ إنه هو الذى رجع إلى محمد مقرا بذنبه تائبا نادما ، فكذّب بذلك نفسه ، وسجل عليها الخطأ ، وليس محمد هو الذى رجع عن دعواه أو تخلى عن دعوته . أما سبب عدم اطمئنانى لهذه الرواية فلأن هناك روايتين أخريين على الأقل فى سبب نزول هذه الآية ، إحداهما أن النضر بن حارث هو الذى قال : « سأنزل مثل ما أنزل الله » [٣٤] ، والآخرى أنه مسيلة الكذاب [٣٥] . ولا يعقل أن يقول ابن أبى سرح : « سأنزل مثل ما أنزل الله » مع أنه (طبقا للرواية) قد فعل ذلك وانتهى الأمر ، أى أنه كان المفروض ، لو كانت الآية فيه ، أن يجرى النص القرآني هكذا : ﴿ ومن أظلم ممن افترى كذبا ... ﴾ ومن قال : لقد أنزلت مثل ما أنزل الله مثلا ، وبخاصة أن نص كلامه على ما تقول الرواية هو : « إن كان محمد يوحى إليه فقد أوحى إلىّ ، وإن كان الله ينزله فقد أنزلت مثل ما أنزل الله » [٣٦] أو « لئن كان محمد ... صادق لقد أوحى إلىّ كما أوحى إليه ، وإن كان كاذبا لقد قلت كما قال » [٣٧]

---

(٣٤) انظر الكشاف والنسفى والنيسابورى .

(٣٥) انظر الطبرى فى تفسير الآية ، وإن كان هو قد اختار أنها عامة فى هذين وأمثالهما .

(٣٦) الطبرى فى تفسير الآية .

(٣٧) وهذا كلام ابن أبى سرح كما ورد فى النسفى .

بصيغة الماضى لا بصيغة المستقبل . وأيضا فإن العلماء يعدون من بلاغة القرآن اطراد التناسب بين موضوع الآية وختامها ، فإذا كانت فى التهديد والوعيد ختمت بـ « قويا عزيزا » مثلا ، وإذا كان المراد منها إدخال الأمل وبث الطمأنينة فى القلوب عقبت بـ « غفورا رحيما » أو ما أشبه . فكيف يقال إن النبى عليه السلام كان يوافقه على التعديلات التى كان يقترحها وهى تقلب ختام الآية من النقيض إلى النقيض !؟

ثم إن الرواية تمضى فتذكر أن القشة التى قصمت ظهر البعير فى حالة عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، أى السبب المباشر فى ارتداده ولحاقه بالمشركين ، هو أن الرسول عندما كان يملى قوله تعالى من سورة « المؤمنون » : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة ، وخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ [(٣٨)] وقبل أن يكمل الرسول عليه الصلاة والسلام الآية انطلق لسان ابن أبى سرح بالإعجاب بصنع الله قائلا : ﴿ تبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [(٣٩)] ،

---

(٣٨) المؤمنون / ١٢ - ١٤

(٣٩) وهناك رواية تقول إن عمر هو الذى سبق لسانه بهذه العبارة إعجابا بصنع الله . انظر ابن تيمية / الصارم المسلول على شاتم الرسول / مطبعة العاصمة بالقاهرة / ص ١٠٧ . وكذلك تفسير الزمخشرى والنسفى =

فقال له الرسول : « اكتبها فكذلك نزلت »[٤٠] . وسورة « المؤمنون » من السور المكية ، وقد نزلت بعد سورة « الأنعام » (التى فيها الآية محل بحثنا الآن) بعدد غير قليل من السور[٤١] وإن كانت بعض الروايات فى أسباب النزول تقول إن آية ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا .. ﴾ قد نزلت فى المدينة[٤٢] . فإذا قلنا إن « الأنعام كلها مكية (وهى كما قلنا قد نزلت قبل « المؤمنون » بعدة سور غير قليلة) فكيف ترد فيها آية تعقيب على ما حدث عند إملاء آية سورة « المؤمنون » التى نزلت بعد لأنعام بوقت طويل ؟ أليس هذا هو المستحيل بعينه ؟ أما إذا قلنا إن آية ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ... ﴾ هى من الآية المدنية التى فى سورة « الأنعام » ، فكيف صمت

= والنيسابورى للآية / ١٤ من سورة « المؤمنون » ، وإن كان النسفى يورد رواية أخرى بأن معاذا هو الذى سبق لسانه بتكملة الآية . والحقيقة أن ابن كثير مصيب فى رفض هذه الرواية ، لأن هذه السورة مكية ، وإسلام معاذ إنما كان فى المدينة .

(٤٠) الزمخشرى والنسفى فى تفسير الآية .

(٤١) انظر الإتقان للسيوطى / مصطفى البابى الحلبى / حـ ١ / ص ٣٣ - ٣٤ ، ومحمد الشرقاوى / القرآن المجيد / دار الشعب / ١٩٧١ / ص ٤٤ - ٥٦

(٤٢) انظر مثلا « الإتقان » / حـ ١ / ص ١٩ ، و « القرآن المجيد » / ص ٤٥

القرآن الكريم طيلة هذه السنين عن فعلة ابن أبى سرح ذكرها بعد أن كان قد رجع إلى رسول الله تائبا ؟ على رأى من قال إنها مدنية ، تتعلق بمسيلمة أيضا ، ومسيلمة تنبأ وافترى على الله الكذب فى أواخر حياة الرسول عليه السلام ، وابن أبى سرح قد عاد إلى الإسلام عند فتح مكة على أبطأ تقدير ، أى فى السنة الثامنة للهجرة قبل تنبؤ مسيلمة بنحو عامين ؟ وحتى لو لم يكن لها تعلق بمسيلمة فلماذا أخَّر القرآن التعقيب على فعلة ابن أبى سرح كل هذه السنين ؟ إن هذا أيضا غير معقول .

أيضا ، لماذا سكتت الرواية فلم تورد الحوار الذى لا بد أنه دار بين النبى عليه الصلاة والسلام (إذا كانت القصة صحيحة) ، والذى لابد أن يكون ابن أبى سرح قد دافع فيه عن نفسه بأنه إنما شك لموافقة النبى على التعديلات التى كان يجريها فى نصوص الوحى ؟ وأين شهود هذه الواقعة من الصحابة ؟ وماذا كان تعليقهم وموقفهم منها ؟ هذا ، ولابد أن القارئ قد تنبه إلى أنه ليس فى التعديلات التى تقول هذه الرواية المطعون فيها إن ابن سرح كان يحدثها فى النص القرآنى تعديل كلمة « النصارى » إلى « اليهود » ، كما يقول مؤلف « الآيات الشيطانية » بهتانا وإنكار . ولعلّ أصح الأقوال فى تفسير الآية قول الزجاج

إنها جواب لقول المشركين : « لو نشاء لقلنا مثل هذا ، فادعوا ثم لم يفعلوا »[٤٣] .

لقد عض سلمان رشدى بأسنانه على هذه الرواية المنقوضة ، وأنشب أظفاره فيها ، ولكنه لما يعرف أن اسم عبد الله بن أبى سرح لن يحدث التأثير المطلوب فى نفسية القارىء الأوربى ولن يرضى شهوته إلى تلطيخ الإسلام استبدل بابن أبى سرح سلمان الفارسى ، تلك الشخصية الشهيرة ، ليقول للناس : هذا هو واحد من كبار صحابة محمد يكتشف أخاديعه ويرتد عن دينه ويلحق بالمشركين ، ولا يعود إلى الإسلام إلا مكرها خائفا . وغنى عن القول إن المشادة التى ادعى المؤلف أنها وقعت بينه وبين إحدى مومسات الماخور وهو سكران إنما هى من يمادير الخمر التى كانت رائنة على عقل سلمان رشدى وهو يؤلف روايته ، فإن سلمان الفارسى لم يرتد ولم يذهب إلى مكة ، ولم يكن هناك ماخور فى هذا البلد بعد الفتح ، ولم يكن سلمان رضى الله عنه زانيا . لعن الله الأفاكين ! وكما افترى الكاتب على سيدنا سلمان الفارسى رضى الله عنه فى عقيدته افترى على هند زوجة أبى سفيان وأم معاوية فى عرضها ودينها معا . إن أبا سفيان (واسمه فى الرواية « كريم أبو سمبل ») يتهم

---

(٤٣) انظر الطبرى فى تفسير الآية .

بعلا (الشاعر الهجاء الشاب) بأنه ينيـ ... زوجته هندا [٤٤] ، التى يقول الكاتب عنها إنها قد نامت مع كل كتاب « الجاهلية » وإن لم يعد ينام معها منذ وقت طويل . وأصبحت هى التى تقود الحرب متنكرة فى ثياب الرجال . ويقول الكاتب إنه بسبب شبابها الدائم قد غفر الناس لها عهرها وثراءها الخرافى وسحقها لثورة الجياع عن طريق شرطتها . إن المؤلف قد استوحى فى رسمه لشخصية هند صورة اميلدا ماركوس ، فهو يذكر ملابسها وجواهرها وأحذيتها اللؤلؤية التى لا تحصى [٤٥] . ليس هذا فقط بل إنه يصورها ساحرة تحول الرجال الذين لا ينحنون أمام هودجها إلى ثعابين ، وتمسكهم من ذيولهم وتطبخهم وتتعشى بهم [٤٦] . وفى مشهد آخر نرى النبى عليه الصلاة والسلام فى الفراش عاريا من ملابسه تغطيه ملاءات السرير فى بيت هند ، وعندما يبدى استغرابه تقول له إنها قد التقطته بعد أن سقط فى شوارع « الجاهلية » كما يسقط السكران فى بالوعة المجارى

---

(٤٤) الرواية / ص ١٠٠ ويعزو والأستاذ زهير على شاكر فى كتابه « الغراب الأبيض أو ظاهرة سلمان رشدى » (ص / ٩٦ - ٩٧) هذه الصورة الملطخة لهند وأبى سفيان إلى أن سلمان رشدى قد تربى فى بيئة شيعية غالية . ولهذا السبب يرى الأستاذ شاكر أيضا أن الصور التى قدمها لسلمان الفارسى والخمينى وغيرهما هى صور زاهية . لكننا سنرى أن ذلك غير صحيح .

(٤٥) الرواية / ص ٣٦١ (٤٦) ص / ٤٦٠ .

وكان كما تقول الرواية ، قد قضى يوما شاقا فى الصعود إلى الغار والهبوط منه ، وفى محاولة تسكين ثورة أتباعه على قبوله صفقة « الجاهليين » ومدحه أصنامهم فى القرآن [٤٧] . ونراها تحاول أن تطعمه قطع الشمام فى فمه ، ولكنه يأخذها منها ويأكلها بنفسه . تمد يدها فى جيب جلبابه وتداعبه فى صدره مبدية استهانتها بزوجها ، وتصارحه بأنها تتخذ العشاق بعلم هذا الزوج [٤٨] . ونسمعها تقول له إنها لا تريده ضعيفا ، وإن هدفها الحرب لا السلام ، وإن إلهه إذا كان قد رضى واعترف بآلهتها الثلاث (اللات والعزّى ومناة) فأنهن لا يرضين أن يكن بناته بل أندادٌ له [٤٩] وعند الفتح تأتى هند إلى الرسول منقبة ، وترتمى عند قدميه ناطقة بالشهادتين ، وتقبل أصابعها إصبعا إصبعا ، ومفصلا مفصلا ، وتلعقها وتمصها فى شبق ، والرسول يصيح بها : « كفى ، فهذا خطأ ، إذ لا تصح العبادة إلا لله » . ويعفو عنها الرسول عليه الصلاة والسلام وهو شارد ، وإن كان قد أحس بالسخرية فى هذه القبلات [٥٠] .

وبعد الفتح تجلس هند نفسها فى علّية بقصرها عامين ويومين تتفرغ فيها لكتب السحر ، ثم تخرج من عزلتها وتطلب من

---

(٤٧) ص / ١١٩ (٤٨) ص / ١٢٠

(٤٩) ص / ١٢١ (٥٠) ص / ٣٧٤

زوجها أن يحتفل معها بالانتقام من ماهوند فلا يستجيب لها ، فتدعو الناس ولكنهم هم أيضا لا يلبّون . ثم يسقط ماهوند مريضا . ويتساءل ماهوند وهو فوق صدر عائشة وبصره ناحية المصباح : « من هناك ؟ أهو أنت يا عزرائيل ؟ » ، فتسمع عائشة صوتا نسائيا جميلا لكنه فظيع ؟ « لا ، يا رسول الله لست عزرائيل » . ثم ينطفئ المصباح فيقول ماهوند : « وهل هذا المرض منك أيتها اللات ؟ » ، فترد : « إنه إنتقامى منك ، وأنا سعيدة بذلك . فليعقروا جملا إذن ويضعوه فوق قبرك » ، ثم تنصرف ويعود المصباح فيقول ماهوند : « ومع ذلك فأنا شاكر لك هذه الهدية » . وتخرج عائشة إلى الحجرة الأخرى ، حيث تجد الجميع يبكون فتمسح دموعها وتخطب فيها قائلة : « من كان يعبد محمدا فليحزن فإنه قدمات ، ومن كان يعبد الله فليفرح فإنه حىّ لا يموت » (٥١) .

---

(٥١) ص / ٣٩٢ . ويقول الأستاذ زهير على شاكر فى كتابه « الغراب الأبيض » (ص / ٧٥) إن سلمان رشدى قد نسب إلى السيدة عائشة أنها فرحت لوفاة النبى . وهذا غير دقيق . إن سلمان رشدى قد أساء إلى النبى عليه السلام وآل بيته إساءات لا تغتفر ، بيد أنه لم يقل إن عائشة قد فرحت لوفاة الرسول عليه السلام . وإنّما قالت (فى الرواية) : « ... ومن كان يعبد الله فليفرح فإنه حىّ لا يموت » . وليس فى هذا ما يدل على أنها فرحت لوفاة النبى عليه السلام . وفوق ذلك فقد قال سلمان رشدى إن عائشة بعد أن خرجت من الحجرة التى توفى فيها الرسول الكريم قد « مسحت دموعها » ، بما يدل على أنها كانت تبكى ، والبكاء هنا دليل الحزن لا الفرح .

وهذا كله خلط وقح وكذب وافتراء شنيع ، فإننا لا نعلم أن هندا كانت عاهرة في الجاهلية . وقد كان ينبغي أن يكون هذا كافيا لعدم التعرض لعرضها . وحتى لو كانت ألمت بشيء في جاهليتها فإن الإسلام يجبّ ما قبله . لقد كان ردها حين أخذ الرسول عليه الصلاة السلام بعد الفتح منها هي ونسوة مكة البيعة على ألا يسرقن ولا يزنين ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ... إلخ « هو أن الحرة لا تزني » ، وهو رد له دلالته . أما أبو سفيان فمهما تكن قوة شكيمة زوجته حياله في بعض المواقف فهذا شيء وسكوته على خيانتها له في الجاهلية (لو كان قد حدث ذلك) شيء آخر مختلف تمام الاختلاف ، فهو عربي من أشراف مكة ، وقد كان العربي شديد الغيرة علي عرضه ، فضلا عن أن يرضى بذلك ، بله أن يعترف به على الملإ .

أما مشهد الفراش فقد جاوز فيه سلمان رشدى كل الحدود ، واجترح على سيد البشر من الافتراء ما كنا نظن أنه قد ذهب واندثر بانصرام العصور الوسطى بأحقادها وكذبها المفضوح . لكن المؤلف قد تفوق على أوربّيىّ تلك القرون المظلمة ، رغبة منه في إرضاء أحقادهم وإثبات أنه قد انسلخ من إهابه وأصبح واحداً منهم . إن عفة محمد ﷺ وشرفه لهما مضرب الأمثال . وليس يليق حتى من ألدّ مبغضيه والحاقدين عليه أن يتقول عليه

ﷺ هذه التقولات السوقية ، فهناك حدود للإنسان لا يصح مهما تنحط نفسه وأخلاقه أن ينزل عنها . إن هذا المظهر لهو بممثلات « السّكس » وممثليه أشبه وأليق ، أما محمد عليه الصلاة والسلام فهو من النبل بمكان لا تستطيع أعناق البشر أن تشرئب لتطلع إليه لسموّه رعلاه . إن ذلك كذب رخيص لا أدرى كيف تبتهج به أوروبا والشانئون للإسلام ونبيّه . إن محمد عليه الصلاة والسلام لم يسكر بل لم يذق الخمر فى حياته ولا مرّة ، ولو على سبيل التعرف والتجريب ، لا فى الجاهلية ولا بعد أن بعثه الله نبيا ورسولا . وإن ما قاله سلمان رشدى على لسان هند من أنها التقطت رسول الله عليه الصلاة والسلام بعد أن سقط فى شوارع الجاهلية كما يسقط السكران فى بالوعة المجارى لهو أصداء مشوهة من الافتراء الحاقد الأثيم الذى كان أهل أوروبا قديما يشنّعون به عليه ﷺ ، إذ كان قائلهم يقول : « إن محمدا قد مات فى نوبة سكر شديد ، وإن جسده وُجد ملقى على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير » [٥٢] ، فجاء سلمان رشدى فاستبدل بكوم الروث بالوعة المجارى ، مع تغيير إطار القصة المفتراه ، وهو مطمئن أن أهل أوروبا سوف

---

(٥٢) انظر د . محمد حسين هيكل / حياة محمد / ص . ١ ، وعبد الخالق سيد أبو راية / فى جولة مع المستشرقين / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة / العدد ١٥/١٧٩ صفر ١٣٩٦ هـ (فبراير ١٩٧٦ م) / ص ٢٢

يتلقون هذا الافتراء بالحبور ، لأنه يتناغم مع ما ترسب على مر القرون فى ضمائرهم وقلوبهم .

ولا يكتفى المؤلف الشاذ بمشهد الفراش ، وإنما يتبعه كما رأينا بمشهد آخر هو مشهد القبلات الشبقة الذي تنكبّ فيه هند على قدمى رسول الله وتقبل في شهوانية محمومة أصابعهما ومفاصل هذه الأصابع إصبعا إصبعا ومفصلا مفصلا . وهومشهد يضارع مشهد الفراش إثما وافتراء ، فإن شيئا من ذلك لم يحدث ، ولا يمكن أن يحدث أو حتي يدور إلا بذهن شخص شاذ فاقد الحياء والمروءة .

وعلى أية حال فها هو ذا ما حدث حين أعلنت هندا إسلامها وقبله منها الرسول عليه السلام رغم فعلتها الشنعاء بعمه وحبيبه حمزة بن عبد المطلب في غزوة أحد . جاء فى تفسير الكشاف للآية / ١٢ من سورة « الممتحنة » « أن رسول الله ﷺ لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال أخذ فى بيعة النساء وهو علي الصفا ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه ، وهند بنت عتبة امرأة أبى سفيان متقنعة متنكرة خوفا من رسول الله ﷺ أن يعرفها ، فقال عليه الصلاة والسلام : أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئا . فرفعت هند رأسها وقالت : والله ، لقد عبدنا الأصنام ، وإنك لتأخذ

حلينا أمرا ما رأيناك أخذته علي الرجال . تبايع الرجال على الإسلام والجهاد . فقال عليه الصلاة والسلام : ولا يسرقن . فقالت : إن أبا سفيان رجل شحيح ، وإنى أصبت من ماله هنات . فما أدرى أيحل لى أم لا ؟ فقال أبو سفيان ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال . فضحك رسول الله ﷺ وعرفها ، فقال لها : وإنك لهند بنت عتبة ؟ قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبي الله ، عفا الله عنك . فقال : ولا يزنين . فقالت : أو تزنى الحرة ؟ (وفى رواية : ما زنت منهن امرأة قط) . فقال عليه الصلاة والسلام : ولا يقتلن أولادهن . فقالت : ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا ، فأنت وهم أعلم . حنظلة قد قُتل يوم بدر ، فضحك عمر حتى استلقى ، وتبسم رسول الله عليه وسلم ، فقال : ولا يأتين ببهتان . فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق . فقال : ولا يعصينك فى معروف . فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شيء . وقيل فى كيفية المبايعة : دعا بقدح من ماء فغمس فيه يده ، ثم غمس أيديهن . وقيل صافحهن وكان على يده ثوب قطرى وقيل : كان عمر يصافحهن عنه » .

فكما ترى ليس فى القضية أن هندا أكبت على قدمى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فضلا عن أن تكون قبّلت قدميه . ودعك

من الشبق وإحساس الرسول عليه السلام أن هندا كانت تستهزىء به فى كل ما فعلته . بل إنه لم يحدث أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد لمس أحدا من النسوة المبايعات مجرد لمس . ثم إن هندا هنا امرأة صريحة وجرأتها على خوفها الوقتى ، فأفلت من لسانها م ادل على هُويتها . وقد أعلنت بنفس هذا اللسان الصريح أنها وزميلاتها ما جلسن ذلك المجلس وفى أنفسهن أن يعصينه فى شىء ، مما يدل على أنها أستبانت لها حقيقة الإسلام وزيف الوثنية ، وأن إعلانها الإسلام كان خالصا من الغش [٥٣] .

والمعروف أن هندا قد دخلت كما قلنا فى الإسلام دخولا نهائيا . ومع ذلك فإن الكاتب يكذب هنا أيضا فيجعل إسلامها مداهنة وخداعا وشهوة شبقة ، ويصورها وقد عكفت على كتب السحر فى عليّة لها فيها قصرها حتى استطاعت آخر الأمر أن تقتل محمدا بهذا السحر ، ويد اللات إلهتها (كما مرّ) ، أى أن الوثنية قد انتصرت على الإسلام ، وأن محمدا لم يمت ميتة طبيعية ، بل قتلته هند ، التى يقول المؤلف إنها لم تغادر الوثنية البتة ، بل ظلت إلى آخر نفس فى عمرها تنافح عنها إلى أن تمكنت

---

(٥٣) أورد الطبرى هذه القصة فى تفسير الآية نفسها مع بعض الإيجاز والاختلاف والطفيف ، ومع التأكيد فيما أورد من روايات أخرى متعلقة بتفسير الآية على أنه عليه السلام ما صافح أحدا من النساء .

فى النهاية من الإسلام ورسوله . ولست بحاجة إلى القول إن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل هى خيالات كاذبة . وفوق ذلك فلم يكن الصحابة بالذين يمكن أن يعقروا جملا ويضعوه فوق قبر الرسول ، فقد كان هذا من صنيع الجاهلية وتقاليدها الوثنية التى حطمها السلام ، مع اللات ، التى طلبت هذا على رواية المؤلف المفتراة ، وكذلك العزى ومناة وهبل والأصنام جميعا . إن من المضحك أن يسند المؤلف إلى اللات ، وهى صنم من الأصنام لا يملك ضرا ولا نفعا ولا يفقه مما يقال فضلا عن أن يقول هو حرفا ، أنها هى التى قضت على النبى بإيعاز من هند . بيد أن هذا الأمر المضحك هو نفسه الذى يتلقاه أهل أوروبا بالرضا والحُبور ، لأنه يراد به التنقيص من قدر محمد ﷺ ، وهيهات ! إن المقصود بذلك هو الرمز إلى أن الوثنية هى التى قهرت الإسلام . ولا أدرى وايم الله كيف يمكن أن يجرؤ كاتب ، أياً ما يكن جنس ما يكتبه ، أن يغالط فى التاريخ والواقع الذى يفقأ الأعين هذه المغالطات التى لا تعرف الحياء .

كذلك لا أظن أحدا يجهل أن قائل : « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله ومن كان يبعد الله فإن الله حى لا يموت » إنما هو أبو بكر لا ابنته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها كما جاء فى « الآيات الشيطانية » ، فضلا عن الإضافات التى أدخلها الكاتب على كلام أبى بكر ، وإن لم تكن من الخطورة بمكان .

وإذا كان المؤلف قد جعل الغلبة للات على رسول الله ﷺ رمزا على انتصار الوثنية على الإسلام انتصاراً نهائيا فقد مهّد لذلك بجعله الحياة فى الجاهلية تجرى بعد الفتح فى السرّ على ما كانت تجرى عليه قبله . ولم لا ؟ ألم يكن مبعث ركوع الجاهليين أمام ماهوند وترديدهم الشهادتين هو مجرد رغبة منهم فى أن ينقذوا أنفسهم من القتل ؟ [٥٤] وعلي هذا فإن أهل الجاهلية سرعان ما أخذوا يترددون على إبراهيم الجزار ليشتروا منه لحم الخنزير من الباب الخلفى لدكانه سرا . وكذلك كان موسى النقال ينتهز كل فرصة تسنح ليصلى للأت ومناة [٥٥] أما الخمر فإنه حتى سلمان الفارسي كان يشربها فى الماخور مع بعل كما جاء فى الرواية . ويبقى الزنا . وهل هناك أدل على بقائه وانتشاره من أن يقوم له ماخور مشهور سماه المؤلف ، نكاية فى الرسول وزوجاته المحصنات النبيلات ، « بيت الحجاب » ؟ ألم يفرض القرآن الكريم على المسلمين أنهم إذا أردوا أن يسألوا زوجات الرسول شيئا فليسألوهن من وراء

---

(٥٤) الرواية / ص ٣٧٣

(٥٥) الرواية / ص ٣٧٨ ، ولاحظ كيف اختار للجزار والبقال اسمى اثنين من رسل الله عليهم الصلاة والسلام .

« حجاب » ؟ [٥٦] فجاء سلمان رشدى وجعل من « الحجاب » ، الذى جعله القرآن الكريم رمزا وسبيلا إلى الطهارة والصيانة والعفاف ، ماخورا للعهر والشذوذ والانحطاط . فهل بقى من الإسلام شىء استجاب له أهل الجاهلية ؟

أما ماخور « الحجاب » فهذا وصفه كما ورد فى الرواية ، مع الإيجاز : إنه عبارة عن عدة غرف على شكل متاهة يقوم بالخدمة فيها خصيان مثل عفاريت المصباح السحرى ، وتشرف عليه امراة يطلق عليها « مدام الحجاب » . ويستعيذ بعل بهذه المرأة فتعيذه بدافع من الحنين إلى الشباب [٥٧] . ويجىء رجال

---

(٥٦) الأحزاب / ٥٣

(٥٧) الواضح أنها هند ، التى جعل ابنتها هى أيضا عاهرة فى بيت الحجاب . وأظن أن المعنى الذى يريده سلمان رشدى واضح . هذا ، وسوف أبين بعد قليل أن مدام الحجاب هى خليط من هند وامرأة على اسم السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها .

وحرىّ بالذكر أن ملاحظة زهير على شاكر بأن سلمان رشدى لا يذكر فى روايته خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها إلا بكل احترام وتبجيل هى ملاحظة غير سليمة ، فها هو ذا سلمان رشدى يخلط بينها وبين هند فى شخصية « مدام الحجاب » رئيسة الماخور ، فضلا عن أنه جعلها بالنسبة للرسول ، ضمن ماجعلها ، كاهنة ، مما بينت كذبه فى موضع آخر من هذه الدراسة ، وهو ما لم يذكره الأستاذ زهير ، الذى اكتفى بالقول بأن سلمان رشدى جعلها للنبى أمًّا وزوجة ومعينة ورفيقة ، ونسى أنه جعلها « كاهنة » أيضا . انظر « الغراب الأبيض أو ظاهرة سلمان رشدى » / كتاب الهلال / العدد ٤٦٥ / سبتمبر ١٩٨٩ / ص ٩٦ .

الشرطة للبحث عنه فيدوخون من اللف والدوران داخل المتاهة ومن التفتيش فى الجرار التسع والثلاثين ، ولكنهم لا يجدونه ، فينصرفون وهم لا يعرفون أن هناك ممراً آخر هو الممرّ الأربعون ، (٥٨) حيث يختبىء بعل . وتُهْدم اللات فيصاب بعل بصدمة ، ولكنه سرعان ما يفيق منها ، ويحس أنه كان يعبد أكذوبة (وإن لم يجعله ذلك يؤمن بنبوة ماهوند) ، ولم يعد يخاف الموت . وعندما يغمغم موسى بانتقاد ماهوند لتزوُجه باثنتى عشرة زوجة واستثنائه بذلك نفسه من التشريع العام يتبلور فى ذهنه الشكل الذى سيتخذه صدامه مع الإسلام ، أما عاهرات الحجاب فتتراوح أعمارهن بين الخمسين والخمسة عشرة ، ويقضين الوقت فى مداعبة بعل حتى ينتصب ذكره . وتخبره إحداهن أن موسى البقال يكثر من الانتقاد لماهوند ونسائه ، وأنه يرى فيها صورة عائشة ، وأن رجّال الجاهلية ليس لهم حديث إلا عن زوجات الرسول ، مما دفع ماهوند إلى منعهن من الخروج ، وهو ما جعل اهتمام الرجال بهن وتفكيرهم فيهن يقوى ويشتد . ويسأل بعل هذه المرأة : ولماذا لا تجعلين من نفسك عائشة الخاصة به ؟ فتجيبه قائلة : إنهم لو سمعوك تقول هذا فسوف يطبخون خصيتيك فى الزيد.

---

(٥٨) هنا تأثر واضح بقصة « على بابا والأربعين حرامى » .

ويسأل الراوى : كم زوجة ؟ وتكون الإجابة : اثنتا عشرة ؛ وسيدة عجوز ماتت . ويكون السؤال بعد ذلك : وكم عاهرة وراء الحجاب ؟ ويكون الجواب كذلك : اثنتا عشرة أيضا ، فضلا عن مدام الحجاب [٥٩] ويقترح بعل على رئيسة الماخور تسمية العاهرات بأسماء زوجات ماهوند ، فتوافق على شرط التزام الحذر . ويصف سلمان رشدى العاهرة التى سمّيت باسم عائشة ، فنرى أنها نفس أوصاف أم المؤمنين السيدة عائشة زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإن كان قد أشار إلى عفة الأخيرة صراحة . ونفس الحال مع العاهرة المسماة « سودة » ، وتلك المسماة « حفصة » ، وهلم جرا ، ولم يُعف المؤلف الشاذ أم المساكين زينب بنت خزيمة من هذه السفالة فجعل لها سميّة فى الماخور ، رغم أنها رضى الله عنها كانت قد ماتت . ويجعل من العاهرة المسماة باسمها مقصد المبتلين بأحط أنواع الشذوذ الجنسى ، وهو شذوذ مضاجعة الموتى ، الذى كانت تلك العاهرة تشبعه لدى قُصّادها بالتزام الصمت والسكون التامين أثناء ممارسة الجنس معهم بناء على رغبتهم الشاذة ، فكأنهم بذلك يجامعون امرأة ميتة .

---

(٥٩) واضح أن الإشارة هنا إلى السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها أى أن « مدام الحجاب » ترمز لهند وامرأة على اسم السيدة خديجة معا . وهو رمز وقح بذئ سفيه .

وتهمس العاهرة ذات الخمسة عشر عاما فى أذن موسى البقال ، فتبرق عيناه ، ويطلب منها أن تحكى له كل شئ عن طفولتها ولَعِبها ، وكيف كانت تنقر على الدّفّ عندما أتى ماهوند لمشاهدتها . كما طلب منها أن تقص له كيف تمّ افتضاض بكارتها وهى فى الثانية عشرة فيكون ما أراد . وفى النهاية يدفع لها أجرتها وينصرف ، وواضح ما هو اسم العاهرة وماذا يريد المؤلف أن يقول . وهذا مجرد مثال .

وتقول الرواية إنه عندما شاع خبر اتخاذ العاهرات أسماء زوجات ماهوند اشتد هياج الرجال ، ولكنهم أخفوا هذا خوفا من أن يقتلهم ماهوند . وتتزوج العاهرات صوريًا من نافورة الحب التى كانت قائمة فى فناء الماخور . ثم يقول المؤلف انهن أصبحن يفكرن فى أنفسهن بوصفهن زوجات النبي ، ويتزوجن بعلا (الذى أصبح قواد الماخور) زواجا صوريا أيضا ، ويشترطن عليه (رغم صورية الزواج) أن يمرّ كل ليلة على واحدة منهن ، ثم يطالبنه بأن يتسمى هو أيضا باسم « ماهوند » ما دمن هن قد تسمَّين بأسماء زوجاته [٦٠] والمعنى وراء كل

---

(٦٠) لم يكن د . نبيل السمان دقيقا إذن حين قال إن الرواية تظهر ولع الرسول ﷺ بالمومسات اللاتى أصبح بيته ماخورا لهن . فالماخور ، كما هو واضح ، شئ آخر غير بيت الرسول عليه الصلاة والسلام . والذى يعاشر المومسات إنما هو الشاعر الجاهلى « بعل » ، وإن كان قد تسمى هو أيضا =

ذلك واضح . ولذلك فلا غرابة أن يجعل المؤلف « بعلا » صورة لما كان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام فى علاقته بنسائه : فهؤلاء الزوجات الصوريات يتسابقن إلى إرضاء « بعل » ، وفى مرة يهجرهن شهرا ، وفى اليوم التاسع والعشرين يذهب إلى عائشة فتداعبه بأنه لم يستطع أن يصبر إلى نهاية الشهر ، وفى مرة أخرى تجده حفصة فى بيت مارية القبطية ... إلخ . وتستيقظ فى « بعل » موهبته الشعرية القديمة فينظم أجمل الأشعار ، وحين يفيض عليه الإلهام الشعرى يحس أنه قد أصبح شخصين : أحدهما نائم ، والآخر قائم .

ويكتشف أحد المترددين على الماخور حقيقة « بعل » فيصيح بذلك . ويستدعى « بعل » سلمان ويعكفان على الخمر ويخبره سلمان أنه قد اقتصد مما كسبه فى خلال العامين الماضيين من كتابة الخطابات الغرامية التى يسطرها على لسان طالبى المتعة إلى عاهرات الماخور وغير ذلك ما يكفيه للعودة إلى بلاده [٦١] . ويمضى فيحكى لبعل ما سمعه من خلاف بين

= باسم « ماهوند » . ومع ذلك فإن مقصد الكاتب الدنس واضح لا تخطئه العين انظر د . نبيل السمان / همزات شيطانية وسلمان رشدى / دار الإسراء / القاهرة / ١٩٨٩ / ص ٣٨ .

(٦١) وفى النهاية يغادر « الجاهلية » مع إحدى القوافل متجها إلى بلاده ليظهر بعد ذلك فى العصر الحديث فى لندن فى معية الإمام الخمينى / الرواية / ص ٢٠٩

عائشة وماهوند حول زوجاته الأخريات ، فماهوند يعزو كثرة عددهن إلى مصلحة الدعوة والحاجة إلى تمتين علاقاته السياسية بالقبائل المختلفة ، ولكنها لا تنخدع بهذه الحجة ، فيدخل كالعادة فى غيبوبة ويخرج منها بوحى مفاده أن الله قد سمح له بأن ينيــ ... من النساء ما يشاء . ويأخذ « بعل » جانب ماهوند قائلا إن ماهوند لا يستطيع أن يرفض ما تعرضه عليه القبائل من الزواج ببناتها . كما يشرح أهمية الحجاب بقوله : إنه لممّا يلوث سمعة زوجات ماهوند أن يتعرضن للقيل والقال إذا بارحن بيوتهن ، فيجيبه سلمان قائلا : إنك تخرف . وتبدو على « بعل » فعلا أمارات السكْر .

ثم يأتى ذكر حادثة الإفك ، ويسخر سلمان من الرسول وعائشة قائلا إن ماهوند قد لجأ إلى حبيبه المدلّل جبريل ، الذى قام بتبرئة عائشة . وفى هذه المرة لم تعترض عائشة على الوحى [(٦٢)] .

وتنتهى الفترة الانتقالية التى سُمح فيها للمواخير أن تظل فاتحة أبوابها ، فتطلب كبيرة الماخور من قائد الشرطة أن يبتعد بجنوده حتى يخرج مَنْ فى الحجاب ، ثم تخرجهم من الباب

---

(٦٢) يقصد أنها قالت له فى مرة : « إنى أرى ربك يسارع فى هواك » انظر مثلا / الزمخشرى فى تفسير الآية / ٥٠ من سورة « الأحزاب » .

الخلفى بعد أن أعفتهم من دفع الأجرة . وتموت الرئيسة ، فيكون رأى عمر أنه لابد من معاقبة العاهرات ، ولكنهن يقاومن . ثم تستغيث المسماة بعائشة صارخة : يا زوجى ، أنقذنا . فتسأل الشرطة : من زوجها ؟ فيكذب : « بعل » قائلا : إنها مجرد كلمة لا تعنيها ، فيقبض عمر على خصيتيه ويعصرهما . وتنسى العاهرات أسماءهن الأولى ، ولا يستطعن مع ذلك أن يتذكرن أسماءهن الجديدة . فتسميهن الشرطة : الحجاب رقم ١ ، الحجاب رقم ٢ ، الحجاب رقم ٣ ... إلخ . وتنفجر الزنزانة بالمومسات ، اللاتى كانت أعدادهن قد ازدادت نتيجة الفصل بين الجنسين بناء على تعاليم « الإسلام : Submission » . ويقف أهل الجاهلية تحت نوافذ الزنازين ليغازلوا عاهرات الماخور . ويظهر « بعل » فى عمامة وسراويل ، ويغنى شعرا غزليا جميلا فى كل واحدة من بنات الهوى الاثنتى عشرة ، إلى أن ينتهى بعد اثنى عشر يوما . فيتنبه الناس إلى أنه قد ذكر أسماء اثنتى عشرة امرأة أخرى [٦٣] ، فيتحول مستمعوه المعجبون به إلى ناقمين عليه . وعندئذ يخلع عمامته ويكشف حليقته قائلا إنه لا يعترف إلا بقانون إلهة الفن أو إلاهاته الاثنتى عشرة ، فيُقبض عليه ، ويحضرونه إلى ماهوند ليقف

---

(٦٣) يقصد زوجات النبى عليه الصلاة والسلام .

النور فى مواجهة الظلام ، والصورة قبالة المرآة . ويأخذ فى الحديث عن زواجه من زوجات النبى الاثنتى عشرة ، فيتلوى المشاهدون من الضحك ، ويحاول رجال الشرطة إسكاتهم بالسيف والسوط . وعندما يصدر ماهوند حكمه بقطع رأس بعل يصيح هذا قائلا : إننا نحن البغايا والكتاب ذلك النوع من الناس الذين لا يمكنك أن تغفر لهم يا ماهوند . فيرد عليه ماهوند بقوله : إنه لا فرق عندى بين الكتّاب والعواهر [٦٤] .

ومن الواضح أن الكاتب يريد أن يقول إن الإسلام لم يغير شيئا فى حياة الجاهليين : فنطقهم الشهادتين كان دافعه الخوف على حياتهم ، وهم قد ظلوا يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر كما استمر البغاء منتشرا فى المواخير . وهذا كله غير صحيح بطبيعة الحال ، لقد رأينا هندا تعلن أنها ما جلست هى وزميلاتها أمام الرسول ليبايعنه وفى أنفسهن أن يعصينه . ولا أظن هذا منها كان تقية وخداعا ، فإن ردودها الأخرى تدل على أن طبيعتها الجريئة كانت ، رغم خوفها المؤقت ، حاضرة لم تتوار وإذا كان قد بقى فى نفس أبى سفيان شئ عشية دخوله فى الإسلام فإن هذه الرواسب سرعان ما زالت ، حتى إن بعض

---

(٦٤) انظر الرواية / ص ٣٧٦ - ٣٩٢

الروايات قد أسندت إليه هدم مناة [٦٥] كما أرسله رسول الله ﷺ مع المغيرة بن شعبة لهدم اللات ، صنم ثقيف ، بعد إسلامهم [٦٦] وكذلك ، جعله الرسول كاتبا من كتبته ، مما يدل على ثقته فيه واطمئنانه إليه [٦٧] . وقد اشترك أيضا فى غزوات الإسلام وفتوحه ، وكان له فيها مواقف عظيمة كريمة . وهذان بعدهما اللذان انتهت إليهما زعامة قريش ، فما بالك بمن دونهما من الأتباع ؟ ولقد كانت أمام مكة فرصة ضخمة ماكان ممكنا أن تفلتها لو لم يكن الإيمان قد خالط قلوب رجالها ونسائها ، وهى فرصة موت الرسول عليه الصلاة والسلام وارتداد كثير من العرب ، لكن كان لمكة موقف آخر ، إذ اشتركت مع سائر المسلمين فى محاربة المرتدين وإعادتهم إلى حظيرة الدولة والدين ، فعلام يدل هذا ؟

وبالنسبة للأصنام فقد حُطمت جميعها غداة الفتح ، ما كان منها حول الكعبة أو خارج أم القرى . ولم يسمع أن أحداً من أهل مكة ظل يصلى لشئ من هذه الأصنام بعد ذلك قط . فمن

---

(٦٥) انظر ابن هشام /حـ ١/ص ٧٩ ، و Shorter Encyclopaedia of Islam / مادة « مناة » / ص ٣٢٥ .

(٦٦) ابن هشام / حـ ٤ / ص ١٣٧ - ١٣٨ ، وسيد أمير على / روح الإسلام / حـ ١ / ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٦٧) انظر ابن سيد الناس / عيون الأثر / ٣١٥ - ٣١٦

أين إذن للكاتب بما قاله عن موسى البقاة ؟ (٦٨) من أين له أن أهل مكة كانوا يترددون على بائعى لحم الخنزير بعد الفتح ؟ إننى لا أذكر أننى قرأت فى أى مرجع أن أهل مكة كان بهم ميل إلى لحم الخنزير ، أو أن الخنزير كان يُذبح هناك أصلا .

أما الزنا فإن الإسلام لم يتسامح فيه يوما ، فكيف يزعم سلمان رشدى أن الرسول قد أمهل مواخير البغاء لفترة انتقالية؟ ومعروفة قصة ذلك الشاب الذى جاء إلى الرسول وأعلن إسلامه لكنه رغب أن يرخص له الرسول فى الزنا ، فما كان منه ﷺ إلا أن سأله : أترضاه لأمك ؟ أترضاه لأختك ؟ كل ذلك والشاب يجيب أنْ « لا » ، فبين له الرسول عليه السلام حينئذ أن كل الناس أيضا لا يرضونه لأمهاتهم ولا لأخواتهم أو بناتهم فعندئذ اقتنع الشاب ، وصفا قلبه ، وأسلم إسلاما كاملا لا شائبة فيه . فإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أبى إباءً قاطعا أن يرخص لشاب فرد بالزنا أول عهده بالإسلام ، فكيف تسول لأى إنسان نفسه الزعم بأن الإسلام قد رخص للمواخير أن تظل فاتحة أبوابها بعد الفتح لبعض الوقت ؟ وأين الروايات بذلك ؟ (٦٩) .

---

(٦٨) طبعا هو شخصية خيالية ، لكنى أتحدث عن المعنى الكامن وراءه .

(٦٩) إن الكاتب ومن وراءه لا يريدون الحق ، فالحق يقتلهم . إنما يقصدون تلطيخ الإسلام بالكذب .

والآن إلى الماخور ، الذى بلغت فيه وقاحة الكاتب وسفاهته مبلغا شنيعا . إنه يريد أن يقول إن محمدا شهوانى لا يستطيع أن يسيطر على شبقه إلى النساء ، وإن الرجال كانوا يشتهون بدورهم زوجاته ، ففرض عليهن الحجاب ، الذى أتى بنتيجة عكسية ، إذ زاد اشتهاء الرجال لهن حتى لقد بلغ من غرامهم بهن أن جعلوا ماخورا يضم نسوة بعددهن لهن أسماؤهن وصفاتهن الجسديه والنفسية ، ليعوضوا بذلك حرماتهم منهن . وهناك فقرات فى حديث الكاتب عن الماخور يشمئز منها كل ذى طبع سليم ، مؤمنا بمحمد كان أو كافرا .

لقد ذكر أن بعض المسلمين الذين لا يفقهون قد قال بعد نزول آية الحجاب ، وهى تقضى بألا يكلم أحد من زوار الرسول عليه السلام زوجاته إلا من وراء حجاب : أَتُنْهَى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد لأتزوجن عائشة . فأنزل الله أن ذلك محرم . وذلك فى قوله عز وجل : ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه بعده أبدا ﴾ (٧٠) كما ورد فى رواية أخرى لا أدرى مبلغها من الصحة أن عيينة ابن حصن دخل على النبى ﷺ وعنده عائشة من غير استئذان .

---

(٧٠) انظر الزمخشرى فى تفسير الآية ٥٣ من سورة « الأحزاب » . وفى تفسير الطبرى للآية شئ قريب من ذلك .

فقال رسول الله ﷺ : يا عيينة ، أين الاستئذان ؟ فقال : يارسول الله ، ما استأذنت على رجل قط ممّن مضى منذ أدركت ثم قال : من هذه الجميلة إلى جنبك ؟ فقال : هذه عائشة أم المؤمنين . قال عيينة : أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق ؟ [٧١] فقال عليه السلام : إن الله قد حرّم ذلك . فلما خرج قالت عائشة : من هذا يا رسول الله ؟ قال : أحمق مطاع ، وإنه على ما ترين لسيد قومه » [٧٢] فهذا كل ما هنالك مما يمكن أن يكون المؤلف قد استند إليه في فكرة « الماخور » ولكن شتان بين الأمرين ، فإن إبداء بعض من لا يفقهون من المسلمين رغبتهم في الزواج من هذه أو تلك من زوجات النبي بعده شئ وهذا الهوس الشاذ الذي أصاب أهل « الجاهلية » جميعا في الرواية ، وجعلهم يسمون على أسماء زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام اثنتى عشرة عاهرة ، فضلا عن السفالات التي قادها سلمان رشدي في أثناء ذلك ، متخيلا أنه يمكن أن يستتر خلف التظاهر بالحديث عن العاهرات ، وهو في الحقيقة يقصد

---

(٧١) لعله يقصد أنه على استعداد لأن يبادله بأى شئ يطلبه فى مقابل السيدة عائشة ، رضى الله عنها .

(٧٢) الزمخشرى والنيسابورى فى تفسير الآية ٥٢ من سورة « الأحزاب »

إيذاء الرسول عليه الصلاة والسلام وزوجاته العفيفات الشريفات رضى الله عنهن هو شئ آخر تماما .

وبالنسبة لبعل ، فالمعروف أنه لم يكن بين الشعراء الكفار الذين كانوا يهجون النبى عليه الصلاة والسلام من اسمه « بعل » وأقرب ما يفد إلى الذهن أن يكون المؤلف قد قصد به عبد الله ابن خطل ، وكان قد أسلم ، فاستعمله الرسول على الصدقة ، وأصحبه رجلا يخدمه ، فغضب على هذا الرجل لكونه لم يصنع له طعاما أمره بصنعه ، فقتله ثم ارتد وسرق إبل الصدقة ، وزاد فأخذ يقول الشعر يهجو به رسول الله ﷺ ويحرّض على الإسلام والمسلمين . ولا يكتفى بذلك ، بل يأمر جاريتيه أن تغنياه . وقد أمر النبى عليه الصلاة والسلام بقتله ، وقُتل فعلا [(٧٣)] ومن الواضح أن الشعر فى حد ذاته لم يكن هو سبب إدانته ، فقد ارتكب جريمة قتل ، وخان الدولة التى ائتمنته وولته بعض أعمالها ، وسرق المال العام ، وخدع النبى عليه السلام واستهان به وبالمسلمين أجمعين .

أما ما نسبه المؤلف إلى النبى عليه الصلاة والسلام من أنه لا فرق عنده بين الكتاب والعاهرات فهو كذب وقح ، فليس

---

(٧٣) انظر ابن هشام / حـ ٤ / ص ٩ ، وابن تيمية / الصارم المسلول على شاتم الرسول / مطبعة العاصمة بالقاهرة / ١١٦

هناك بين الأنبياء والرسل والأديان من رفع شأن القلم والكتاب والعلماء كما فعل الإسلام ورسوله ، إذ أقسم القرآن بالقلم والكتابة [٧٤] ، والكِتَاب [٧٥] ، وجعل للعلماء مكانة لا تطاولها مكانة : ﴿ قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ ﴾ [٧٦] كما جعل الخشية الحقيقية لله هى خشية العلماء : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [٧٧] ، وإن العلم هو الشئ الوحيد الذى أمر الله رسوله أن يستزيد منه : ﴿ وقل : رب ، زدنى علما ﴾ [٧٨] ، وفضلا عن ذلك فقد جعل الرسول الأكرم العلماء ورثة الأنبياء [٧٩] ، وجعل فضل العالم على العابد كفضله عليه السلام على أدنى المسلمين ، وكفضل القمر على سائر الكواكب [٨٠] .

ولعل بعض من قرأ الرواية يظن المقصود هو أن الإسلام يحارب الشعر والشعراء . لكن القرآن واضح أشد الوضوح فى التفرقة بين شعر يراد به هدم الحق ومحاربته ، وشعر يراد به الخير أو الدفاع عنه . وهذا فى ميدان الحرب الشعرية التى كانت دائرة بين الإسلام والكفر [٨١] فليس الإسلام إذن ضد

---

(٧٤) القلم : ١ — (٧٥) الطور : ١ -٢ — (٧٦) الزُّمَر : ٩

(٧٧) فاطر : ٢٨ — (٧٨) طه : ١١٤

(٧٩) البخارى / علم / ١٠ — (٨٠) الترمذى / علم / ١٩

(٨١) انظر الآيات الثلاث الأخيرة من سورة « ص » .

الشعر فى حد ذاته ، بل هو ضد ثلب الأعراض والتحريض على الباطل فقط ، وإلا فإن الرسول عليه السلام هو نفسه الذى كان يشجع حسان بن ثابت بقوله : « اهج المشركين وروح القدس معك » [٨٢] وليس بعد معية روح القدس تكريم لدور الشعر حين يوظف فى الخير والصالح العام والمدافعة عن الحق .

ونأتى إلى حادثة الإفك ، التى أكثر فيها المؤلف من الغمز واللمز [٨٣] . ولا داعى لسرد قصة الإفك ، فهى معروفة ، ولكن العجب فيمن يظنون أنهم يستطيعون أن يجدوا فيها شيئا يمكن أن ينال من الرسول عليه الصلاة والسلام أو أم المؤمنين عائشة ، إن عائشة من بيت كريم نبيل . ولست أدرى كيف ساغ فى عقول هؤلاء أن مثلها يمكن أن تخون زوجها ؟!. وأى زوج ؟ إنه الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه . إن للبيوتات الكريمة كابحاً يكبح المنتسبين إليها والمنتسبات أن يأتوا ما يلوث سمعتها أو سمعتهم . ثم إن هذه فيما نعلم هى أول مرة تلتقى فيها السيدة عائشة بصفوان بن المعطل السُّلمى (وهو الرجل الذى عثر عليها فى الصحراء بعد ما خلفها الجيش ، فحملها على ناقته إلى المدينة) ، فهل من السهل أن تسلم امرأة فى

---

(٨٢) البخارى / بدء الخلق / ٦ ، ومغازى / ٣٠ ، وأدب / ٩١

(٨٣) الرواية / ص ٣٨٧

مثل هذه الظروف نفسها لرجل لم تعرفه قبل ذلك ، وبهذه السرعة ؟ وهل من الممكن أن يخون مسلم رسوله فى عرضه ؟ أو تخون زوجة الزعيم والنبى زوجها مع أحد من رعيته بهذه البساطة ؟ إن ذلك لو حصل لكان قمينا أن يهدم كل شئ فى حياة عائشة وحياة ذلك الصحابى ؟ فكيف ظل كلاهما على إيمانه بعد ذلك يا ترى ؟ ثم إن أحدا من ضرائرها لم يقرفها رضوان الله عليها وعليهن بسوء قط ، لا أثناء الشائعة الأثيمة ولا بعدها . أفليس لذلك مغزاه ؟ إن عائشة لو كانت قد خانت الرسول عليه الصلاة والسلام فمعنى ذلك أنها لم تكن تحبه ولاتجد عنده إشباعا لغرائزها وعواطفها . ترى لماذا لم تطلب الطلاق إذن عندما عرضه عليها وعلى سائر زوجاته أو يرضين بمستوى المعيشة المتواضع الذى تطلعن حينا إلى مستوى أرفه منه قليلا ؟ لقد اقترح عليه السلام أن تستشير والديها قبل أن تبت فى الأمر برأى ، ولكنها لم تستشر ولم تتردّد ، وكان جوابها من فورها أنها تريد الله ورسوله ولا تبالى زينة الحياة الدنيا . كذلك فإننا لم نسمع عنها ، رضوان الله عليها ، همسة ريبة بعد وفاته ﷺ وحرمانها بذلك حرمانا تاما من أى إشباع غريزى أو عاطفى ، وإلى الأبد ، إذ حرم القرآن أن تتزوج أى من زوجات الرسول عليه السلام أحدا بعده . لقد أسلمت نفسها (مثلها فى ذلك مثل سائر زوجاته عليه السلام) لهذا

الأمر الإلهى إسلاما تاما ، رغم أنها قد عاشت عشرات السنين بعد رسول الله ﷺ ، وكانت فى عز شبابها حين لحق بالرفيق الأعلى ، ولم يكن لها ولد يمكن أن يغنيها عن زوجها ، أو مال وفير تستعيض بما يحققه لها من معيشة مترفة عن هذا الزواج وعن أيامها معه . ثم كيف يمكن أن تخونه عليه الصلاة والسلام وهى التى كانت تغار عليه حتى من خديجة المتوفاة ، وأبدت فى تمريضه فى مرض وفاته من فنون الحنان والحب ما يدل على إخلاص ووفاء يعلوان فوق كل شك ؟

إن سلمان رشدى يقول إنها لم تعترض على الوحى هذه المرة حين نزل ببراءتها ، كأنها اعترضت عليه قبل ذلك . إن التعليق الذى علقت به ذات مرة على الوحى الذى نزل بالآية الخمسين من سورة « الأحزاب » لم يكن اعتراضا ولا تكذيبا ، ولكنه إن صح هو دلال الزوجة الغيور التى تريد أن تستأثر بزوجها وحبه ، ولو فقه المؤلف لكان هذا التعليق عنده دليلا لا يخطئ على حب عائشة العنيف لرسول الله ﷺ . ومثل هذا الحب كفيل بذاته أن يعصم صاحبته من أن تخون من تحب . لكن يبدو أن على بعض القلوب أقفالا ! وبعد ، أترى سلمان رشدى كان يتوقع من عائشة أن تعترض على الوحى الذى نزل يبرئها ؟ عجيبة !

وانظر إلى صدقها ، رضى الله عنها ، وهى تصور موقفها وموقف والديها حين تغشّى رسولَ الله الوحىُ وهو فى بيت أبى بكر يحاول أن يعرف منها الحقيقة . قالت : « فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه ، فسُجّى بثوبه ، ووُضعت له وسادة من أدم تحت رأسه . فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت ولا باليت . قد عرفت أنى بريئة ، وأن الله عز وجل غير ظالمى . وأما أبواى فوالذى نفس عائشة بيده ما سُرِّى عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس » [84] .

إنها لم تقل إن والديها كانا مثلها اطمئنانا ولا مبالاة ، بل ذكرت أن نفسهما كادتا تخرجان من الخوف والقلق . ذلك أنها كانت تعرف حقيقة أمرها ، أمّا هما فرغم حسن رأيهما فى ابنتهما فقد كانا غائبين لم يشهدا شيئا ، فلذلك خافا وقلقا . وهو دليل قوى على أنهما كانا يؤمنان بنبوة محمد وصدقه واستقامة ضميره ، وأنه لن يقول إلا الحق .

ثم إن العجيب النبيل من أخلاق رسولنا الكريم أنه لم يقتل بل لم يفكر فى قتل أى ممن أشاعوا تلك القالة الخبيثة فى حق

---

(٨٤) ابن هشام / جـ ٣ / ص ١٩ .

زوجته . إن كل ما فعله هو أن أمر بحدّهم حد القذف . ولم يتغير قلبه على حسان بن ثابت (وكان قد شارك فى الأمر بشعره) ، بل ظل يكرمه ويقربه إليه كما كان الحال قبلا . حقا تلك عليا مراتب الأنبياء !

* * *

ولعلّ أهم قضية تتصل بالإسلام والنبى عليه الصلاة والسلام فى هذه الرواية هى قضية « آيات الغرانيق » ، التى سماها المؤلف « الآيات الشيطانية » ، تلك التسمية التى جعلها عنوانا لروايته ، إشارة فيما يبدو إلى أن بعض علماء المسلمين القدماء ممن لا يدققون فيما يكتبون قد قالوا إن الشيطان هو الذى ألقاها على لسان النبى عليه الصلاة والسلام ثم نبهه جبريل إلى أنها ليست من القرآن [(٨٥)] ، أو إن الشيطان هو الذى صاح بها وظن المشركون أن الرسول ﷺ هو الذى قالها [(٨٦)] .

وفى الرواية نرى ماهوند يأتى إلى أتباعه ويخبرهم أن أبا سمبل (المقصود أبو سفيان) قد عرض عليه صفقة مؤداها

---

(٨٥) انظر مثلا الطبرى / تاريخ الرسل والملوك / دار المعارف/١٩٦١ / حـ ٢ / ص ٣٣٧ - ٣٤١ .

(٨٦) انظر ابن العربى / أحكام القرآن / عيسى البابى الحلبى / ١٩٥٨/ حـ ٣/ ص ١٢٩١

أن يعترف بأن اللات والعزى ومناة هنَّ وسطاء بين الله وعباده ، لقاء اعتراف الجاهليين بالمسلمين وضمهم إياه لمجلس المدينة [(٨٧)] ولكن خالدا السقاء (يقصد خالد بن الوليد) وسلمان وبلالاً يعترضون أشد الاعتراض على هذه الصفقة ، لأنها ضد دعوة التوحيد التى أتاهم هو نفسه بها ، ولأنها سوف تصغرّهم فى نظر قريش . ولكن ماهوند يحاول أن يفهمهم أن المسألة لا تستحق كل هذه الضجة ، فالتنازل المطلوب غير ذى بال . أما حمزة فإنه يقول للثلاثة فى غياب ماهوند إنه ليس إلا بشرا (مشيرا فيما يبدو إلى أنه من الممكن أن يضعف ويتنازل عن مبادئه) ، ثم يخبر ابن أخيه عند عودته أنهم لا يستطيعون أن يعطوه رأيا فى هذا الموضوع ، وأنه لابد له من الصعود إلى الجبل لمشاورة جبريل . وعندما يذهب ماهوند إلى جبريل نرى هذا يستغيث طالبا العون لأنه لا يعرف ما الذى يمكن أن يقوله لماهوند فى مشكلة الاختيار بين الوحدانية المطلقة والاعتقاد فى أن الأصنام تقرّب إلى الله زلفى .

---

(٨٧) لعله يشير إلى دار الندوة ، هنا ، ويبدو ما زعمه سلمان رشدى هنا بخصوص رغبة ماهوند فى الانضمام لمجلس المدينة صدى فنيا محرَّفا لما كان الأوربيون قديما يرددونه من أن محمدا ﷺ لم يكن إلا قسًا رومانيا غاظه أنه لم يُنتخب لكرسى البابوية ، فاخترع الإسلام اختراعا . انظر فى ذلك د . محمد حسين هيكل / حياة محمد / ص ١٠ .

وتقول الرواية إن ماهوند عندما قرأ سورة « النجم » بعد نزوله إلى الجبل وجاء إلى قوله : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى ؟ ﴾ مضى قائلا : تلك الغرانيق العلا * وإن شفاعتهن لترتجى ، وإن خالدا قد أصيب بصدمة فولى وجهه إلى مدينة « الجاهلية » وهو يبكى وتتساقط دموعه على الأرض فتثقبها .

ونرى ماهوند نائما فى الفراش فى بيت هند زوجة أبى سمبل وقد التف بأغطية من حرير ، وكانت قد التقطته (كما سبق أن أشرنا) من شوارع الجاهلية كالسكران . لقد قضى يوما مرهقا فى الصعود إلى الجبل والهبوط منه ، وفى مواجهة ثورة أتباعه على قبوله المساومة التى عرضها عليه أهل الجاهلية . وأخذت هند تطعمه قطع الشمام فى فمه ، وهو يصرّ أن يأكل بيده هو ، فتمد يدها فى جيب جلبابه لتداعبه فى صدره ، وتبدى له استهانتها بزوجها ، وتصارحه بأنها تتخذ العشاق بعلم هذا الزوج . ثم تمضى قائلة له إنها لا تريده ضعيفا ، وإنها لا ترغب فى السلام بل تريد الحرب ، وتؤكد له أن إلهه إذا كان قد تنازل وقبل الاعتراف بالإلاهات الثلاث فإنهن لا يقبلن أن يكنّ بناته ولا يرضين إلا بأن يكنّ أندادا له . وبعد أن يغادر بيتها تأتيها الأنباء بأن حمزة قد قتل إخوتها الثلاثة ، فتبحث عنه ، ولكنه كان قد أفلت واتخذ طريقه إلى الجبل .

ثم نرى ماهوند فوق الجبل يتصارع مع جبريل عريانين وقد جلس الجن والعفاريت والأشباح على كتل حجرية يتفرجون على المعركة . أما فى السماء فكانت هناك ثلاثة مخلوقات مجنحة: مرة هى ثلاثة من طيور مالك الحزين ، ومرة ثلاث بجعات ، ومرة ثلاث نساء (يقصد الغرانيق العلا) . وبعد ساعات أو ربما أسابيع تنتهى المعركة ، ويصبح ماهوند تحت جبريل . وحينئذ يبكى من الفرحة ، ويمدّ يده فيفتح فم جبريل ليخرج منه الصوت متدفقا . ثم يغرق فى نوم مرهق ليصحو منه سريعا على غير العادة ، صائحا فى الفضاء (وكانت المخلوقات التى تتفرج على المصارعة قد اختفت) أن الشيطان هو الذى تكلم بآيات الغرانيق ، وأنها من ثم آيات شيطانية لا إلهية . ولكن جبريل يقول له ما معناه : « وهل تظن أن هذا يجوز فى العقول ؟ إننى أنا الذى قرأت الآيات ، وأنا الذى محوتها فلم يَعُدْ لها وجود إلا فى بعض الروايات فى الكتب القديمة . وكلانا يعرف كيف يعمل فمى (يقصد أن محمدا هو الذى يفتحه ويُخْرج منه الكلام) .

ونرى بعد ذلك خالدا السقاء وأمثاله يشكون فى ماهوند بعد أن رأوه يُدْهن فى دينه ، بيد أنه ظهر لهم أنه أحكم منهم ، إذ بين لهم بطريقة عملية كيف يمارس الشيطان شره ، وكيف ينتصر عليه الخير . ومع ذلك فقد كانت آيات الغرانيق سببا من

الأسباب التى دفعت سلمان الفارسى (فى الرواية) إلى الارتداد عن الإسلام واللحاق بالمشركين .

أما جبريل فإنه بعد الهجرة يقف وحيدا فوق الجبل بعد أن تركه ماهوند ، ثم تهجم عليه من السماء الإلاهات الثلاث ، ويأخذن فى خمشه فى عينيه وجَلْده بشعورهن ، وهو يتقى بيده الضربات مغطيا بهما رأسه ، لكن عبثا ! (٨٨) .

وقد ساق المؤلف قصة آيات الفرانيق رداً على سؤال طرحه كمقياس يُعْرَف به مدى إخلاص صاحب الدعوة : أهو في وقت الضعف يتنازل عن مبادئه ويقبل المساومة ؟ أهو فى وقت القوة يقسو على أتباعه وينكل بهم ؟ (٨٩) ويبدو سلمان رشدى متذبذبا تجاه الرسول فيما يخص هذه المسألة . إن بيلى بطوطة (أحد أشخاص الرواية) مثلا يعلن أنه سينتج فلما عن مدينة من الرمال يعيش فيها نبى يتعرض لإغراء التنازل ، ولكنه يصمد فى وجه المساومة ، وأن هذا الفلم لن يكون كفلم « الرسالة » ، الذى يسمع فيه المشاهد صوت النبى محمد دون أن يراه ، مشاهدا فقط رأس ناقته وفمها يتحرك ، فى نفس الوقت الذى

---

(٨٨) الرواية / ص ١٠٥ - ١٢٦ . ويبدو أن الكاتب متأثر هنا بفيلم « الطيور » لهتشكوك .

(٨٩) الرواية / ص ٣٣٣ ، ٣٦٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٤٦٧

يتكلم فيه النبى . إن من الواضح أن بيلى بطوطة يتحدث عن الرسول محمد ﷺ . ومع هذا ، فإن اتجاه الرواية العام ، فضلا عن تكرر وصف الرسول عليه السلام بأنه رجل أعمال (businessman) [٩٠] ، وقول المؤلف عنه إنه أكثر الأنبياء براجماتية [٩١] ، كل ذلك يدل على أن المؤلف يرى أن الرسول عليه السلام قد فشل فى الاختيار . وها هى ذى قصة الغرانيق تبين أنه قد ضعف أمام إغراء أبى سمبل له وقبل الصفقة ، التى أحرجته أمام أتباعه ، ولم تُرض مع ذلك هندا ، إذ أعلنت أن إلهه إذا كان قد اعترف بالإلاهات الثلاث بنات له وقبل أن يكن وسطاء بينه وبين عباده فإن هؤلاء الإلاهات لايرضين بأقل من أن يكنّ له أندادا .

هذا فى حال الضعف . أما فى حال القوة فإنه عند فتح مكة قد تلذذ بركوع أهل الجاهلية له ، واستشاط غيظا ممّن لم يمثُلوا أمامه ويركعوا مع الراكعين [٩٢] ، مع أن الرسول بشهادات المستشرقين أنفسهم قد أبدى عند الفتح تسامحا وتساميا لم يُسْمَع بمثلهما من أحد من الغزاة الفاتحين . ولكن سلمان رشدى قد قصد منذ البداية قصدا أن يفسد ويسئ .

---

(٩٠) الرواية / ص ٩١ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٥٤ مثلا .

(٩١) ص / ٣٨١ (٩٢) ص / ٣٧٢

وقبل أن نناقش قصة الفرانيف أقف قليلا عند الترجمة التى أوردها سلمان رشدى لبعض آيات سورة « النجم » ، فقد سقطت من مطلع سورة « النجم » الآية السادسة ، ونصها : ﴿ ذو مرّة فاستوى ﴾ ، كما أن ضمير الغائب الفاعل فى قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ [٩٣] قد تحول عنده إلى ضمير متكلم (هكذا : « ولقد رأيته نزلة أخرى ») ، ومن ثم أصبح قوله تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ [٩٤] : ﴿ ما زاغ بصرى وما طغى * لقد رأيتُ من آيات الرب الكبرى ﴾ [٩٥] . وهو يترجم قوله تعالى : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ * تلك إذن قسمة ضيزى * إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم * ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ [٩٦] على النحو التالى :

Shall He have daughters and you sons * That would be a fine division * These are but names you have dreamed of , you and your fathers . Allah vests no authority in Them . » [٩٧] .

---

(٩٣) النجم : ١٣
(٩٤) النجم : ١٧ - ١٨
(٩٥) الرواية / ص ١١٤
(٩٦) النجم : ٢١ - ٢٣
(٩٧) الرواية / ص ١٢٤

وهى ترجمة غير أمينة ، فالجملة الأولى إنما تصلح ترجمة لقوله تعالى فى سورة « الصافات » : ﴿ ألكم البنات وله البنون ؟ ﴾ ، ولكنها لا تصلح ترجمة لآية سورة « النجم » . أما قوله سبحانه : ﴿ تلك إذن قسمة ضيزى ﴾ فقد تُرجم بما معناه : « تلك إذن قسمة حسنة » . كما تُرجم قوله تعالى : ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها ... ﴾ بما يفيد أنها « ليست إلا أسماء خلعتم بها » .

على من تقع مسؤولية هذه الأخطاء ؟ إن سلمان رشدى يقرر فى « صفحة الشكر » (فى آخر الرواية) أن ترجمة الآيات القرآنية فى كتابه هى خليط من ترجمة ن . أ . داود (وهو عراقى . ويبدو أنه يهودى) وترجمة مولانا محمد على (القاديانى) مع بعض لمسات من قلمه هو . المسؤولية إذن تقع عليه هو ، فإنه لم يكن مجرد ناقل من إحدى الترجمات القرآنية بل هو يختار ويمزج ويجيل قلمه عن وعى وقصد . لكن هل يعرف سلمان رشدى العربية واسترشد بها فى عملية المزج والتنقيح ؟ أم هل كان يقوم بذلك وهولا يعرف شيئا من لغة القرآن ؟ لا أدرى . وعلى أية حال ، فالترجمة كما رأينا غير أمينة .

وفى بداية مناقشتى لقصة الغرانيق لابد من القول إن سلمان رشدى هنا ليس إلا مردّدا لما يقوله المستشرقون بشأنها ، فإنهم يتهمون الرسول عليه الصلاة والسلام فى قوة إيمانه برسالته وبالواحدانية المطلقة التى هى محور هذه الرسالة متشبثين بقصة الغرانيق هذه ، فمثلا يستبعد ألفريد جيوم أن تكون هذه الرواية مصنوعة ، وإلا كان معنى ذلك أن المسلمين قد أرادوا الإساءة إلى الإسلام والرسول ، وهو ما لا يمكن أن يصدر عن المسلمين المخلصين كما يقول (٩٨) أما مكسيم رودنسون فإنه يورد القصة بشئ من التفصيل ، ثم يعقب عليها قائلا إن القرشيين عندما سمعوا تينك الآيتين سُرّوا سروا عظيما وسجدوا جميعا مسلمين ومشركين (٩٩) .

---

(٩٨) Alfred Guillaume , Islam , Pelican Books , 1964 , p 35.

(٩٩) Maxime Rodinson , Mohammed translated in to English by Anne Carter , Penguine Books , 1977 , p . 106 .
وانظر كذلك : E . D . Kellet , A Short History of Religion Gollancz London , 1921 , p . 337 ; Joseph Hubby , Christus : Manuel d'Histoire des ReligionS,Bauch nese et ses Fils , rael etParis , 1946 , P . 784 ; J . Charles Ledit , Mahomet , Is le Christ , La Colombe , 1956 , P . 100 .

ومع ذلك ، فمن المستشرقين من رفضوا هذه الرواية ، مثل المستشرق الإيطالى كايتانى [١٠٠] .

والحقيقة أن حجة جيوم هى حجة جدّ ضعيفة ، فهُو يبنيها على أساس أن المسلمين المخلصين هم الذين أوردوا هذه الرواية لكن الملاحظ أنها لم ترد فى أى من كتب الصحاح ، علاوة على أن ابن إسحاق قد عزاها بغير تردد إلى الزنادقة [١٠١] .

وقد قال رودنسون إن المسلمين والمشركين قد سجدوا لدى سماعهم هاتين الآيتين . ولا أدرى لم يسجد المسلمون هنا والآيتان ليستا موضع سجدة . أما رواية الطبرى فإنها تجعل السجود فى آخر السورة ، عند قوله تعالى : ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ [١٠٢] وهذا مفهوم بالنسبة للمسلمين . أما بالنسبة للمشركين فإنى لم أقرأ أنهم كانوا يسجدون لأصنامهم . لم يذكر ذلك القرآن . وكذلك لم يذكره ابن هشام ، وقد تكلم كثيرا عن عبادة الأوثان فى جزيرة العرب ، ولا ابن الكلبى ، الذى خص الأصنام وعبادة المشركين لها بكتاب مستقل ذكر فيه أنهم

---

(١٠٠) انظر جوزيف هبى / ص ٧٨٥ .

(١٠١) انظر د . محمد حسين هيكل / حياة محمد / ص ١٦٢

(١٠٢) انظر تاريخ الرسل والملوك / جـ ٢ / ص ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، وانظر أيضا ما أورده من روايات فى تفسير الآية ٥٢ من سورة « الحج » .

كانوا يبنون لأصنامهم البيوت ويعيّنون لها السدنة ، ويُهدون إليها ، ويتقربون إليها بالذبائح ، ويقسمون لها من أنعامهم وحرثهم ، ويحجون إليها ، ويحلقون عندها رؤوسهم ، ويتمسحون بها ، ويجعلون ما حولها حِمىً ، ويستقسمون لديها بالقداح ، ويُسمّون بها ، ويتسمون بعبد اللات وعبد مناة .. إلخ ولكن لم يرد فيه أنهم كانوا يسجدون عندها ، فإذا كانوا لايسجدون عندها فكيف إذن سجدوا عند مجردٍ سماعهم أسماء اللات والعزى ومناة فى آية قرآنية ؟

ثم إن آية السجدة فى السورة تقول : « فاسجدوا لله واعبدوا » أى أنها تأمرهم بالسجود لله لا لآلهتهم ، فكيف فاتهم هذا وسجدوا برغمه والكلام عربى واضح مبين ؟ لقد سجل القرآن عليهم قبل نزول هذه السورة (فى سورة « القلم » مثلا) وبعد نزولها (فى سورتى « الفرقان » و « الانشقاق ») (١.٣) أنهم لا يسجدون عند سماعهم القرآن . يقول تعالى : ﴿ يوم يُكْشَفُ عن ساق ويُدْعَوْن إلى السجود فلا يستطيعون * خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يُدْعَوْن إلى السجود وهم سالمون ﴾ (١.٤) . أى أن الله سبحانه سوف يبكتهم يوم

(١.٣) انظر فى ترتيب نزول السور القرآنية « مقدمتان فى علوم القرآن » / نشر آرثر جفرى / مكتبة الخانجى / ١٩٧٢ / ص ٨ - ١٣) .

(١.٤) القلم : ٤٢

القيامة بأمرهم بالسجود ، ثم يعلّيهم بتعجيزهم عنه عقابا لهم على أنهم كانوا يؤمرون بالسجود فى الدنيا فى حال استطاعتهم فلا يفعلون . ويقول عز وجل : ﴿ وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمن ، قالوا : وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفورا ﴾ (١٠٥) . ﴿ فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ؟ ﴾ (١٠٦) فكيف يقال بعد ذلك كله إنهم سجدوا لدى سماعهم قوله عز شأنه : ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ؟ ﴾ (١٠٧) .

---

(١٠٥) الفرقان : ٦٠.   (١٠٦) الانشقاق : ٢

(١٠٧) يرى مولانا محمد على أن المشركين قد سجدوا فعلا مع النبى والمسلمين ، لأنهم كانوا يعبدون الله على رغم عبادتهم للأوثان . وهو مع ذلك يرفض قصة الغرانيق تماما . وأرى أن آيات القرآن التى ذكرتُها والتى تقرّع المشركين على عدم سجودهم لله تنفى هذا الاحتمال نفيا تاما ، وانظر كتابه : « محمد رسول الله » / ترجمة مصطفى فهمى وعبد الحميد جودة السحار / مكتبة مصر / ٨٢ . أما الشيخ محمد الغزالى فإنه يرى أن المشركين ، من تأثير الآيات القارعة فى سورة « النجم » ، لم يملكوا أن سجدوا مع المسلمين ، لكنهم نُكسوا على رؤوسهم ، وأرادوا أن يسوّغوا ما فعلوه ، فاذعوا أن محمدا قد عطف على أصنامهم بكلمة تقدير . وقد ردّ الشيخ ناصر الدين الألبانى (فى الهامش) على الجزء الأخير من كلام الشيخ الغزالى (الخاص بادعاء المشركين كذبا أن الرسول قد عطف على آلهتهم بكلمة تقدير) بأنه كلام ينقصه الدليل النقلى . انظر محمد الغزالى / فقه السيرة / دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد / ط ٣ / ١٩٦٠. / ص ١١٧ - ١١٨ .

والعجيب أن رودنسون ، الذى يقول إن المسلمين قد سجدوا عند آيتى الغرانيق يعود بعد أقل من صفحة فيعزو رجوع محمد عن هذا التخاذل (المزعوم) إلى تمرد المسلمين وحنقهم وهو نفس ما ردده سلمان رشدى كما رأينا ، مع أن ذلك غير صحيح ، إذ لم يحدث أن نشز المسلمون على رسولهم فى أى موقف ، اللهم إلا فى غزوة الحديبية ، إذ كانوا قد زحفوا إلى مكة وفى ظنهم أنهم داخلوها ذلك العام بعد أن نبأهم الرسول أنه رأى ذلك فى المنام ، فلما استقر الأمر بين الرسول عليه السلام ومشركى مكة على أن يرجع ذلك العام بلا دخول ويعود فى العام التالى ليدخلها معتمرا حزن المسلمون . كما اعترض عمر على شروط المعاهدة ، إذ رأى أنها مجحفة بالمسلمين ، بيد أن الرسول أفهمه أن الله غير خاذله . فعندما أمر الرسول ﷺ المسلمين بأن يقوموا فيحلقوا وينحروا تباطأوا ، فدخل على زوجته أم سلمة رضى الله عنها حزينا لهذا الموقف منهم ، فاقترحت أن يخرج إليهم وأن يقوم بمرأى منهم ومسمع فيحلق ويضحى ، وسوف ينهضون حينئذ ويصنعون صنيعه ، وقد كان .

أليس مضحكا أن يحاول هؤلاء المستشرقون أن يقنعونا أن أتباع الرسول كانوا أحرص منه على دعوة التوحيد التى هداهم هو بفضل الله إليها ؟ إن ذلك قلب للأوضاع !

كذلك فكيف يقال إن محمدا قد قرأ هاتين الآيتين المزعومتين مع آيات سورة « النجم » ، مع أن تلك السورة كلها ، من أول آية فيها إلى آخر آية ، ترفض هاتين الآيتين بعنف ؟ إن د . محمد حسين هيكل يرد هاتين الآيتين لأن الآيات التى تتلوهما تجرى هكذا : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ * تلك إذن قسمة ضيزى * إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس . ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ ، وهى كما ترى تعيب هذه الأصنام ، فكيف يتعاقب مدح وقدح على هذا النحو ؟ (١٠٨)

والحق أنه لا يُستبعد أن يقول الذين يركنون من المستشرقين وأتباعهم إلى حديث الغرانيق إن هذه الآيات الثلاث إنما جاءت فى موضع الآيتين المشار إليهما فنسختهما ، ولم تكن موجودة منذ البداية . وفى كلام ألفريد جيوم ما يوحى بأن هذا هو فعلا ما يعتقده ، إذ قال : « وعندما حذف محمد هذه الكلمات (يقصد آيتى الغرانيق) ، وأكد أن هذه الآلهة لا حقيقة لها (يقصد قوله تعالى : ﴿ إن هى إلا أسماء ... ﴾ إلخ) كان

---

(١٠٨) د . هيكل / حياة محمد / ص ١٦٥

غضب أهل مكة أعظم من ذى قبل [١٠٩] . من هنا فإنى أحيل القارئ إلى السورة كلها ، فإن مضمونها والجو النفسى الذى يخيم عليها من مفتتحها إلى مختتمها يؤكد العداء المستحكم بين الرسول ﷺ وقومه [١١٠]. فالآيات ١-١٨ ترد على تكذيب قريش له عليه السلام ورميهم إياه بالضلالة والغواية واتباع الهوى ، وتؤكد أن ما رآه الرسول عليه الصلاة والسلام حين نزول الوحى عليه إنما هو حق لا مرية فيه ، وتشير إلى حادثة المعراج ، وهى الحادثة التى كذّب بها أهل مكة تكذيبا شديدا ، وإذا تركنا الآيات التى تتحدث عن الأصنام الثلاثة فسنجد أن الله عز وجل ينفى أن يكون لملك من الملائكة أية شفاعة إلا بعد إذن الله ورضاه . ثم تعود الآيات فتتهكم بمن يؤنثون الملائكة بلا علم أو تثبت ، وتأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالإعراض عنهم لتوليهم عن ذكر الله ولهاثهم وراء الحياة الدنيا . أما الآيات ٣٣ - ٥٨ فإنها تتحدث عن أحد القرشيين المفتونين بثروتهم والباخلين مع ذلك بالإنفاق منها على المحتاجين ، وتقرّعه تقريعا

---

(١٠٩) جيوم/٣٦ . وانظر أيضا نفس الرأى E . R . Applton فى كتابه : An outline of Religion for children , Hodder & Stoughton , London , P . 522 .

(١١٠) ذلك أن السورة كلها قد نزلت دفعة واحدة ، ما عدا آية ٣٢ ، التى يذكر بعض العلماء أنها مدنية .

شديدا مسفهة اعتقاده فى الجزاء والمسؤولية الأخلاقية ، ومهدّدة إياه بمثل مصير عاد وثمود وقوم نوح ، ومعلنة بقوة مجلجلة أن هذا ليس إلا نذيرا من النذر الأولى ، وأن ساعة الغضب الإلهى والعقاب المزلزل قد دنت . ثم تنتهى السورة بالتعجب من تكذيب قريش للرسول والقرآن ، وتصلبُ قلوبهم حتى إنهم ليضحكون ولا يبكون ، فتأمرهم أمر تبكيت وتهديد أن « اسجدوا لله واعبدوا » . أيمكن أن يرد فى مثل هذا السياق الفكرى والنفسى آيات مجد بعض آلهة قريش ؟ إن ذلك لهو عين المستحيل ! أم هل يمكن أن يسجد المشركون مع المسلمين بعد هذه الحملة العنيفة عليهم وعلى موقفهم من الدعوة الجديدة وذلك التهديد الجلىّ لهم ، حتى لو قلنا إنهم قد سمعوا (بطريقة أو بأخرى) آيتى الغرانيق ؟ إن هذا أيضا لهو عين المستحيل !

كذلك فإن الآيتين المزعومتين تجعلان الإلاهات الثلاث (اللات والعزّى ومناة) مناطا للشفاعة من غير تعليق لذلك على إرادة الله وإذنه ، وهو ما لم يسنده القرآن على هذا النحو لأى كائن مهما تكن منزلته عند الله ، إن فى سورة « النجم » نفسها آية تقول : ﴿ وكم من ملك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ [(١١١)] فكيف يمكن

(١١١) النجم : ٢٦

أن يعلق القرآن الكريم شفاعة الملائكة على رضا الله وإذنه ويطلق شفاعة الأصنام الثلاثة من كل تعليق ؟

ثم إن الرسول ﷺ لم يكن من شيمه التردد يوما . وقد ترجّاه مرارا عمه أبو طالب قبل أن يخفف من موقفه تجاه الأصنام وعبادها ، فرفض رفضا باتا قائلا : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمرحتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . أفبعد أن عضده عمه كل هذا الوقت يتراجع هو هذا التراجع المشين ؟ ومتى ؟ بعد أن أعز الله الإسلام بدخول اثنين من صناديد قريش فيه : عمر بن الخطاب ، وحمزة بن عبد المطلب . ثم أيكون أتباعه الذين فروا بدينهم من تعذيب قريش إلى الحبشة أصلب منه وهم الذين كانوا يستمدون منه الثقة والإيمان والصبر على البلاء ؟ لقد صمدوا في وجه المؤامرة التي دبّرها لهم رسولا قريش عند النجاشي وبطارقته ، إذ جئ بهم ليعرضوا على الملإ في البلاط الملكي دينهم وعقيدتهم في عيسى عليه السلام فلم يكتموا منها حرفا وهم الأغراب المشردون المحتاجون إلى تملق مشاعر مضيّفيهم ولو عن طريق التعبير الروّاغ عن رأي الإسلام في السيد المسيح ، صلوات الله وسلامه عليه (١١٢) .

---

(١١٢) بتصرف عن كتابي « مصدر القرآن - دراسة في الإعجاز النفسي » / ١٩٨٦ / ص ٢٣ - ٣٠.

وإذا عمدنا إلى التحليل الأسلوبى لهاتين الآيتين المزعومتين فسوف يتضح لنا أنهما ليستا من نسيج القرآن الكريم ولا تمتان إليه بصلة . إن للقرآن أسلوبا خاصا به (١١٣) : فمثلا لا نجد القرآن ينادى الرسول باسمه أبدا ، ولا يقول له : « يا نبى الله » أو « يا رسول الله » ، بل يقول : « يا أيها النبى » أو « يا أيها الرسول » ، والأول هو الأغلب ومن أسلوب القرآن فى النداء عموما أنه فى أول الكلام يستعمل « يا » مع « أيها » (هكذا : « يا أيها ») ، أما فى دارجه فإنه يقتصر على « أيها » فقط (١١٤) ، كذلك لا يحدث ، إذا اقترن السمع والبصر فى القرآن ، أن يسبق البصر السمع ، بل يأتى السمع دائماً أولا ، وهكذا ... وهذه مجرد أمثلة ثلاثة .

لقد بدأت آيات سورة « النجم » المتعلقة بالأصنام الثلاثة بقوله تعالى : ﴿ أفرأيتم ... ؟ ﴾ . وهذا التعبير قد ورد فى

---

(١١٣) درستُ هذا الموضوع وقارنت بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث مقارنة مفصلة ، فاتضح أنهما أسلوبان مختلفان تماما ، مما يدل على أن الرسول عليه السلام لا يمكن أن يكون هو مصدر القرآن . وأرجو أن ترى هذه الدراسة النور قريبا بإذن الله .

(١١٤) مثال الأول : ﴿ يا أيها الناس ، اتقوا ربكم ﴾ (الحج : ١) ، ومثال الثانى : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ (النور : ٣١) .

القرآن إحدى وعشرين مرّة وكلها فى خطابى الكفار ، وليس من بين هذه المرات الإحدى والعشرين مرة واحدة استُعمل فيها هذا التعبير فى ملاينة أو تلطف أو ما إلى ذلك ، بل ورد فى هذه المواضع كلها فى مواقف الخصومة أو التهكم أو التقريع أو التهديد أو ما إلى ذلك بسبيل . ولعل ذلك هو السبب فى عدم استعمال هذا التعبير عند مخاطبة المؤمنين ، وهذه بعض الأمثلة : ﴿ قل : أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به ؟ ﴾ (١١٥) . ﴿ قل : أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حلالا وحراما ، قل : آلله أذن لكم أم على الله تفترون ؟ ﴾ (١١٦) ، ﴿ قل : أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ ﴾ (١١٧) ، ﴿ قل : أرأيتم ما تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السماوات ؟ ﴾ (١١٨) ، ﴿ أفرأيتم ما تمنون ؟ * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ ﴾ (١١٩) ﴿ قل : أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ (١٢٠) . فكيف يقال إذن إن هذا التعبير قد ورد فى

---

(١١٥) الأنعام : ٤٦ (١١٦) يونس : ٥٩ (١١٧) الزمر : ٣٨

(١١٨) الأحقاف : ٤ (١١٩) الواقعة : ٥٨ (١٢٠) الملك : ٣٠

سورة « النجم » بالذات فى سياق التلطف للكفار ومراضاتهم بمدح آلهتهم ؟ إن هذا أسلوب لا يعرفه القرآن البتة (١٢١) .

ثم إنه قد ورد فى الآية الثانية من آيتى الغرانيق كلمة « تُرْتَجَى » ، وهى غريبة ، فإن القرآن يخلو تماما من صيغة « افتعل » من مادة « الرجاء » . وهذا على أغلب الروايات (١٢٢) التى أوردت هاتين الآيتين . وقد وردت فى إحداها كلمة « تُرْتَضَى » بدل « تُرْتَجَى » . وهذه الكلمة وإن وردت فى القرآن ثلاث مرات فإنها لم تقع فى أى منها على الشفاعة . ونفس الكلام ينطبق على مادة « الرجاء » كلها .

---

(١٢١) أما الحجة التى ساقها زهير على شاكر فى نقض هاتين الآيتين والتى تقوم على أن عبارة « أفرأيتم ... ؟ » هى عبارة تحقيرية وبخاصة الفاء التى فيها فهى حجة منقوضة بأن هذه العبارة القرآنية ليست مطردة فى التحقير إذ وردت فى بعض مواضعها من القرآن فى معرض الإشارة إلى نعم الله سبحانه والامتنان بها على العباد ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ ﴾ (الواقعة : ٦٨) و ﴿ أفرأيتم النار التى تورون ؟ ﴾ (الواقعة : ٧١) . علاوة على أن هذا التعبير لا يأتى دائما مع هذه الفاء المشار إليها . والحق هو ما قلته من أنه لم يرد فى الإحدى والعشرين مرة التى ورد فيها فى القرآن إلا في مواقف الخصومة والعداء للمشركين .

(١٢٢) أورد الطبرى فى تفسيره للآية ٥٢ من سورة « الحج » صيغا مختلفة للآيتين المزعومتين . وقد ساق د . محمد حسين هيكل فى « حياة محمد » عددا من هذه الصيغ (ص / ١٦٤ - ١٦٥) . كما ذكر شمس الدين الفاسى سبعا منها (آيات سماوية / ص ٦٢) .

وإنما يُستخدم مع الشفاعة عادة الفعلان : « تنفع » أو « تغنى » (واقعَيْن منها ، فهى فاعل لهما) أو الفعل « يملك » (واقعا عليها ، فهى مفعولة له) . قال تعالى : ﴿ ولا يُقْبَل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ﴾ (١٢٣) . ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ﴾ (١٢٤) . ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ (١٢٥) . ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ (١٢٦) ، ﴿ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ﴾ (١٢٧) ، ﴿ وكم من ملك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله ﴾ (١٢٨) . ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ (١٢٩) . ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق ﴾ (١٣٠) . فكما ترى فإن كل الدلائل تؤكد أن هاتين الآيتين لا يمكن أن تكونا من القرآن . وأغلب الظن أنهما ، كما يقول ابن إسحاق ، من وضع الزنادقة . وهو قريب مما قال به القاضى عبد الجبار ، إذ جعلهما من روايات الحشوية ودسائس الملاحدة . (١٣١) وهاتان الآيتان

---

(١٢٣) البقرة : ٤٨ (١٢٤) طه : ١٠٩ (١٢٥) سبأ : ٢٣

(١٢٦) المدثر : ٤٨ (١٢٧) يس : ٢٣ (١٢٨) النجم : ٢٦

(١٢٩) مريم : ٨٧ (١٣٠) الزخرف : ٨٦

(١٣١) القاضى عبد الجبار / تنزيه القرآن عن المطاعن / دار النهضة الحديثة / بيروت / ص ٢٧٤

الملفقتان هما ترديد لما كان القرشيون يقولونه فى الجاهلية عند طوافهم بالكعبة [(١٣٢)] .

وهناك تفسير آخر للأمر يسوقه سيد أمير على ، وهو أنه لما نزل الوحى على رسول الله ﷺ بسورة « النجم » وأخذ يتلوها : عند الكعبة وبلغ قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى ؟ ﴾ خاف أحد المشركين أن يأتي النبى عليه الصلاة والسلام بشيء من ذمها ، فسبق إلى مدحها بهاتين الكلمتين . [(١٣٣)] وهو تفسير وجيه ، وبخاصة إذا عرفنا أن المشركين كانوا كثيرا ما يُجلبون على النبى عليه الصلاة والسلام وهو يتلو الوحى القرآني ويصفقون مستهزئين . قال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن ، والْغَوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ [(١٣٤)] ، ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا : أهذا الذى يذكر آلهتكم ؟ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ [(١٣٥)] .

* * *

(١٣٢) انظر ابن السائب الكلبى / الأصنام / تحقيق الأستاذ أحمد زكى / نشر الدار القومية للطباعة والنشر / ١٩٦٥ / ص ١٩ .

(١٣٣) انظر سيد أمير على / روح الإسلام / حـ ١ / ص ١١٣

(١٣٤) فصلت / ٢٦ (٣٥) الأنبياء : ٣٦

كذلك فليس من الممكن أن نبتلع ما قاله المؤلف عن سر تنكبه عن تسمية الرسول فى روايته « محمدا » ، وعدوله إلى كلمة « ما هوند » ، رغم معرفته أن الأوربيين كانوا يقصدون بها إهانته ﷺ . وحجته فى ذلك أنه ، كما احتفظ « المحافظون » فى بريطانيا بالتسمية التى أطلقت عليهم للحط من شأنهم (وهى كلمة « tories » ، وكما احتفظ « الأحرار » بتسمية الـ « whigs » [١٣٦] ، وهى لفظة أريد بها الإساءة إليهم ، وكما استعمل السود لأنفسهم كلمة « blacks » ، التى سماهم بها أعداؤهم ، فإنه يسمى النبى عليه السلام « ماهوند » [١٣٧] وهى حجة داحضة ، فإن المحافظين والأحرار والسود قد قبلوا (والعهدة عليه ، وبخاصة فى تسمية السود بالـ « blacks ») ما أطلق عليهم من تسميات مسيئة ، أما المسلمون فإنهم

---

(١٣٦) كانت كلمة « Whigs » تعنى فى البداية « لصوص الخيل والماشية » ويقال إنها مأخوذة من كلمة كان الإسكتلنديون يصيحون بها فى الخيول لدفعها إلى الجرى . أما « Torries » فكانت تطلق على طريدى العدالة من أتباع البابوية ، ويبدو أنها مأخوذة من لفظة أيرلندية كان اللصوص يهددون بها من يسرقونهم كى يعطوهم ما معهم . انظر مادة « Whig and Torry » فى Encyclopaedia Britannica/ط ١٤ ، ومادتى « Whigs » و « Torries » فى Dictionnaire de Biographie , d'Histoire , de Geographie , des Antiquites & des Institutions لمؤلفيـه Bachelet و Dezobry .

(١٣٧) الرواية / ص ٩٣

لا يقبلون تسمية ﷺ بـ « ماهوند » ، ولا يوافقون المؤلف على أن استعمال هذا الاسم يحوّل « الشتيمة » إلى عنصر قوة . أن رشدى يقول إن اسم « ماهوند » يعنى « الشيطان » ، وإنْ الأطفال كانوا يُخَوَّفون به فى العصور الوسطى (١٣٨) ، فما الذى فى هذا مما يمكن أن يتحول إلى عنصر قوة ؟

ثم إن المسألة فى حالة الرسول مختلفة ، فإن له عليه السلام اسما جميلا هو « محمد » ، أما هؤلاء فقد كانت هذه كل ما لديهم من تسميات . ثم إن هذه التسميات قد عاشت وقتا طويلا وتطورت وذالت عنها معانيها القبيحة الأصلية . أما اسم « ما هوند » فقد اندثر ، ولم يتطور معناه إلى معنى حسن ، إذ إن الأوروبيين لا يزالون على موقفهم القديم من الإسلام ونبيه ، وهم الذين يكتب لهم المؤلف روايته هذه فى الدرجة الأولى . فتسميتا « whigs » و « torries » لم تعودا تستعملان منذ سنة ١٨٢٨ م (١٣٩) .

لقد أراد سلمان رشدى أن تكون إساءته إلى النبى والإسلام كاملة ، فلم يقتصر على اتهامه عليه السلام بالزيف ، بل مد

---

(١٣٨) الرواية / نفس الصفحة .

(١٣٩) انظر هاتين المادتين فى Walter Theimer , The penguine political Dictionary , 1942 .

الإساءة ألى اسمه الشريف أيضا . والواقع أن كلمة « ماهوند : mahound » هى من الكلمات التى تحمل أسوأ الدلالات ، إذ كانت تعنى « محمدا النبى المزيف » ، وكانوا فى العصور الوسطى يتخيلون أن أتباعه يؤلهونه ويعبدونه . كما تعنى « إلها مزيفا ، وصنما ، ووحشا ، ومخلوق كريها بشدة » ، ومن معانيها كذلك « الشيطان » (١٤.) . وهذه الكلمة كما قلت قد سقطت من الاستعمال الآن ، ولا يجدها الباحث إلا فى مبسوطات المعاجم ، كقاموس أكسفورد الكبير ذى الأجزاء الضخام ، أى أن سلمان رشدى يصر على إحياء مخلّفات العصور الوسطى أفكارا وسبابا ويبدو لى أنه يريد أن يقول إن محمدا كان يخترع الوحى وينسبه إلى جبريل ، الذى لا وجود له . وعندما يتورط محمد فى شىء ويريد أن يتراجع عنه فإنه ينسبه إلى الشيطان ، مع إنه هو الشيطان (ماهوند) . إنه فى نظره ليس « محمدا » ، لأنه لا يرى أنه يستحق الحمد ، بل هو « ماهوند » (mahound : الشيطان . الوحش الكريه . الصنم الذى يعبده المسلمون !) . هذا هو مقصد سلمان رشدى ،

(١٤.) ومثلها إلى حد كبير Mahomt و Mahom و Maumet انظر فى معانى هذه الأسماء The oxford English Dictionary (مجلد / ٦) ، و Larousse du XX esiedeg (مجلد / ٤) ، و Dic-Nouve ou tionnaire National (مجلد / ٣) .

ولكنه يخرج للمسمين لسانه ، ويلقى إليهم بكلمات ساذجة عن الشتائم التى تتحول إلى عنصر قوة للمشتوم يظن أنها ستجوز عليهم .

وهذا نص من النصوص التى تبين أن سلمان رشدى يرى أن جبريل ليس له وجود ، وأن ما يقال إنه وحى إلهى إنما هو من عند محمد (عليه الصلاة والسلام) . تقول الرواية :

يقع الأمر : الوحى . هكذا : يصبح محمد ، وهو لا يزال فى (لا) نومه ، متخشبا ، تنفر عروق رقبته ، يتشبث بنقطة المركز . لا ، لا ، لا شيء هنا يشبه نوبة الصرع ، فأى نوبة صرع قد جعلت يوما النهار يتحول إلى ليل ، جعلت السحب تتجمع فوق رأسك ، جعلت الهواء ، يغلظ ويتحول إلى صابون ، على حين يتدلىً من السماء فوق الشخص الذى يعانى ملاك فزع لدرجة السخف ، مربوط مثل طيارة ورقية فى خيط ذهبى ؟ [١٤١] الجرّ ثانية ، الجرّ والآن تبدأ المعجزة فى أحشائهينا [١٤٢] ، إنه يبذل قصارى جهده فى شىء ما ،

---

(١٤١) واضح أن سلمان رشدى ينفى الصرع عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، على عكس ما ذكر فهمى هويدى من أن الرسول فى هذه الرواية مصاب بالصرع والهلوسة .

(١٤٢) أحشائه/ئى/ ـنا ، والمقصود : « أحشائه / أحشائى/أحشائنا » دلالة على أن محمدا وجبريل هما شئ واحدا .

محاولا بعنف شيئا ما ، ويبدأ جبريل في الشعور بتلك القوة ، بذلك العنف ، إنه هذا في فكيّ يفعلها ، يفتح ويغلق ، والقوة التي تبدأ في داخل محمد ، وتصل إلى أحبالي الصوتية ، ويأتي الصوت .

ليس صوتي لن أعرف أبدا مثل هذا الكلام وأنا لست متكلما بارعا بل لم أكن ولن أكون ولكنه ليس صوتي إنه صوت (١٤٣) .

تنفتح عينا محمد على آخرهما ، يرى نوعاً ما من الرؤى ، محملقا فيها ، نعم ، هذا صحيح ، يتذكر جبريل ، إياى . إنه يراني . شفتاى تتحركان ، يحركهما . ماذا ؟ من ؟ (١٤٤) لا أعرف ، لا أستطيع القول ، ومع ذلك فها هو ذا خارجا من فمي ، صاعدا من حلقي ، مارا بأسناني : الكلام .

أن تكون بوسطجي الله ليس لعبا ،

لكنلكنلكن (١٤٥) : ليس الله في الصورة ،

الله يعرف بوسطجي من أنا ؟ (١٤٦) .

وهذا كله نابع من أنه فيما هو واضح لا يؤمن بوجود الله ، فضلا عن أنه يسخر منه سبحانه ، فهو مرة يسميه « الجدع ده :

---

(١٤٣) « Voice » لاحظ حرف « V » الكبير .

(١٤٤) انظر الترقيم الغريب المرهق . (١٤٥) لكن / لكن / لكن .

(١٤٦) الرواية / ص ١١٢ . وقد حاولت أن ألتزم طريقة الكاتب في تركيب الكلام وترقيمه ، لأعطي للقارئ فكرة عملية عن البهلوانيات المرهقة التي يلجأ إليها سلمان رشدي ، وأسلوبه في الكتابة ، وهو ما خصصت له فصلا كاملا في هذا الكتاب .

« this fellow »[١٤٧] ومرة يقول إنه يخدع الملائكة بالكلمات المعسولة ، فهم مثلا يريدون الحرية ، ولكنه يضحك عليهم بقوله إنهم ينفذون إرادته على الأرض بأن يباركوا الإنسان ويلعنوه . والملائكة ، كما يقول رشدى مخلوقات يسهل إرضاؤها فما إن يجعلهم أدوات لك حتى يعزفوا لك النغمة التى تحب . أما البشر فهم أصعب مراسا[١٤٨] . وفى موضع آخر نراه يعلل تسمية القرآن له عز وجل بـ « الأعلى » بأنه يحطم البشر .[١٤٩] وفى موضع رابع يصوِّره ، وقد ظهر لجبريل فاريشتا فى لندن ، على النحو التالى : « رأى ، جالسا فى السرير ، رجلا فى مثل سنه تقريبا ، متوسط الطول ، ممتلىء البنيان إلى حدّ ما ، ذا لحية بلون الملح والفلفل مقصَّرة إلى قريب من خط االفك : على أن ما لفت ذهنه أكثر هو أن الصلع كان يزحف فى رأس ذلك الكائن ، التى يملؤها القشر ، كما كان يلبس نظارة . لم تكن تلك صورة الله التى توقع أن يراها . وسأله جبريل : « من أنت ؟ » ... فأجاب الكائن : « أوپار ڤالا . الجدع اللى فوق » فسأله جبريل بمكر : ومن أدرانى أنك لست الجدع الآخر، نتيشاى ڤالا ، الجدع اللى من تحت ؟ » وهو سؤال جرىء من شأنه أن يؤدى إلى إجابة غاضبة . وهذا الإله يمكن أن يكون شبيها بكاتب عمومى ضعيف البصر ، ولكن من الممكن جدا أن يحرك قولى هذا الجهاز التقليدى للغضب الإلهى . وأخذت

---

(١٤٧) الرواية / ص ٩٩ (١٤٨) ص / ٩٢ (١٤٩) ص / ٣٧٣

السحب تتجمع خارج النافذة ، وهزت الريح والرعد الغرفة هزا . وشرعت الأشجار تتساقط فى الحقول ... وألقى ذلك الزائر على السرير المشوش الترتيب الذى أراح عليه مؤخرته (كان جبريل قد لاحظ حينذاك أن نورا خافتا يصدر منها ، مثل سائر جسم ذلك الشخص) نظرة ضيق بالغ [(١٥٠)] .

* * *

سلمان رشدى إذن يرى أن القرآن من خلق الرسول عليه الصلاة والسلام . وهو حرٌ فى رأيه ، فلكل إنسان عقله وتفكيره . ولو أن سلمان رشدى اكتفى بهذا ما هاج أحداً ، لكنه كما بيّنا فى أكثر من موضع من هذا الكتاب قد أساء إلى الإسلام وعقائده ونبيه عليه الصلاة والسلام وزوجاته النبيلات الطاهرات رضوان الله عليهن إساءات سفيهة بذيئة لا يسوّغها علم ولا فكر ولا فن ولا أدب .

ومن أعجب العجب أن يدعى أحد أن المأمون ، الخليفة العباسى ، قد سبق سلمان رشدى إلى القول بأن القرآن من خَلْق محمد . إن تشارلز يول فرونيد لا يكتفى بالدفاع عن حق سلمان رشدى فى أن يعتقد ما يشاء وأن يذيع ما يعتقده على الآخرين ، وكذلك لم يكتف بأن يعلن موافقته على ما قاله سلمان رشدى من أن القرآن صناعة محمدية ، بل يمضى فيزعم أن المأمون قد سبق إلى ذلك القول . وهو يسند ذلك الزعم إلى

(١٥٠) ص / ٣١٨ - ٣١٩

أنتونى ناتنج ، ولكنه للأسف لم يحدد المرجع الذى استقى منه الكلام الغريب (١٥١) . ولقد بحثت فى كتاب هذا السياسى البريطانى عن « العرب » فى الفصل الخاص بالعصر الذهبى للإسلام ودور المأمون في ترقية الثقافة والفكر فى ذلك العصر، فلم أجد شيئا من هذا (١٥٢) . وعلى كل حال ، فمن الواضح أن قائل هذا الكلام لم يفهم ما كان المأمون يقوله فى هذه المسألة من أن القرآن مخلوق وليس قديما ، فقد كان المأمون يقصد بذلك تنزيه الله سبحانه عن أن يكون هناك كائن آخر قديم مثله ، إذ هو القديم الوحيد . أما القرآن فهو ليس إلها ، ولكنه كلام الله ، خلقه الله ، فهو حادث ، أى واقع داخل الزمان . فهذا معنى قول المأمون (والمعتزلة) ، الذين تأثر بهم ذلك الخليفة) إن « القرآن مخلوق » ، وليس معنا أبدا أن الرسول هو الذى خلقه ، فلا يمكن أن يقول بهذا أى مسلم . وقد كان ينبغى على من يريد الخوض فى هذه القضية أن يعرف ذلك ، بدلا من الزج بنفسه بجهل فى هذا المضيق .



---

(١٥١) فى مقال له بصحيفة « الواشنطن بوست » عنوانه :
A Rationalist Islam : History 's Intellectual Flower could bloom again .

(١٥٢) هذا الكتاب ترجمه محمد مسعود ، ونشرته دار الهلال فى جزأين فى شهرى يناير وفبراير ١٩٨٠ (عددى ٣٤٩ و ٣٥٠) . والفصل المشار إليه موجود فى الجزء الثانى / ص ١٠٦ - ١١٩

الفهرست

* * *

رقم الإيداع القانونى : ٤٨٣٠ / ١٩٩١

الترقيم الدولى : I.S.BN 977 - 00 - 1864 - 3

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري الحلمية الجديدة
ت: ٣٩١٩٣٧٧